

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة عموم الاوقاف
الرباط المغرب الاقصى



العدد الثالث - السنة السابعة
دجنبر 1963 - رجب 1383
ثمن العدد 1,50 درهم

العدد الثالث
السنة السابعة
دجنبر 1963 م
رجب 1383 هـ
ثمن العدد 1,50 درهم

دعوة الحق

مجلة تصدرها وزارة عموم الأوقاف

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الأوقاف. الرباط - المغرب

صورة الغلاف



منظر جزئي لمدينة الرباط
تبدو فيه قصبة الاوداية
(من أرشيف وزارة الأنباء والسياحة)

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :
مجلة ((**دعوة الحق**)) ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الاوقاف
الرباط ـ المغرب . الهاتف 10 ـ 308

الاشتراك العادي عن سنة 15 درهما ، والشرفي 30 درهما فأكثر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :
مجلة ((**دعوة الحق**)) رقم الحساب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او تبعث رأسا في حوالة بالعنوان التالي :
مجلة ((**دعوة الحق**)) ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط ـ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :

((**دعوة الحق**)) ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط
تليفون 10-308 ـ 03-327 ـ الرباط

دراسات إسلامية

جوانب فذة من شخصيات المرحوم المختار السوسي

للأستاذ : عبد اللطيف خالص

٭ كل انسان في هذا الوجود الا وله مقومات تكون شخصيته البشرية ومميزات فردية تظهر بها شخصيته وتبرز بها ذاتيته بالنسبة لبقية ابناء جنسه ؛ وقد اهتم مختلف الفلاسفة بمقومات الشخصية الانسانية وخصصوا لها دراسات ممتعة ووضعوا لها نظريات تقوى وتضعف بمجرد عرضها وتطبيقها على فرد من الافراد او جماعة من الجماعات وقسموا في عملياتهم هذه الشخصية الانسانية الى اقسام متعددة وفروع كثيرة نذكر منها الجانب الفيزيولوجي والجانب الاخلاقي والجانب الفكري الى غير ذلك من الجوانب التي لا يعتبر الفرد البشري فردا الا وطبقت عليه بجمعها لان سقوط اى جانب من هذه الجوانب مخل بالمقومات العامة والمميزات التي يتعين أن يتحلى بها كل فرد .

ونحن اذا حاولنا تطبيق هذه الفلسفة على شخصية فقيدنا الكبير العلامة محمد المختار السوسي فسوف لا يكفينا المجال المخصص لمثل هذا البحث لان جوانب الفقيد متعددة بتعدد مقومات شخصيته ومميزات ذاتيته .

ونود أن نشير قبل الشروع في هذه الدراسة الى أن كلمة « الشخصية » التي نتلفظ بها هنا لا تعني الشخصية الرسمية التي كان يتحلى بها محمد المختار السوسي حين ادركته الوفاة كوزير مستشار بمجلس التاج أو قاض في القصور الملكية او وزير سابق أو شخصية سياسية لعبت دورا هاما في ميدان النضال والتحرير السياسي ؛ ولكننا نعني بها الشخصية الانسانية التي كان يتميز بها الفقيد الجليل عن بقية المواطنين والتي كان يتحلى بها في وسطنا المغربي كمواطن له شخصيته الخاصة به وذاتيته التي انفرد بها .

وسوف لا نتوقف في هذا البحث عند الجانب الفيزيولوجي الذي يتعين ان يهتم به الاخصائيون وان كان ليس من الصعب علينا ان نتكلم عن الشكل الجسماني الذي كان عليه الفقيد السوسي ولكننا نفضل ان نحلل الجانب الاخلاقي في هذه الشخصية التي كانت اغرب والمع شخصية من حيث الاخلاق عرفها المغرب في عهده الحديث .

كان محمد المختار السوسي من حيث مكانته الاجتماعية في البلاد شخصية بارزة كما نعبر عن ذلك اليوم اذا اردنا ان نتكلم عن فرد من الافراد يتحمل مسؤولية رسمية في الدولة . وكان على الاستاذ السوسي ان يغتنم هذا المنصب السامي الذي يوجد فيه ليضفي على نفسه وعلى حياته جلباب المهابة والكبرياء والعظمة فلا يرى الا في الحفلات الرسمية ولا يعيش الا في الدوائر العليا ولا يفكر الا فيما يفكر فيه زملاؤه من اصحاب الالقاب الفخمة والكراسي الفخمة والمناصب العليا ولا يتصل الا باقرانه من ذوي الجاه والسلطة ولا يسير في حياته ومنواله الا على المنهج الذي ارتضاه بعض المسؤولين لانفسهم فانعزلوا عن الناس او انعزل الناس عنهم على الوجه الاصح مفضلين حياة القصور والبروج العاجية على حياة الاكواخ والاتصال بالمواطنين كيف ما كان شأنهم ومهما كان مقامهم .

وهنا يتجلى لنا بكامل الوضوح جانب من جوانب عظمة الفقيد محمد المختار السوسي وهو حياة البساطة والنفور من المهابة والجاه والسلطة والاعتماد في حياته على الوضعية الاجتماعية التي اكتسبها في الاوساط الشعبية اثناء فترة الكفاح الوطني عندما كان يواصل عمله النضالي في ميادين التربية والتعليم والثقافة

٭ في العدد القادم تنشر المجلة تتمة بحث الاستاذ عبد اللطيف خالص عن « ضرورة مسايرة الادب لتيار التطور »

والتدريس غارسا بذور المعرفة في نفوس تلاميذه الذين لا عد لهم ولا حصر ونافخا فيهم (لا منفوخا كما يحلو لبعض السذج أن يقول) روح الوطنية والكفاح الصادق والفداء الاسلامي الطاهر .

والحقيقة ان هذه البساطة التي كان عليها استاذنا الجليل رحمه الله قد اكسبته مكانة اجتماعية لم يستطع ان يحصل عليها لا وزير ولا مدير ولا رئيس ولا زعيم لانه اكتسبها بتواضعه الجم وبساطته النادرة التي كانت تتجلى في سلوكه العام وفي حياته الخاصة . فقد قدر لنا نحن الذين كنا على اتصال متين بهذا الفقيد الجليل ان ندرس شخصيته في حياته وكان يبهرنا بهذه البساطة التي ضرب بها الرقم القياسي وهذا التواضع الذي اصبح مضرب الامثال عند العامة والخاصة والذي اكسب فقيدنا شعبية عظيمة ومكانة جليلة جعلته يعتلي ذروة المجد والصدارة في مجتمعنا وعند ابناء هذا الوطن الذين كانوا يفتتنون كما كان يفتتن هو بدوره عندما كانوا يسمعون جريدة تتكلم عن العلامة المختار السوسي او اذاعة تردد اسمه الكريم العزيز .

قلنا ان هذا الجانب الاخلاقي كان يتجلى في البساطة التي كان عليها الفقيد الجليل رحمة الله عليه ; وكانت هذه البساطة بدورها تتجلى في حياة الاستاذ الفقيد في بيته ومع اهله حيث شهد الذين حضروا لتقديم تعازيهم الى ذويه او لتشييع جنازته ان بيت الاستاذ لم يكن مفروشا بالاثاث الباهر والزرابي المبثوثة والحشيات المنفوخة والاواني الانيقة التي يتفنن غيره في اقتنائها وتقديمها الى الزوار الذين يترددون على بيوتهم . وكما كانت هذه البساطة تتجلى في فراش البيت وشكله وهيأته كانت تتجلى في المآكل والمشرب اللذين كان الفقيد العظيم لا يخرج فيهما عن الضروري وما تهواه نفسه الراضية القانعة . ويجب ان لا يتطرق الى اذهان القراء ان بساطته في هذا الميدان ترجع الى كونه تربى في بيئة خاصة الفت هذا النوع من الحياة فقد كان الفقيد اعلم الناس بالطبخ الجيد اللذيذ ولكن طبيعته وحبه للبساطة واستعداده لكل طارئ قد جعله يسير على نهج مألوف وحياة عادية دعامتها البساطة واساسها التواضع لله وللناس .

وننتقل الى شكل الاستاذ وهيأته فنجد ان طابع البساطة يفعل مفعوله فيهما : فالاستاذ يأبى حمل الثياب الفخمة التي يرتديها البعض رغبة في زيادة الاحترام والتعظيم وحبا في الظهور بمظهر المتكبر المتعجرف المتبختر في لباسه ومشيته وسلوكه مع الناس .

فقد كان الفقيد عليما بقدره ، فخورا بعلمه ، معتزا بسلطان المعرفة والثقافة وكان يرى في ذلك كفاية له ويعتقد انه حاز القسط الاوفر ما دام متوفرا على قلب خاشع ولسان مبدع وضمير مرتاح .

وبالاضافة الى هذه البساطة في العيش والسلوك التي طبعت حياته فقد عرف الفقيد رحمه الله ميزة كبيرة جليلة اخرى هي تواضعه الجم ومسايرته لكل طبقة اجتماعية مهما صغر قدرها وقصر باعها ; وكان تواضعه الجم يتجلى في اتصالاته العديدة بالناس واحاديثه الممتعة مع الجميع لايفرق بين كبير وصغير فقد فتح قلبه لكل سائل وسمعه لكل طالب كما ابدى الاستعداد للاجتماع بكل انسان عالما كبيرا كان ام جاهلا رئيسا كان ام مرؤوسا ، حاكما كان ام محكوما .

ولم يكن تواضع الاستاذ الفقيد رحمه الله مبنيا على الحصول على منفعة شخصية او مصلحة فرديه وانما كان اساسه الايمان العميق الصادق وجدارة محبة المخلوقات كافة والسعي في خير الجميع وصلاح الامة باسرها حتى اذا قبضه الله اليه ترك جميع الذين عرفوه يلهجون بالثناء الجزيل عليه ويذكرونه بكل خير لانهم فقدوا فيه ذلك الرجل المتواضع الذي لم تغيره الوظائف ولم يدوخه الجاه والسلطان ولم يبعده المنصب مهما علا وسما عن البقاء على اتصال بالجماهير الشعبية والاوساط الثقافية وجماعات العلماء والشيوخ وحلقات التدريس وتلاميذه الكثيرين وطلبته العديدين لا لغرض دنيوي او غاية سياسية او قصد مادي او انتفاعي كما يفعل بعض الكبار والعلماء والزعماء وانما بغية احياء الروابط وعدم ضياع الاصدقاء وفقد الاخوة والانفصال عن التيار الشعبي الذي ما تنكر له احد الا وانكره بالمرة .

وحبذا لو سار بعض من هم في صنف الفقيد الجليل على نهجه وسبيله فقد يجمعون على محبتهم وتقديرهم ما لم تستطع عظمتهم وكبرياؤهم ان تضمناه لهم طيلة السنين والاعوام .

وقد كانت لذة الاتصال بهذا الاستاذ الجليل والتحادث معه ومطالعة مؤلفاته العظيمة واخذ فوائده « ولو على الموائد » كما كان يحلو له ان يردد تدفعني

الى الاعتزاز به خصوصا عندما اقارنه بعدد من العلماء والكتاب والشعراء والمفكرين الذين انفصلوا لسبب من الاسباب عن ميدان الفكر والثقافة ؛ وكان اعجابي به يدفعني في كثير من الاحيان الى التحدث عنه والكتابة والتعليق على مؤلفاته وكتبه القيمة جاعلا نشاطه خير مثال لأرباب الفكر في بلادنا ولكنه كان كلما صدر مقال مني او حديث عنه في هذا الموضوع الا واستشاط غيظا رغم رضاه عما كتبت او تحدثت به لأنه كان يفضل ان يبقى مغمورا منسيا لا تلتفت اليه الانظار مكتفيا بتقدير أصدقائه الكثيرين وتلاميذه وطلبته واخوانه في ميدان الكفاح .

وكثيرا ما كانت تدور بيني وبينه رحمه الله احاديث حادة في هذا الشأن لانني لم اكن اوافقه على هذا النوع من الاختفاء بل كنت الح عليه في ضرورة مسايرة العقلية الجديدة بكل ما فيها من محاسن ومساويء ومناقب ومثالب مبينا له انه لا يعقل ان تجري في البلاد عدد من الاحداث السياسية والاجتماعية دون أن يكون له نصيب فيها وضاربا له المثل ببعض الجاهلين والاميين الذين استطاعوا ان يبلوروا حول اشخاصهم عددا من الافكار والافراد ولكنه كان رحمه الله يعارض كل هذه الاراء لانه يأبى حياة تبنى فيها الشهرة على غير العلم والمعرفة والفكر .

وكم كان رحمة الله عليه شديدا في هذا الباب لا يرضى بأي تسامح فيه ؛ ومن منا يستطيع أن يلومه على هذا النوع الذي ارتضاه من الحياة وهو الرجل العليم الذي قضى كل حياته سائرا على هذا النهج دون أن يعرف تبديلا او تحويلا .

وفي اطار هذا الجانب الاخلاقي يمكن ان نتكلم عن روحه الدينية الطاهرة : فقد كان رحمه الله مومنا اصدق الايمان ومسلما مخلصا لايقبل اي تراجع في الدين او تهاون مع الملحدين « او تعايش سلمي » مع خصوم الاسلام والمسلمين . وقد اثرت فيه العقيدة الدينية تأثيرا عجيبا تجلت فيه مظاهر الاستقامة التي كانت هجيراه في هذه الحياة . وقد لعبت الاستقامة في سلوك الفقيد دورا كبيرا ظهرت آثاره في حياته العملية وحياته الفكرية . وكانت الاستقامة بمثابة معيار يقيس به كل أموره فما كان داخلا منها في اطار هذا المعيار قبض عليه واستمسك به وما كان خارجا منها عن هذا الاطار أعرض عنه ونأى بجانبه ؛ ولعل روح الاستقامة التي كان يتقمصها استاذنا السوسي هي

التي أملت عليه سلوكه المثالي في هذه الحياة وهي التي فرضت عليه تواضعه الجم وبساطته في الحياة وانمزازه من الشهرة وبعده عن حب الظهور ونفوره من حياة العظمة والكبر .

وفي اطار هذا الجانب الاخلاقي يمكن أن ندرج روح الصبر والاصرار والمثابرة التي تحلى بها الاستاذ في ميدان النشر والتاليف وان كان هذا قد يدمجه البعض في الجانب الفكري من شخصيته هذا الجانب الذي لا اريد ان أهتم شخصيا بدراسته وتحليله احتراما لمقام استاذنا الفقيد والذي اريد ان يتكفل اخوان الفقيد من كبار العلماء والمفكرين بالاهتمام به والتعرض لنشاط الاستاذ العلمي والادبي ذلك النشاط العظيم الذي يذهل المرء امام طاقة صاحبه وقوته .

ولكن الذي اريد ان اتكلم عنه في هذا المقام هو جانب الصبر والاصرار والمثابرة وروح الاستمرار والتواصل التي امتاز بها فقيدنا العزيز ، ومما لا جدال فيه أن كل هذا يدخل في الجانب الاخلاقي من شخصيته .

لقد اختار الاستاذ السوسي لنفسه شعارا عظيما سار على ضوئه طيلة عمره ؛ وكان هذا الشعار هو الاستمرار في العمل وتواصل الخطى وتتبع الاعمال الواحد بعد الآخر دون تردد أو تلكؤ او هوادة ، فلم يكن يضره شيء مثل عجز القادرين على التمام لذلك شمر عن ساق الجد ووضع لنفسه منهجا وخطة وجند كل امكانياته المحدودة وطاقاته الفكرية للسير على هذا النهج الى ان يصل الى الغاية المرجوة بثبات واطمئنان . ولعل اكبر دليل على هذه الهمة العالية هو تحقيقه لبرنامج وضعه لنفسه في السنوات الاخيرة وكان هذا البرنامج يقضي بأن يصدر أولا سلسلة موسوعة « المعسول » بكامل اجزائها وهي لاتقل عن عشرين جزءا ، ثانيا بعض المؤلفات المتعلقة بخواطره وجوانب حياته الخاصة كـ « الالفيات » و « الرسالتين » و « الترياق المداوي » و « من افواه الرجال » دون التعرض الى « سوس العالمة » التي تعتبر مدخلا لذخيرة « المعسول » ذلك المؤلف الضخم الذي أحيى بواسطته فقيدنا الغالي عهد المؤلفات الضخام والموسوعات الكبيرة في الفقه والعلم والادب التي عرفتها الامة العربية يوم كانت تعيش في بحبوحة العيش وعند ازدهار حضارتنا الاسلامية .

ومنذ اعد الاستاذ الفقيد هذه الخطة اصبح يعتبر نفسه مجندا لتحقيقها الى ان يصل الى الغاية المنشودة والنهاية المحمودة وكان امل الفقيد ان لا يترك هذه الحياة حتى يحقق مبتغاه الاساسي وهو اصدار « المعسول » بجميع اجزائه وفصوله وفهارسه وبقية مؤلفاته الاخرى . وقد شاء الله سبحانه الا ان يحقق للفقيد مبتغاه فلم يقبض روحه الا بعد ان اخرجت المطابع المتعددة كامل اجزاء « المعسول » ولم يبق الا الفهرست الذي كان الفقيد رحمه الله يشتغل فيه قبل أن تصله سهام الموت وينتقل الى جوار ربه .

وقد تجلت روح الاستمرار والمثابرة في الاستاذ الفقيد اثناء السنوات الاخيرة عندما كان منهمكا في اصدار « المعسول » فقد اصبح هذا العمل شغله الشاغل وضالته المنشودة حتى ترك كل شيء مقابل تحقيق هذا المبتغى ، وكان كلما قدر لنا ان نزوره في بيته – وكثيرا ما كنا نحظى بذلك – او نتصل به في السيارة او نلتقي عند بعض الاخوان القريبين منه الا ونجد في يدي الاستاذ جزءا من « المعسول » تحت الطبع وهو مشغول بتبويب هذا الجزء او تصحيح ذاك او تحرير آخر ووضعه في قالبه النهائي . وحتى اذا ما خرجنا الى الشارع لنذهب الى هذه المطبعة او تلك او نزور هذه المحطة او تلك حيث كانت المطابع تبعث له بالنسخ الاولى ليصححها او ينقحها او يزيد فيها او يرتبها قبل الطبعة الاخيرة .

تلك جوانب العظمة في شخصية العلامة الفقيد محمد المختار السوسي :
تواضع مثالي لا يشوهه تكبر أو تعال وبساطة نادرة في الحياة وفي العمل والسلوك لايكدرها ولا يطغى عليها جاه أو سلطان وعمل متواصل مستمر في صمت واصرار وثبات وثقة بالنفس في ليونة وسماحة وذكاء حاد في حشمة ووقار . كل هذه الصفات الحميدة والخصال الجليلة كونت الجانب الاخلاقي في شخصية الفقيد الكريم حتى اذا قبضه الله اليه لم يخلف الاعراض الزائلة والامتعة الفانية النفيسة وانما خلف آثارا جليلة ومآثر عظيمة باهرة نطقت بعظمته وأوضحت مكانته الرفيعة وذكرا جميلا يجري على لسان كل من عرفوه ومن لم يعرفوه حتى اصبح الذين لم يكن لهم به اتصال فيما قبل يرددون قول الشاعر العربي :

لقد كنت في قوم عليك اشحة
بنفسك الا ان ما طاح طائح

يودون لو خاطوا عليك جلودهم
ولا تدفع الموت النفوس الشحائح

رحم الله فقيدنا الجليل واسكنه جناته الفسيحة وصدق الله العظيم : « يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » .

الرباط : عبد اللطيف احمد خالص



تجديد الأدب الإسلامي

للأستاذ: أنور الجندي

من ابرز مظاهر الادب العربي المعاصر : ظاهرة تجديد الادب الاسلامي او ما اطلق عليه (تأديب التاريخ الاسلامي) ونقله الى القوالب المستحدثة وعرضه على النحو العلمي الحديث ، وذلك فى الثلاثينات من هذا القرن .

وقد سبقت هذه المرحلة فترة غلب فيها الاغفاء الكامل عن هذا التراث والتجاهل المطلق له ، والاهتمام بجوانب المجون والتك والاباحة المنثورة فى بعض اثار الشعراء والكتاب ، ومحاولة اعتبارها ظواهر طبيعية لوضع نظريات اساسية يقوم فيها الحكم على العصور المختلفة من خلال هذه الصور الادبية المكشوفة .

وكان بعض الباحثين المتأثرين بالنظريات الادبية الغربية يحاولون ان يفرضوا منهاجا للبحث قوامه فصل التاريخ عن الدين ، وفصل الادب عن الدين مع محاولة للغض من قدر التراث العربي الاسلامي كله واتهامه بما اتهمه به غلاة المبشرين والمستشرقين .

والواقع ان المنهج العلمي الحديث فى البحث اذا طبق تطبيقا منصفا فانه لا يغض من قدر عظمة الامة العربية ولا مقوماتها ، ولا ينقص بطولاتها وتاريخها الضخم وحضارتها البارزة التي انصفها المنصفون وعجبوا لاثارها وقدروا مدى ما تنطوي عليه اللغة العربية والثقافة العربية الاسلامية من قدرات واثار استطاعت بها ان تهضم الفكر اليوناني اللاتيني وان تسبقه وتحوله الى كيانها ثم تمد فيه وتزيد عليه .

ولم تكن دراسات ابن الرومي او المعري او بشار او عمر بن ابي ربيعة او ابي نواس والخليع والضحاك الا دراسات قصد بها رسم صورة منحرفة لعصر هؤلاء الشعراء ، ولم يكن هؤلاء يمثلون عهدهم تمثيلا صحيحا الا اذا اضيف اليهم اعلام آخرون فى الفقه والادب .

* * *

غير ان هذه المرحلة فى محاولة تحطيم القيم وتزييف الشخصية العربية والثقافة الاسلامية العربية لم تستمر طويلا فان الاحداث فيما يبدو كانت اكبر من دعوة التغريب وتعد كتابة هيكل لحياة محمد فصولا منجمة فى « السياسة الاسبوعية » نقطة تحول فى هذا الاتجاه وبدءا لمرحلة جديدة .

ولا يمنع هذا من القول بان اول من كتب فى احياء الادب الاسلامي هو مصطفى صادق الرافعي بكتابه (اعجاز القرآن) ، وان لم يكن هذا الكتاب مستوفيا المنهج العلمي الحديث الذي يقوم على التبسيط والتحليل معا .

ويرى النقاد ان كتاب المدرسة الحديثة الذين كانوا يتهمون الرافعي بالرجعية قد اضطروا تحت ضغط بعض العوامل النفسية والسياسية التي مرت بالشرق قبيل الحرب العالمية الثانية ان يجددوا فى هذا الاتجاه الاسلامي وان يحدثوا فيه اعمالا هامة .

وقد اشار الدكتور هيكل الذي حول كتابه حياة محمد من ترجمة قاصرة على كتاب اميل در منجم الى دراسة شاملة : اشار الى ان مصر فى هذه الفترة تدافعتها موجة من دعوة المبشرين للطعن فى الاسلام ثم استفحل امر هذه الطائفة وكتبت الصحف منددة بها وداعية الحكومات الى محاربتها وايقاف نشاطها ، وقد شعر هيكل ان عليه ان يفسر الغاية التي ترمي اليها هذه الخطة لذلك فكر واطال التفكير ، وهداه

تفكيره الى دراسة حياة محمد (ص) صاحب الرسالة الاسلامية وصرف مطاعن المسيحيين من ناحية ومرمى جحود الجامدين من المسلمين من ناحية اخرى (على ان تكون دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة خالصة لوجه الحق ، ولوجه الحق وحده) .

ولو درى الدكتور هيكل ان هذا المنهج الغربي فى الدراسة انما هو فى الاساس منهج عربي اسلامي عرفه من قبل ابن حزم والغزالي وابن تيمية وابن الهيثم وان الغرب نقله عنهم وادعاه لنفسه .

وكانت كتابة هيكل لحياة محمد انطلاقة فى ميدان تجديد الادب الاسلامي واحيائه فقد كتب على اثر ذلك توفيق الحكيم (محمد) ، وطه حسين (هامش السيرة) وعبد الحميد المشهدي (صور اسلامية) واخذ الرافعي فى كتاب فصول اسلامية جديدة ذات طابع قصصي ، كما كتب العقاد عبقرية محمد والعبقريات بعد ذلك بسنوات .

واصبحت الكتابة الاسلامية طابعا جديدا للصحف والمجلات ، واخذت الرسالة تصدر عددا خاصا عن الهجرة كل عام تستكتب فيه عشرات من الكتاب فى العالم العربي واتصل هذا بما كتبه محمد عبد الله عنان عن مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ، وكتابه مصر الاسلامية ، وفى نفس الوقت ترجمت مؤلفات اوروبية عن الاسلام والعرب مثل حضارة العرب لغوستاف لوبون ، ووجه الاسلام لجب .

وفى العالم العربي برز هذا الاتجاه فكتب محمد كرد على الاسلام والحضارة العربية ، وشكيب ارسلان (غزوات العرب فى جنوب فرنسا وايطاليا) ، ومحمد فريد وجدي (الاسلام دين عام خالد) كما صدرت فى هذه الفترة مجلة الفتح التي انشأها السيد محب الدين الخطيب ، ومجلة الزهراء وخصصهما للادب الاسلامي ولقضايا العالم الاسلامي ، وكتب الدكتور حسين الهراوي عن المستشرقين والاسلام ، وكتب احمد امين ضحى الاسلام .

ومن هنا اصبح هذا الاتجاه تيارا واضح الاتجاه قوي الدلالة خاصة ، وقد استمر هيكل فى كتابة مراحل اخرى من تاريخ الاسلام بعد حياة النبي عن ابي بكر وعمر .. وكتابه منزل الوحي الذي استعرض فيه تاريخ الاسلام فى الجزيرة العربية ، واعلن الزيات عن كتاب يكتبه عن عبقرية الاسلام ليعارض به كتاب شاتوبريان عن عبقرية المسيحية ، واعلن ان الاسلام يضع الاسس والقواعد التي تضمن نظام العالم وسلامه وهو يرى ان الاصول الاسلامية افضل ما فى الديموقراطية واعدل ما فى الاشتراكية واجمل ما في المدنية .

ثم ظهرت ترجمات لصلاح الدين والظاهر بيبرس وشجرة الدر ، وقطر الندى ، والامام الشافعي ، ومنصور الاندلسي ، ومحمد عبده ، والمهدي ، والمعز لدين الله ، وبطلة كربلاء وسعد بن ابي وقاص ، وعلي بن ابي طالب ، اشترك فيها : عبد اللطيف حمزة ومحمد عبد الله عنان . وعلي احمد باكثير ، وسعيد العريان ، ومصطفى عبد الرزاق ، وابراهيم جلال ، وعلي ادهم ، وبنت الشاطيء ، وعبد الحميد السحار .

ومضى طه حسين فاصدر ثلاثة اجزاء من هامش السيرة ، ثم كتب عن الفتنة الكبرى وتاريخ عثمان وعلي ..

❊ ❊ ❊

الى جوار هذا العمل من المدرسة الحديثة كانت هناك المدرسة السلفية الاسلامية الخالصة تعمل على نحو مستحدث ايضا ، فقد كان كتابها ممن اتموا دراساتهم فى اوربا او حصلوا على ثقافة اوربية ، فلا يمكن اتهامهم بالتخلف امثال شكيب ارسلان وفريد وجدي ومحب الدين الطيب والدكتور الدرديري وعلي مظهر واحمد تيمور وصادق الرافعي واحمد زكي ومحمد مسعود ورشيد رضا .

وكان السيد رشيد رضا قد اصدر المنار عام 1898 وظل يواصل اصداره اكثر من 36 عاما واصدر محب الدين الخطيب الزهراء عام 1924 ، والفتح 1926 واستمر يصدره حتى عام 1951 تقريبا .

وقد عملت هذه المجلات فى الدفاع عن الاسلام ومقاومة التغريب عملا باهرا ، كما ابدت اهتماما كبيرا بقضايا الحرية فى العالم العربي وحملت لواء مقاومة الاستعمار وافسحت صدرها لدراسات متعددة عن احوال المسلمين فى العالم العربي .

ولا شك ان هناك مدرسة كاملة عاشت وراء المنار تاثر بها العالم الاسلامي كله ثم كانت مدرسة الفتح خليفة لها ذات اثر بعيد فى انشاء جماعة الشبان المسلمين فى العالم الاسلامي كله .

وقد ادت دورا هاما فى الاحياء الاسلامي العربي وتوجيه الفكر العربي وجهة خالصة حرة معتمدة على السلفية فى الفكر الديني والاحياء والبعث لامجاد التراث الاسلامي .

ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب يؤمنان بالاصلاح عن طريق الصحافة والكتابة يشاركهما شكيب ارسلان فى مؤلفه (لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم) ، وعمل فى هذه الفترة « فريد وجدي » فى مجلة نور الاسلام مقدما ابحاثه العلمية عن الاسلام والنبوة والوحي .

ويعد فريد وجدي امتدادا طبيعيا للمدارس الاسلامية القديمة مع شيء من التطور فى العرض والاستجابة للمذاهب الفكرية العصرية ، وكتابه الاسلام دين عام خالد ، وموسوعته (دائرة معارف القرن العشرين) ، وتفسيره للقرآن وتعريبه للغة وفصول الفلسفية الاسلامية تعد من التراث الفكري الضخم الذي لا سبيل الى تجاوزه او انكاره فى مجال التحدث عن البعث العربي والاسلامي .

ثم ظهرت دراسات اخرى من اهمها كتاب عبد الرحمن عزام (الرسالة الخالدة) ، وسيرة الرسول التي كتبها باسم (بطل الابطال) ، وكتب عبد الوهاب عزام (اخلاق القرآن) واحمد امين (يوم الاسلام) وكتب سعيد العريان (على باب زويله) ، وباكثير (واسلاماه) .

* * *

واذا اردنا ان نتحدث عن بواعث هذه الحركة نجد ان العامل الاول لها هو انهيار القيم والمثل الغربية التي كان يدعو اليها كتابنا المجددون .

ذلك ان هؤلاء الذين سافروا الى اوربا واتصلوا ببيئات المستشرقين وعادوا مؤمنين بالحضارة الاوربية لم يلبثوا ان اكتشفوا ان هناك حربا يقوم بها الاستعمار الاوربي من خلال الابحاث ذات الطابع العلمي ، فقد استغل المستشرقون الذين هم فى الاصل مبشرين او من العاملين فى وزارات المستعمرات ومن الذين تلقوا دراسات عن وسائل اخضاع الشرق لسلطان الغرب ، استغل هؤلاء الدعوة الى المذهب الجديد فى البحث للتشكيك فى كل القيم واثارة الغبار حول اللغة العربية والاسلام والتاريخ العربي على نحو ينكر ما فيه من قوة وحياة وجلال ، ويحاول ابعاده عن مجالات البحث ومناهج التعليم وفرض اللغة والتاريخ الاجنبي وعظمة الامة المستعمرة ممثلة فى بطولاتها وأدبها .

هذا فضلا عن روح الحضارة الغربية ذاتها وهي تحمل طابع المادية والفردية وتتجه الى الغزو الاقتصادي والتسلط الشامل على مقدرات الشعوب وترك هذه الشعوب فى فقر وشقاء ، وان ما يصدر الغرب الى الشرق من حضارته لم يكن الا الجانب المدمر ، فهي تصدر تجارة الرقيق والابيض والكحول ومواد الزينة ، والفرق المرحية ، بينما حال الغرب دون تصدير الآلات او المصانع او الاسلحة وحرص على ان تبقى البلاد مصدرا لخاماته وموردا لبضائعه واسواقا لانتاجه .

وكانت حركة التبشير من اقوى هذه المؤامرات التي اندفع الغرب اليها بقوة الى كل مكان فى العالم العربي والاسلامي ، حتى الجزيرة العربية نفسها فى تعصب ممقوت يحاول هدم كل قيمة فكرية عربية او عقيدة دينية وبدت اوربا متعصبة على نحو لم يعرف من قبل .

وقد قاوم العالم الاسلامي هذه الحركة مقاومة فعالة وخسرت اوربا من جرائها خسارة كبرى ، خسرت على الاقل كثيرا من الشباب المثقف الذي خدعته حضارتها وظن ان شعاراتها الخادعة هي حقائق جادة .

* * *

وقد صور هذا مستر جب حين قال : ان الشبان الذين عادوا من اوربا وحملوا الوان الحضارة وعادوا يبشرون بها ، قد عاد كثير منهم يشعرون شعورا قويا صادقا بانهم فى حاجة الى اكثر مما تمدهم الحضارة الغربية به ، وانهم لذلك يجب ان يلجأوا الى تراث السلف من المسلمين لالتماس ما ينقص هذه الحضارة الجديدة ، وزادهم شعورا بهذا النقص ان رأوا فكرة القومية تقوم فى الغرب على نضال اقتصادي عنيف لا يعرف هوادة ولا يقف فى وجهه اعتبار من قواعد الخلق والاخاء الانساني او من المودة والرحمة .

من هذا نبتت فكرة الكتابات الاسلامية لمواجهة الغزو التبشيري ، وكانت منطلقا للايمان بان المسلمين والعرب لن يستطيعوا ان يقيموا حضارتهم الجديدة دون ان يعتمدوا على المنابع الاساسية والقيم الاصلية لامتهم وحضارتهم وهي الاخاء وان المرأ لا يكمل ايمانه حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه ، حضارة الرحمة

والبر والايثار وحرية العقل ومقاومة الجشع والمادة ، وقد كشفت هذه الكتابات الاسلامية عن تعصب كثير من الكتاب الغربيين الذين تناولوا الاسلام او حياة النبي مدعين انهم يكتبون وفق الاسلوب العلمي ، وفي الغالب انهم عجزوا لعاملين هما مواريثهم العميقة المدى في التعصب ضد الاسلام وعجزهم عن النفاذ الى دقائق اسرار الحياة العربية او اللغة العربية .

ولا يمنع هذا من ان الكثيرين كانوا متصفين وان كارليل في كتابه الابطال وعبادة الابطال ، وجوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب واميل درمنجم في كتابه حياة محمد قد اتجهوا اتجاها طيبا .

ويقول الدكتور هيكل في تصوير اتجاهه الى تجديد الادب الاسلامي : كنت عظيم الثقة بالعلم والطريقة الغربية وانها ستؤدي بالانسان الى معرفة حقيقة الكون هي ملاك سعادة الانسانية ، وظلت ثقتي هذه قائمة حتى اعلنت الحرب الكبرى . . فلما وضعت الحرب اوزارها لبثت انتظر نتائجها العالمية في السلام العام وحرية الشعوب وحقها في تقرير مصيرها ، وكانت السنون كلها توالت بعد الصلح تفتح عيني على حقيقة بدات تقوى صورتها عندي حتى بلغت غاية القوة سنة 1920 هذه الحقيقة هي ان العالم يعاني ازمة روحية دفعت كتاب الغرب وفلاسفته الى التماس العلاج لها في فلسفة الهند الروحية ، والى جانب هذه الحقيقة لاحظت في اتجاه السياسة الاوربية ظاهرة غريبة ، تلك هي نشاط التبشير المسيحي في الامم الاسلامية ، واذ ذاك رايت ان ادرس لعلي اجد في حياة النبي الوسيلة لعلاج ازمة العالم الروحية ولانها في الشرق نهضة تبعث فيه حياة جديدة كحياة الغرب بعد القرن الخامس عشر .

ولقد وجدت دراسة في النبي العربي ودينه وتعاليمه والحضارة التي وضع اساسها ما خلق امامي عالما جديدا من عوالم التفكير لم يكن ذهني متجها اليه من قبل .

ويقول هيكل ان اية حضارة يجب لتقوم ان تتصل حتما بعنصر من الايمان ، ولقد خيل للعلماء زمنا ما ان العلم سيغذي النفوس بهذا الايمان ليقيم دين الطبيعة على نحو ما حاول روسو ان يقيمه او دين الانسانية على ما وصفه او جست كونت ، ولكن ما تم من محاولات في هذا السبيل لم ينجح في ان يقدم للجمهور العربي ما يرضي طلعته الى رجاء او امل في الطمانينة والسعادة .

ولذلك اندفع فلاسفة الغرب وكتابه وادباؤه يلتمسون هذا الغذاء النفسي في اديان الشرق وصور الايمان فيه .

وجانب الايمان في بلاد الشرق العربي قوي ايا كان الدين الذي يدين به هؤلاء الشرقيون ، وقد كان الاسلام وما زال دين اهل هذا الشرق العربي فلا يمكن ان يؤدي الادب رسالته اذا اهمل هذا الجانب القوي من حياة الشرق العربي .

ومن هنا يبدو هذا الاتجاه نحو تجديد الادب الاسلامي طبيعيا وانه استطاع ان يمثل تيارا قويا حيا مستمدا الى الآن ، وقد اتسع نطاق هذا التيار بعد الحرب العالمية الثانية وشارك فيه كتاب من المغرب وتونس وليبيا والسودان بالاضافة الى كتاب سوريا ولبنان والعراق .

وقد كان عمق هذا الاتجاه دافعا للدعايات المضللة التي حاولت الدعوات الهدامة ان تلقيها في تحطيم البطولة وانكار الروحية وتدمير القيم .

ولا شك ان شباب الامة العربية احوج ما يكون الآن الى هذا اللون من الدراسات ، دراسات بعث امجاده الفكرية وبطولاته وقيمه على النحو الذي يكون القاعدة الكبرى الاساسية التي يبني عليها حياته الجديدة ويهتدي على ضوئها في مختلف تقديراته للفكر الحديث ، فان بناء هذا الاساس سيعطيه القوة والنضوج والكفاية لكي لا يتميع او تمسخ شخصيته او تضيع في شخصية اخرى ، ولقد كانت القيم العربية الاسلامية القائمة على امتزاج الروح والمادة قادرة دائما على ان تفتح الابواب لكل الثقافات ، مستطيعة ان تختار منها وان تعيش في حدود حاجتها وكفايتها ، وعلى النحو الذي يزيد ملامحها قوة وحياة ، ويمكنها من الاندفاع في ركب التطور دون ان تضيع او تنطوي او تتحول .

القاهرة : انور الجندي

القرآن وتلاوته

للاستاذ : عبد الله الجراري

ليست تلاوة القصص والحكايات والاخبار مما له نسبة فى عالم المقروءات كتلاوة القرآن الكريم (ذلكم الكتاب الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) فلكتاب الله تعالى على باقي المقروءات الميزة الخاصة . والمكانة السامية التي يكفيه منها أنه كلام القديم جلت صفاته ، وتقدست كلماته ، التي يكفيه قداسة وشرفا ـ ان كان لا يمل سماعه ، ولا يخلق على كثرة الرد والتلاوة ـ لما لنظمه المعجز من النزلة القدسية ، والروعة الروحية ـ روعة الوحي والتنزيل، التي حسبه منها ان تكون الآية تتلى منذ اربعة عشر قرنا ـ وعند ما تطرق سمعك الساعة تحسبها وليدة الحال . وكلمة الجدة والابتكار برزت فى حلتها القشيبة وبهجتها الدمقسية الجليلة ـ هو القرآن العظيم الذي ساست مبادئه الحية عالم الشرق والغرب كليهما ، ونهضت تعاليمه الحرة باسم الدنيا التي طالما رسفت فى ادهم الجاهلية متافقة مما خيم فى ادمغتها من ويلات الوحشية والغباوة فى تلكم الحقب الغابرة ـ فنشلت بمعجزتها الباهرة كل درن كان يعمل على الهمجية والتفرقة ، فجمعت ووحدت ، وكونت عالما جديدا يدين بدين الانسانية الحق ـ هو القرآن الذي من تمسك به نجا ومن حكم به فلج (فاز) ، هو الكتاب الحكيم الذي ينطوي مكنونه المقدس على اسرار كونية كثر ما حاولها قادة التفكير وصناديد الفلسفة ساعين بجد فى تكوينها ، وها قد اصبح الجيل الحاضر يراها بعين الاعجاب والاكبار هي الى الاختراع والابتكار امس منها بغيره حسب نواميس الظاهر ، بينما نرى التالي الكريم كم امر ءايها البالغة على قلبه تاليا قوله جلت قدرته من غير أن يشعر بتلكم العمومات المستغرقة حتى ما لا يخطر بالبال منذ الآن « ويخلق ما لا تعلمون » التي لا تدع لمخترع من المخترعات الحادثة الانسحاب عن ذيل عموماتها الصالحة لتناول كل جديد يحفزنا للاستغراب والاعجاب ـ الله أكبر ما أعظمها ءاية ـ فهل يا ترى دار بخلد بشر قبل العصر الحاضر ان تتلى آي الذكر الحكيم من بعيد الشرق او الغرب فيحملها الاثير على جناح الامانة لاسماعنا غضة طرية كما انزلت أثناء تحبير جذاب لا يعتريه خلل او يحيط به لحن ـ فلم يبق اذا من شك يخالج ضمير أي كان ـ ، ان هذه الآيات البديعة ، والمنشئات المدهشة هي من مشمول الكتاب ومكنوناته العتيقة ـ واذ كان القرآن بتلك الخصيصة الفاخرة والمنزلة الشامخة الممتازة نهض احرار قرائه فسنوا لنا قوانين وضوابط نشروا فيها كيفية تلاوته . وحددوا لذلك حدودا لا يسلم الخارج عنها من الاثم حسب انحرافه عنها قوة وضعفا ـ فوضعوا للحروف مخارج ، ووضحوا مخرج الكل كما اعطوها صفات : من جهر وهمس ورخوة وشدة ، وبينوا مواقع المواقف والمبادىء من الكلمات القرآنية ـ اشياء جعلتها فى جميع المقامات الكلامية تضطر السامع للايمان بالخضوع حالة التلاوة عن حضور واخلاص ، ولا عجب فى ذلك اذا كانت تلك الاحوال للقرءان توقيفية اشعر بها الوحي على لسان النبي عليه الصلاة والسلام .

والآن يجدر بالقلم ان يجر كلمة موجزة حول موضوعات ثلاثة هامة ـ **اولا** : تجويد القرآن ، **ثانيا** : حكم اللحن فى القرءان ، **ثالثا** معرفة المبادىء والمواقف في القرآن .

اولا تجويد القرآن ـ والتجويد عبارة عن تحسين الفاظه باخراج الحروف من مخارجها واعطائها حقوقها

من الصفات وما يترتب على ذلك افرادا وتركيبا ـ وهو بهذه المثابة قدر لازم لكل قارىء للكتاب وتال ـ ، اما العلم بذلك (قبل كل شيء) ففرض كفاية على العموم، والعمل بذلك اعني القراءة بالفعل ففرض عين على صاحب كل قراءة ورواية رغم كون القراءة سنة ـ اما دقائق التجويد بالاتيان على كل ما طلب من القارىء فانما هي من مستحسناته ما دام لم يخرج عن جادة الاداء الى طرفي الافراط والتفريط ـ فيلزمه اذن ان يتحفظ فى ترتيل القراءة من التمطيط كما روى ذلك عن حمزة رحمه الله ، والحدر عن الادماج والتخليط اذ القراءة بمنزلة البياض ان قل صار سمرة وان كثر صار برصا ، وهذا ما دفع علماء الفن لحصر القراءة فى ثلاث مراتب : ترتيل ، وحدر ، وتدوير ، والمرتبة الاولى اتم واكمل ثم الثانية . فالترتيل عبارة عن التؤدة فى القراءة والتاني فيها ـ تشبيها له بالثغر المرتل وهو المشبه بنور الاقحوان وتلك قراءة نبينا عليه الصلاة والسلام التي كانت فى تؤدتها لو شاء العاد لعدها حرفا حرفا وذلك مذهب متبوعنا فى القراءة ورش رحمه الله كعاصم وحمزة رضي الله عن الجميع . والحادر الاسراع بالتلاوة كما هو معناه اللغوي ـ يقال حدر فى قراءته واذانه اسرع ـ وهو مذهب ابن كثير وأبي عمرو وقالون ، والتدوير درجة وسطى بين نوع القراءة وهو مذهب ابي عامر والكسائي وهذا هو الغالب على قراءتهم والكل منهم يجيز الثلاثة ـ انما الحالة الاولى اولى الحالات وأعلاها ـ ، فجاء انه صلى الله عليه وسلم قال : من احب ان يقرأ القرآن غضا كما انزل فليقراه قراءة ابن ام عبد يعني عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، فانه كان قد اعطى حظا عظيما امتاز به عن باقي الصحابة رضي الله عنهم فى تجويد القرآن وتحقيقه وترتيله كما انزله الله تعالى بشهادة المتبوع الاعظم صلوات الله عليه ، ناهيك ان النبي عليه السلام كان يامره بالقراءة عليه كي يسمع فيلتفت اليه ابن مسعود قائلا : اقرا عليك وعليك انزل ، فيقول له : نعم ، احب ان اسمع من غيري ، فقرأ عليه سورة النساء الى ان وصل الى قوله تعالى (فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) فقال عليه السلام حسبك الآن ـ وكانت عيناه تذرفان ـ . وفى الحديث الصحيح ايماء خفي الى بيان الطريقين فى اخذ القراء عن الشيوخ ـ فالتجويد فن لا يتلقى بالقواعد المسنونة حوله بل هو علم يتلقى من افواه الشيوخ المحنكين فى الفن ـ وبذلك يستطيع التلميذ ان ياخذ اخذا حقيقيا يخوله المعرفة بكيفية النطق بالحروف من مخارجها حيث يشاهد بعيني راسه احوال الشفتين واللسان والحنكين والفكين وغير ذلك من الاعمال التطورية فى الفن اثناء التلاوة ، ولا بدع ان يسلك التلميذ طريق الاخذ بتلك الرياضة الفكية كما يقول المقرىء :

وليس بينه وبين تركه
الا رياضة امرىء بفكه

ويصبح بتلك الصفة المنشودة فى كل قارىء رجلا يستلذه نظيره ممن درجوا فى ميدان الفن واخذوه اداء بنوعيه : سماع او قراءة عن الشيوخ الاكفاء .

لايعرف الفن الا من يدارسه
ولا القراءة الا من يعانيها

اما من لم يرق سلم الاخذ عن اهله ويا ما أكثره فلا تلبث تقرا لديه ءاية او ءايتين الا وتجده منثالا عليك بالقدح والثلب ، وعذره فى ذلك جهله المطبق بالفن وقواعده . وقصارى امره انه رجل قرا كما تعلم ـوصعب على الانسان ما لم يعود ـانما حسب القارىء الكريم ان يحتسب تلاوته قائلا : لو ذات سوار لطمتني)

ثانيا حكم اللحن فى القرآن وهو هنا نوعان : جلي وخفي فالاول خطا يعرض للفظ ويخل بالمعنى والاعراب كرفع المجرور ونصبه ونحوهما سواء تغير المعنى ام لا ـ وذلك محظور من غير توقف وهو قدر لا يتصور صدوره حتى من صبيان الكتاتيب الذين لا يعرفون معنى للعربية ،بل ولا يكادون يحلمون بقواعدها وحسبهم تلقي القرآن عن اشياخهم كما هو ، فيقع فى صدورهم الخالية موقعه ـاذ صادف قلبا خاليا فتمكن. بل ان هذا امر لا يعقل صدوره حتى من برابرة الالسن فى رؤوس الجبال ، واعراب الصحراء بين احضان الرمال وكثبانها لغاية يلتقي فيها الشرقي بالغربي وتتجلى امامك ءاية الله المحفوظة ـ انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ـ فيتدارسان القرآن على حرف واحد وصوت واحد من غير ان يعلو تلاوتهم لحن بنوعيه .

النوع الثاني الخفي ـ وهو خطا يخل بالحرف كترك الاخفاء والقلب والاظهار والادغام والغنة التي هي صوت مخرجه الخيشوم والانف ، وهي فى النون اقوى منها فى الميم ـ ويعرف كونها صوتا انفيا انه اذا سد لا توجد . وكترقيق المفخم وعكسه ، ومد المقصور وقصر الممدود وامثال ذلك ـ ولا ريب ان هذا النوع

مما ليس بفرض عين يترتب عليه العقاب الشديد وانما فيه خوف العقاب خرقا لنظم القوانين المرعية في الفن .

ثالثا معرفة المواقف — والوقف قطع الكلمة عما بعدها وهو غير الوقف عند العروضيين المعبر عن اسكان الحرف السابع المتحرك من الجزء ، وهو في موضوعنا قسمه علماء هذا الشان الى ثلاث مراتب تام ، وكاف ، وحسن ، يقول المقرىء الجزري في مقدمته :

فالتام فالكاف ولفظا فامنعن
الا رؤس الأي جوز فالحسن

فالتام ما تم عنده الكلام وانقطع عما بعده — كاياك نستعين — واولئك هم المفلحون — واكثر ما يوجد في الفواصل ورؤوس الآي ، وقد يوجد قبل الفاصلة — نحو وجعلوا اعزة اهلها اذلة ، اذ قوله اذلة هو آخر كلام بلقيس — وكذلك يفعلون هو راس الآية ، وقد يوجد بعد انفصالها نحو : وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل ، فراس الآية مصبحين وتمام الكلام قوله وبالليل لانه معطوف على المعنى اى بالصبح وبالليل ، واجمالا فالوقف على رؤوس الآي سنة ذكرها ابن الجزري بروايته عن ابيه بسنده المتصل الى ام سلمة رضي الله عنها كان الرسول الاعظم اذا قرا قطع ءاية ءاية يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم يقف ثم يقول الحمد لله رب العالمين ، ثم يقف ثم يقول الرحمن الرحيم ، ثم يقف (*) ولهذا الحديث طرق كثيرة وهو اصل في هذا الباب يلزم القارىء ان يجعله نصب عينه في مواقفه ، فان الوقف على غير ما تم يقبح بالقارىء ، كوقفه على المضاف دون المضاف اليه ، وعلى الرافع دون مرفوعه ، وعلى الناصب دون منصوبه، وعلى الشرط دون جوابه وعلى الموصوف دون صفته اذا لم يتم معناه بدونها ، وكذا على المعطوف عليه دون المعطوف ، نعم له الوقف اضطرارا بيد انه يبدأ قبل الموقوف عليه ، بمعنى انه يبتدىء من الكلمة التي وقف عليها نفسها فتكون داخلة في بدله كمن وقف على كلمة رب ، من رب العالمين ، فعند عوده للقراءة يقرا لفظة رب الموقوف عليها وهذا القدر يعرفه مطلق القراء — فكيف بدراسي الفن ، يقول العلامة الجزري في مقدمته :

وغير ما تم قبيح وله
الوقف مضطرا ويبدا قبله

وأقبح من كل هذا الوقف على قوله تعالى : لقد سمع الله قول الذين قالوا ، وعلى قوله : وقالت اليهود والنصارى فان وقف التالي عليها مضطرا فلا يبتدىء بقوله : ان الله فقير — ولا بقوله نحن ابناء الله بل يبتدىء بما وقف عليه .

فان لم يفعل فقد اخطا . على انه ليس في القرآن وقف واجب يلزم القارىء اتباعه وعدم الخروج عنه فان الوقف والوصل لا يدلان على معنى يخل بتركهما ، نعم ان كان لذلك الوقف سبب يستدعي تحريمه كان قصد القارىء الوقف : على وما من الاه وعلى : واني كفرت ونحوهما من غير ضرورة حرم — ومع عدم القصد فالاحسن ان يجتنب الوقف على ذلك للابهام قال في المقدمة :

وليس في القرءان من وقف وجب
ولا حرام الا ما له سبب

فليتق الله قارىء ومستمع يرجوان من الله ثواب القراءة والاستماع ، وليدرسا الكتاب حسب القواعد المسنونة في الفن .

اما مسألة التطريب في القرآن والتغني به فتلك قضية تلاطمت فيها اقوال ائمة الامصار فمن مجيز اعتمادا على ما ورد في ذلك من الاثار الكثيرة ، كحديث ليس منا من لم يتغن بالقرءان وحديث ما اذن الله لشيء ما اذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرءان ان يجهر به ، قال الحافظ النووي معناه عند الشافعي واصحابه واكثر العلماء : تحسين صوته به ، وعند الشافعي ايضا تحزير القراءة وترقيقها ومن مانع يميل الى التاويل فيؤول ما ورد من الاحاديث — كيتغنى فيستغنى ، او يجهر به . ولقد عالج المسالة بالبحث الطريف العلامة القرطبي في اوائل تفسيره بما يزيد على الثمان صفحات ، واوردها المفسر الكبير القاضي ابو بكر بن العربي في احكامه القرءانية لدا قوله تعالى من سورة سبا — ولقد — آتينا داود منا فضلا ونقل بعض ذلك بتصرف وزيادة الفقيه المواق في شرحه على مختصر خليل لدا قوله — من ابواب سجود التلاوة : وقراءة بتلحين عطفا على المكروهات ، وتناولها بالبحث ايضا الكاتب المطلع ابن سلطان في كتابته على مقدمة

(*) اخرجه النسائي وابو داود والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

الجرزي والمحدث العزيزي على الجامع الصغير للسيوطي عند ايراد الحديث السابق : ما اذن الله الحديث ولقد وفي الكاتب الجراري بهذا البحث في تقييده ـ الرحلة السكيرجية اثناء مذكرات مع رجال الفن ، واليوم نرى كثيرا من القراء يتبعون اصواتهم والانغام المتفقة واهواءهم متلونين فيها تلونا ينأي بها عن الحدود المرسومة مائلين لاتمام ما تهواه نفوسهم من الاطباع الموسيقية ورناتها الاخاذة الصارفة عن اداء الكتاب العزيز اداء يتفق وقرءانيته ، وبالطبع تضيع التلاوة المرغوب فيها والمثاب عليها في نفس الوقت ؛ ويذهب الفن وقواعده ضحية التغني البعيد عن التلاوة والتعبد ، وهذا ما قد يسري للشباب الذي درس القرءان دراسة متقنة وتخرج في معرفة ادائه اداء فنيا لطول تكرار ذلك على المسامع . والحقيقة ما مسخت بتكرار ـ الا واستقرت في الاذهان على عوج . لذا يجب على ابناء الفن والخبراء من القراء ان يوجهوا ملاحظاتهم لكل من يبدو منه خروج عن جادة التلاوة الحق . على اننا نرى عددا من القراء لغير القرءان يبعدون عن معرفة التلاوة بدءا ووقفا وقطعا شيء قد يؤثر في المعنى للجهل بتلاوة النصوص والقطع والحكايات والاخبار فيتأكد كذلك لفت نظر هؤلاء للعور الذي لا يتحمله الداخل والخارج بل ويمتعض منه جناح الاثير علهم يعودون للصواب ما عودوا السنتهم على التلاوة الصحيحة .

الرباط : عبد الله الجراري



تفسير آيات من كتاب الله

قال الله تعالى : وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل واتوابه متشابها ولهم فيها ازواج مطهرة وهم فيها خالدون (25 ، سورة البقرة) .

جرت عادة الاستاذ حسين جوزوفي تفسيره لآيات القرآن ان لا يتعرض لمباحث اللغة ولا لتفصيل الاحكام الفقهية وانما مذهبه ان يستخرج الفكرة الاساسية من الآية ثم يشرحها .

فى الآية المذكورة تناول الاستاذ جوزو :

1 ــ فكرة الايمان : وليس الايمان عبارة عن كلمات ينطق بها الرجل ولا الفاظ يرددها فى مناسبات مختلفة ، وانما الايمان هو الشعور القوي العميق الذي يتملك قوى الرجل كلها ويحركه نحو هدف معين ويوجهه الى صراط مستقيم ويدفعه الى عمل صالح . وقد ربط القرءان الايمان بالعمل الصالح وهناك مئات من الآيات مفعمة بهذه المعاني ، تدل على ان الايمان الذي لا يثمر بالعمل الصالح ليس بايمان، كما ان هناك احاديث كثيرة بهذا المعنى . لا يؤمن احدكم حتى يحب لغيره ما يحب لنفسه ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قيل من يا رسول الله قال : من لا يأمن جاره بوائقه .

2 ــ فكرة الحياة بعد الموت : يصف القرءان فى هذه الآية وفى كثير من الآيات الحياة فى الجنة بما يناسب ويوافق الحياة الجسمية فقط . يصرح القرءان بأن للمؤمنين جنات تجري من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ... ولهم فيها أزواج مطهرة وغير ذلك من اللذات البدنية . وعليه فان المفسرين وغيرهم من العلماء اجمعوا ان الحياة بعد الموت تكون حياة بدنية مادية،معناه ان الانسان سيعيش فى الجنة مثلا بالجسم يأكل ويشرب ويقضي سائر الحاجيات البدنية .

اما الاستاذ حسين فلم يوافق على هذا الرأي لوجهين :

الوجه الاول : ان الموت لا معنى له سوى انه نهاية حياة وبداية حياة اخرى تختلف عن الاولى جوهريا . واذا كانت الحياة الاولى مادية فلا بد أن تكون حياة الآخرة روحية فقط والا فلا معنى للموت لانه لابد ان يكون فاصلا بين حياتين مختلفتين فى الجوهر .

الوجه الثاني : القول بمادية الحياة بعد الموت يتضمن القول بخلود المادة ان اصحاب الجنة هم فيها خالدون فاذا قلنا وسلمنا بأن الحياة بعد الموت أعني فى الجنة مادية وبدنية فاننا نسلم بذلك حتما خلود المادة وهذا ما لا يقبله احد من العلماء .

قد يسأل سائل فلماذا وصف القرءان الجنة بأن فيها انهارا واشجارا وازواجا مطهرة وحور عين وغيرها من انواع النعم المادية والملذات البدنية ؟

الجواب : ان الحواس الخمس لا تدرك الا حقيقة الماديات وما يتعلق بها . ان الانسان بما هو عليه في

الدنيا لا يستطيع ان يدرك حقيقة ما وراء الطبيعة . لهذا قال الرسول : فكروا فى افعال الله ولا تفكروا في ذاته فتضلوا .

لعل بعض العلماء يستغرب هذا الراي ويعتبره من الزندقة والانحراف . ولا داعي لذلك لان الراي المذكور ليس فيه انكار لاصل من الاصول ولمبدا من المبادىء فالاصل هو الايمان بان بعد الموت حياة يجزى فيها كل نفس بما قدمت من الاعمال . ولا خلاف فى ذلك . أما طبيعة الحياة ، هل هي مادية او روحية فليس باصل من الاصول فالاختلاف فيه ممكن ولا يجوز اعتباره انحرافا فى الدين .

راى الاستاذ حسين جوزو عضو الجامعة الاسلامية بيوغوسلافيا ، فيما ذهب اليه من ان البعث لا يكون الا بالروح . العدد الصادر 7-8/1963

ذهب سيادته الى ان البعث سيكون بالروح فقط وان مادة الجسم فى الانسان لا يمكن ان تعود ، ويعلل بأن المادة غير خالدة وبأن الموت يجب أن يكون حدا فاصلا بين حياتين تختلف فى الجوهر .

وانضم انا فيما سابديه من راي الى عامة المسلمين وخاصتهم فى ان البعث سوف يكون بالمادة والروح يؤيدنا فى ذلك : كتاب الله وسنة نبيه ، والذي يقوي يقيني فيه حقائق العلم الحديث ، والعقل المجرد لا يمكن ان ينكر ذلك .

كتاب الله وسنة نبينا عليه الصلاة والسلام :

يقول عز وجل حكاية لقصة وقعت بين الرسول (ص) و (أبى بن خلف) حيث جاء الاخير بعظم قد رم وبلى ، وذهب الى الرسول ، واخذ يفركه امامه ، وهو يقول مستنكرا « أترى الله يبعث هذا بعد ما رم وبلى » قال عليه الصلاة والسلام : « بلى ويبعثك ويدخلك النار » فنزل قوله تعالى « وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ؛ قال من يحيي العظام وهي رميم !؟ قل يحييها الذي انشاها اول مرة وهو بكل خلق عليم » وختم الآية بقوله : « وهو بكل خلق عليم » فى حين ان القول المناسب « وهو على كل شي قدير » يشير الى ما ذكره بعض كتاب السيرة من ان (ابي بن خلف) لما افحم بصدر الآية اراد ان يفحم الرسول فقال له « كيف بانسان اكله وحش وقتل هذا الوحش ، والقى فى البحر ، فاكله الحوت ، وقد يصاد الحوت فى مناطق متعددة فياكله خلق كثير . فكيف يبعث الانسان الاول ؟ ردت عليه الآية بقوله تعالى « وهو بكل خلق عليم » اينما كان مكانه وأين ذهبت جزئياته ، ولا يخفى عن علمه شيء فى ملكه جلت قدرته . ثم ان التعبير بالعظام يدل دلالة واضحة على ان البعث سيكون بالمادة منها بدىء الخلق ومنها سيعود ، يقول تعالى فى الآية 29 من سورة الاعراف « وادعوه مخلصين له الدين كما بداكم تعودون » وفى التشبيه المذكور دلالة واضحة على ان البعث سيكون بالمادة والروح معا . وقوله تعالى « ونفخ فى الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون » والاجداث هي القبور ، والقبور مدافن للمادة لا للروح .

نصوص كثيرة من القرءان الكريم نجد امر البعث واضحا لا غموض فيه ولا لبس من انه سيكون بالمادة والروح وجميع النصوص فى ذلك صريحة ولا معارض لها يدعونا الى التأويل فيها والقاعدة الاصولية الشرعية انه لا يؤول النص ما دام لا يتعارض مع نص صريح آخر . وهذه النصوص نذكر بعضا منها .

قال تعالى فى شأن اصحاب جهنم « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها » واستدلالي ليس في ذكر لفظة « جلود » فحسب ولكن فى ذكر لفظة « بدلناهم » هذا فعل سيقوم به الا له . فكيف يتاتى ذلك للروح ؟ واذا كان لن يقوم بذلك فان ذاته تتعرض لتهمة الكذب او الهذيان فى القول جل شأنه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا .

وقوله تعالى « وسقوا ماء حميما فقطع امعاءهم » كيف تشرب الروح وهل لها امعاء ؟ . وقوله جل علاه « فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون » هل تاكل الروح وهل لها بطن ؟ .

ومن الاحاديث قوله عليه الصلاة والسلام (فى صحيح البخاري) « يحشر الناس حفاة عراة غرلا » وما كان حرص الرسول (ص) على ذكر اللفظة الاخيرة الا ليبين ان مادة الانسان لا يمكن ان يضيع منها شيء حتى القلفة التي تقطع منه وهو صبي . واصرح من هذا قوله عليه الصلاة والسلام عن انس بن مالك

« يختصم الروح والجسد يوم القيامة ، فيقول الجسد: اما كنت بمنزلة الجذع ملقى لا أحرك يدا ولا رجلا لولا الروح ــ وتقول الروح : انا كنت ريحا لولا الجسد لم استطع ان اعمل شيئا ، فضرب لهم مثل اعمى ، حمل مقعدا مبصرا حمله الاعمى برجله ودله المقعد ببصره»

ومن الناحية العقلية : لا يمكن ان يستبعد العقل الحياة المادية في البعث لامور :

اولا : لان قدرة الله لا يستبعد عليها شيء ولو كان البعث بالروح فقط لما كان للمشركين سبيل الى انكاره وانما الذي دعاهم الى انكار البعث هو عدم تصورهم له بالمادة . وما هي مظاهر القدرة الالهية اذا كان البعث بالروح فقط ؟ . والتغيير الجوهري يبحث عنه الاستاذ في تأملاته بالموت ـ هدانا الله واياه ـ ليس في ذوات المبعوثين وانما هو في طبيعة الحياتين ، فدار الدنيا للعمل ، ولممارسة الغرائز ولالزام النفس في ذلك حدود الله ، وحدود الانسانية فيها واجب ، وامور الدين تكليف ، وحقوق الحياة قضاء .

اما الدار الآخرة : فهي للجزاء على ما قدم الانسان في الاولى قال تعالى « يا ايها الذين ءامنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد » وقوله « ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اسأتم فلها » وقوله « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

ثانيا : ما الذي يدعونا الى انكار البعث بالمادة ؟ ... اما الاستحالة واما العجز .

الاستحالة : لا استحالة في هذا الامر حيث ثبت صلاحية ما وراء الطبيعة للحياة المادية . فآدام عليه السلام خلق من طين (مادة) وعاش في الجنة هو وامنا حواء ، وعاش بنوازعهما النفسية ، وابيح لهما ان يأكلا من كل ثمار الجنة ما عدا شجرة واحدة . فوسوس لهما الشيطان وامام اغراء حواء أكلا من الشجرة . ومما هو معلوم ان الروح مجردة من النوازع والغرائز وانما تبعث ذلك في غيرها « المادة » . وكانا يعيشا في الجنة عيشة مادية خالصة من الاخباث والنجاسات والنوازع السيئة فلا براز ولا حمل ولا نفاس ولا حيض . والدليل على ذلك ، انهما لما اكلا من الشجرة المنهي عنها بدت لهما سوءاتهما واصبحت حياتهما غير صالحة في الجنة فهبطا والشيطان بعضهم لبعض عدو .

هذه قصة سيدنا آدم ولا شك فيها في جميع الكتب السماوية . وقصة اخرى تؤيد صلاحية ما وراء المادة للحياة المادية .

وهي قصة معراج الرسول (ص) والذي فيها راى الرسول جبريل عليهما السلام « نزلة اخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى » . وبما انه قد ثبت ان ما وراء الطبيعة صالح للحياة المادية ، فليس امام المنكر للبعث بالمادة والروح الا ان يقول **بعجز الله** عن ذلك وهذا محال حيث قد انشأنا من عدم فهلا يمكن ان يعيدنا ... ؟ بلا شك ان الاعادة ايسر من الانشاء « وهو الذي يبدا الخلق ثم يعيده وهو اهون عليه » « وادعوه مخلصين له الدين كما بداكم تعودون » .

ثالثا : اذا كان البعث بالروح وحدها فما الذي يدعونا لان نؤمن ونعمل صالحا ... ؟ حيث يستوي لدى الروح نعيم الجنة وعذاب جهنم . اذ هي طاقة لا يعلم كنهها الا الله وهي تحرك المادة بالاحاسيس والمشاعر والآلام والآمال وهي خالية منها كتيار الكهرباء يبعث الضوء في المصباح وهو في حد ذاته لا ضوء فيه .

رابعا : ان الالفاظ التي تدل على الموت كالهلاك والفناء والعدم ، ولفظة الموت لا تدل لغة واصطلاحا على خروج الكائن بالفناء من ملك الله ، وانما الذي تقتضيه وتدل عليه هو عدم خلود الكائن على حاله فالانسان مثلا عند ما تنزع منه الروح تحقق الموت والهلاك ، والقول بخلود المادة او عدمه لا يؤثر على الاعتقاد بان « كل شيء هالك الا وجهه » واذا كان فضيلتكم يرى ان القول بخلود المادة فيه مساس بعقيدة الهلاك لكل شيء الا وجهه ، فهل الروح تفنى ؟ وان كانت لا تفنى فهلا تمس بعقيدة الهلاك وهي شيء من الاشياء ... ؟ الحق كما اعتقد ــ والله اعلم ــ ان فصل الروح عن الجسد هلاك لكليهما واعادتهما بعث لهما . والادعاء بان الله يخاطب ادراكنا بالمحسوسات لكي نفهم رأي باطل . اذ ما هي النتيجة من هذا الفهم ؟ هل هناك نعيم فعلا ... ؟ ما الفائدة منه اذا كانت الروح لا تتلذذ .

ام ليس هناك نعيم ، فتلصق بالله ورسوله تهمة الكذب او المراء في الكلام وهذا محال .

خامسا : اذا انكرنا الحال فما الفائدة من المحل؟ بمعنى اننا اذا انكرنا نعيم الجنة فما فائدة الجنة ؟ ان قلنا بوجودها فان خلقها يكون عبثا وتنزه الله عن ذلك وان انكرنا وجودها نكون قد كفرنا بالله الذي اخبرنا بهـــــــا .

ومن الحقائق العلمية الحديثة : ما يؤيد هذا الراي . حيث ان الذرة هي اصل التكوين لجميع العناصر المادية وهي غير قابلة للتفاعل الكيماوي ولكنها تنفجر وتتفتت وتتحول الى طاقة ، لا تدرك الا بآثارها ، وفي هذا هلاك للمادة « وتكون الجبال كالعهن المنفوش » ووصل العلم الى تحويل هذه الطاقة الى ذرة مرة اخرى وفي هذا بعث لها اي ان المادة هلكت الى ذرة والذرة هلكت الى طاقة وعملية البعث اعادة الكرة . وتوصل العلم الى ذلك . ولو لم يحتفظ الله بسر الروح لتمكن البشر من اعادة موتاهم .

وخلاصة القول ان الاحاديث والآيات في امكان البعث بالمادة صريحة ولا تحتاج الى تأويل ، وان العقل لا يستنكر ذلك حيث لا استحالة على الله ولا عجز بالنسبة له بدليل ثبوت صلاحية ما وراء الطبيعة للحياة المادية ، وان العلم بما وصل اليه يؤيد ذلك . واسوق في النهاية الى فضيلتكم قوله تعالى « اليوم نختم على افواههم وتكلمنا ايديهم وتشهد ارجلهم بما كانوا يكسبون » حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ، قالوا انطقنا الله الذي انطق كل شيء لتتدبره . وفقنا الله واياكم لرفعة دينه ونصرة الاسلام .

جلال الهادي الزلباني





حاجتنا الى ثورة ثقافية

للأستاذ: عباس الجراري

لقد آن الأوان لتقوم ثورة ثقافية تقضي على الجهل وتنشر الثقافة وتعممها في مختلف أوساط الشعب وبشتى الوسائل والامكانيات ، وقد آن الأوان كذلك ليتجاوب المثقفون مع مقتضيات الحياة وينفضوا عنهم غبار الخمول والانعزال ويتخلصوا من معاول الهدم والتحطيم ويخوضوا المعركة في تعاون وصدق وبكل ما لديهم من طاقات وخبرات .

ع . ج

« دعوة الحق بين الشيوخ والشباب »
العدد الماضي

مخطئون في تصورهم للثقافة وضرورتها ودورها في بناء الافراد والجماعات اولئك الذين يحاولون ابعاد المجال الثقافي عن غيره من مجالات الحياة ، واكثر هؤلاء خطأ اولئك الذين يتوهمون ان نهضتنا الحالية في حاجة الى تطوير اقتصادي فقط ، وانه لا داعي لتبديد طاقة فردية او اجتماعية في أحد ميادين الثقافة والفكر ، ويزعمون اننا لن نساير الركب الحضاري مالم تركز جهودنا ونجند طاقاتنا وامكانياتنا للنهوض بالميدان الصناعي الذي هو وحده الكفيل بتحقيق التقدم والرقي . ويستنتجون من زعمهم هذا ان العلوم الجديرة بالبحث والدرس هي العلوم التطبيقية التي تعنى بالصناعة ومقتضياتها ، وان العلوم النظرية ليست غير ثرثرة وهراء ووسيلة للتسلية في أوقات الفراغ . ولسنا ننكر أهمية العلوم التطبيقية او العلمية فهي ضرورية لبناء الحضارة وازدهارها ، ولكننا ننكر القول بالغاء العلوم الاخرى وعدم الاعتراف باهميتها ، اذ ما من شك في انها لازمة بدورها وانه لن يتحقق اي لون من الوان التقدم الانساني مالم يتفاعل هذان النوعان من العلوم

فالنهضة لابد ان تكون شاملة ، وان تقوم في مختلف مجالاتها على وسائل ومناهج اساسها البحث العلمي والتخطيط المدروس بناء على تفكير طويل وتجارب حية وايمان بالعلم وقدراته . وبدون هذا التصميم لن تقوم اية نهضة او حركة ، بل لن تكون المحاولات المبذولة غير خبط وارتجال وتشتيت للجهود وتبديد للطاقات دون اي هدف او جدوى . وقد توضع مشروعات وترصد مبالغ ولكنها سرعان ما تفشل وتموت ما لم تكن قد رسمت لها خطة علمية تسير عليها ، وقد حددت معالمها واهدافها .

واذن فالثورة الثقافية تحتاج الى تخطيط ، والتخطيط يحتاج الى دراسة تبحث في اصول هذه الثقافة وما الم بها من تطور وتغيير لمعرفة المراحل التاريخية التي مرت بها والتاثيرات التي خضعت لها والتفاعلات التي حدثت لها مع غيرها من ثقافات الامم والشعوب والخصائص التي تميزها عنها وما الى ذلك مما تتطلبه هذه الدراسة التي نرجو ان نوفق الى تناولها في جملة مقالات قادمة .

والتخطيط الثقافي يقتضي منا الى جانب هذا ان نبحث في نقطتين اساسيتين هما :

اولا : تعميم الثقافة

ثانيا : توحيد هذه الثقافة

اما عن النقطة الاولى فلا جدال في ان الشعب بعد ان تحرر من الاستعمار اصبح له كامل الحق في ان يتعلم

ويتثقف ، فالثقافة لم تعد محصورة في بيئة معينة ولا موقوفة على طبقة خاصة من الناس يمارسونها كنوع من انواع التسلية والترف او التنافس والمباهاة ، وانما اصبحت غذاء للفرد على اي مستوى كان وسبيلا الى تكوينه وتقويمه وتوعيته ، وبالتالي الى خلق مجتمع صالح فاهم لحقوقه وواجباته . وليس معنى تعميم الثقافة ان تنزل بها الى مستوى غير لائق ، على حد من يزعم ان احتفاظ الثقافة بمستواها رهن بانعزالها عن افراد الشعب وعيشها في كنف طبقة ضيقة محدودة ، وان خروجها عن هذه العزلة لابد وان يودي بمستواها وينزل به الى اسفل الدرجات ، فالحقيقة الصارخة التي يجب ادراكها وتدبرها ان المثقف مطالب بالتزامات امام المجتمع لا يمكن ان يتجرد منها ، وانه ليس اكثر من جندي في معركة له خبرة وتجارب وطاقات تجعله مسؤولا عن جماهير مواطنيه اذا هو لم يعمل جاهدا مخلصا على تثقيفهم وتوعيتهم وازاحة ستار الظلام عن اعينهم وتخليصهم من براثن الجهل الفاتكة . والحديث في هذا المضمار يعيد لذاكرتنا ما يقال من انه لاينبغي للثقافة ان تنزل الى مستوى الشعب وانما على الشعب ان يرتفع الى مستوى الثقافة وما يقال كذلك في موضوع الفن للفن والادب للادب وغير هذه من المبادىء والمفاهيم التي تبدو منافية لما نتحدث عنه ، والحقيقة انها لا تتعارض معه في شيء ، وربما كان العكس هو الصحيح ، خاصة وان جماهير اليوم هي غيرها بالامس ، فقد اصبحت ترفض كل من يتهمها بالجهل وقلة الفهم او يستخف بعقلها وادراكها او يحكم عليها بعدم التجاوب مع تيار التوعية والتثقيف ، بل انها غدت تتطلع في وعي وحماس الى انتاج اكثر عمقا واصالة وجودة . وطبيعي انه متى توفر هذا الكيف المطلوب فان الكم لا محالة سيتسع ، ومتى وجد الكم زاد انتشار الانتاج ، ومعنى ذلك اقبال الجماهير عليه ، وهذا من شانه ان يخلق منتجين في مختلف ميادين الثقافة وفروعها ، وبالتالي مستهلكين لكل الوان الفنون والآداب وعلى كل المستويات .

غير ان هناك نقطة لا ينبغي ان نغفل عنها ونحن نتحدث عن الجماهير ، وهي الا نقصر اهتمامنا على جماهير المدن فقط ، فهناك جماهير اكثر عددا منها تعيش منزوية في قراها بعيدة عن مظاهر الرقي والحضارة ، لا غرو انها تشكل ميدانا كبيرا ينبغي للدولة ان تخصص جزءا كبيرا من امكانياتها وطاقاتها للنهوض به ، ولا سبيل الى ذلك غير تجنيد مختلف وسائل النشر والاعلام من صحافة واذاعة وسينما وتلفزيون بالاضافة الى المراكز الثقافية التي يجب اقامتها في كل مكان والى القوافل الثقافية المتنقلة التي ينبغي ان تصل الى المناطق البعيدة حيث يتعذر فتح مثل هذه المراكز .

واما التوحيد الثقافي ـ ومعناه خلق مثقفين متجانسين في التكوين الفكري ـ فيقتضي محو الفروق الثقافية التي فرضها المستعمر علينا والتي لا زلنا نعاني من رواسبها حتى الآن ، وقد نظل نعاني منها ازمانا طويلة اذا نحن لم نسرع في جد وصدق الى تخليص انفسنا من بقايا عهود الظلام وما تخفي من نقم واخطار. وطبيعي ان القضاء على التفرقة الثقافية لن يتم بجرة قلم او امر سريع ، وانما بتنشئة جيل عارف بلغته ودينه وتراثه وتاريخه وحضارته على حقيقتها بعيدة عن كل ما داخلها من قلب وتزييف . ولسنا نريد بهذا اطنابا في الفخر وخلودا لراحة هي اشبه بالجمود والموت ، وانما نريد ان يكون بعثنا للماضي بامجاده وبطولاته حافزا لنا في تجربتنا الحاضرة وكفاحنا من اجل بناء مستقبل خال من الفاقة والجهل ، وان يكون احياؤنا للتراث دافعا لنا ان نستوحي منه اضافات جديدة تعمل على طبع جيلنا والاجيال الصاعدة بما يميزها ويشكل شخصيتها . فهذا التراث الذي بقي على مر الازمان والذي لا يزال ماثلا في حياتنا متمثلا في كل ما انتجته عقول الاجيال السابقة وما أوحت به قلوبهم من علوم وفنون وآداب هو خلاصة حضارتنا وثمرة عبقريتنا ، وهو الرابطة التي تجدد معالم حياتنا وتخطط لنا طريق السير وتبعث في نفوسنا الثقة والايمان .

وليس معنى هذا ان نقبل تراثنا كما هو ، فقد داخلته على مر الظروف المظلمة التي عاشتها بلادنا شوائب وخرافات علينا ان نصفيه منها ونطهره حتى نزيل عنه كل اثر من آثار المسخ والتزييف والانحراف .

وليس معنى هذا كذلك ان نعرض عن ثقافات الشعوب الاخرى ، وخاصة تلك التي سبقتنا في مراحل التطور والتقدم والتي نلتقي معها في المبادىء والاهداف، فالحياة الحاضرة لم تعد قابلة للعزلة والانزواء ، وقد اصبح التعاون اساسها وشعارها ، وانما علينا ان نتجاوب مع الآخرين ونمد لهم يدنا ، ولكن في كثير من التيقظ والحذر حتى لا تمحى ملامح قوميتنا وشخصيتنا ويقضى على قيمنا ومثلنا واسلوبنا في الحياة ، علينا ان نقتبس من الغير شريطة ان نطور ما نقتبسه بما يتفق واوضاعنا وحاجاتنا وما يعود علينا

بالخير والنفع . وعلينا قبل هذا وبعده الا نقبل كل ما يرد علينا من مذاهب وافكار ، وان نتدبر ما يفد علينا لنتبين الصالح منه والفاسد ، وما اكثر الفاسد الذي يصدر الينا سواء من اعدائنا او ممن يدعون الاخوة والصداقة . وعلى عاتق رواد الثقافة ببلادنا والمسؤولين عنها تقع مهمة فحص هذه الواردات وفرز ما هو نافع منها وما هو ضار .

وبهذا نستطيع ان نحتفظ بمبادئنا وقيمنا فى اصالة بعيدة عن التميع والانحلال ، وانما اساسها الكفاح المثمر والسعي المتواصل من اجل النهوض بمجتمعنا وتحقيق ازدهاره وتقدمه .

واذن فهناك حقائق يجب علينا – مسؤولين ومثقفين – ان نتصورها دائما امامنا ونحن ننادي بحاجتنا الى الثورة الثقافية وندعو الى ضرورة العمل من اجلها :

اولا : ان نجاح الثورة رهن بتخطيط المناهج والاهداف

ثانيا : ان هذا التخطيط يحتاج الى دراسة تاريخية للبحث فى اصول ثقافتنا

ثالثا : انه يجب تعميم الثقافة وتوحيدها

رابعا : ان على الدولة ان تجند مختلف اجهزتها فى معركة التوعية والتثقيف

خامسا : ان المثقفين جنود فى هذه المعركة

سادسا : ان الثقافة تعبير عن الجماهير وتوجيه لها

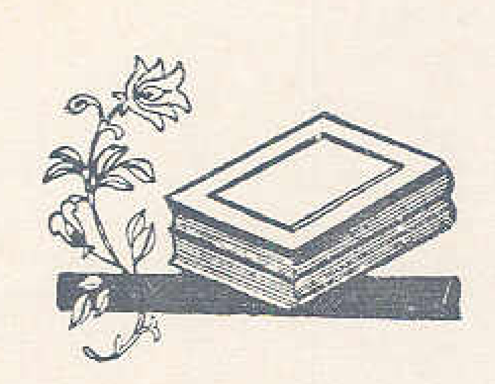
سابعا : اننا امة لها تاريخ وحضارة وتراث

ثامنا : اننا امة لها مباديء وقيم ومقدسات

تاسعا : اننا لن نقبل لانفسنا ان نعيش فى عزلة

عاشرا : اننا لن نقبل اي تسلل من شانه ان يمحو معالم شخصيتنا ويرمي بنا فى احضان الغير .

القاهرة : عباس الجراري





لم يستجد شيء فى اساليب الدراسة بالمغرب ومناهجها بصفة عامة وانما ظل الشعب مقبلا على التعليم اقبالا لاحد له ، وبحماس دال على ما فى المواطن المغربي من حيوية ونشاط ورغبة فى التطور العقلي والفكري والنمو بالمكاسب الانسانية ، فكان الاطفال يدخلون الكتاتيب لحفظ القرآن والمتون وتعلم الصناعة اليدوية بالنسبة لبعض الاقاليم فمن عادة تطوان الى وقت متاخر ان يعفى الطفل بعد حفظ القرآن من مزاولة الدرس ليتعلم حرفة من الحرف ويرجع ذلك لاسباب اجتماعية اشار اليها الاستاذ المؤرخ محمد داود فى كتابه .. اما التعليم المشترك وهو ما يتعلق بالدراسة الدينية فقد كان يلقى فى المساجد فى حلقات تجمع العمال والصناع ليرفعوا عن انفسهم عار الجهالة بامور الدنيا والدين ، وكانت هذه الحلقات اشبه ما تكون بمؤسسات التربية الاساسية ، وكان بالقرويين كرسي للعلم ويعتبر ولاية علياء وكان من هؤلاء عبد الواحد الونشريسي قاضي فاس ومفتيها وصاحب التدريس بالقرويين المتوفى سنة 955 كما كان من هؤلاء محمد بن ادريس العراقي الذي ولي تدريس كتاب سيبويه ، وكان هذا الكرسي خاصا بمن يدرس النحو ، مات سنة 1142 وقد الف رسائل كثيرة فى النحو ، وشاع فى هذا العصر الاعتماد على الذاكرة فكان التعليم يرتكز على الحفظ ومن نماذج هؤلاء محمد الرقادي بن احمد المدعو القيوم بن عمر الكتني الذي كان يحفظ الف مجلد وكان قبله الجزولي يحفظ فرعي ابن الحاجب والمدونة ، وتعارف علماء المغرب مع علماء افريقيا الوسطى وكان من بين هؤلاء احمد بابا السوداني المتخصص فى الدراسات الفقهية غير ان هؤلاء لم يكن لهم اثر يذكر لوحدة نوعية الثقافة والاسلوب التي وصل اليها المغرب ، وقد رحل فى القرن العاشر علي بن ميمون لتلمسان وبجاية وتونس والشام والحجاز وقال مقارنا بين علماء القرويين وعلماء غيرها :

« ما رايت فى سائر مدن المغرب لا فى مدينة تلمسان ولا بجاية ولا تونس ، ولا اقليم الشام باسره ، ولا بلاد الحجاز فاني رأيت ذلك كله بالمشاهدة ، ولا بمصر على ما تقرر عندي من العلم اليقين بمشاهدة اناس من اهلها ، وبرؤيتي لبعض كتب ارباب الوقت ما رايت مثل فاس ، ومثل علمائها فى حفظ ظاهر الشرع العزيز بالقول والفعل ، وهذا الحفظ لنصوص امامهم الامام مالك وحفظ سائر العلوم الظاهرة ، من الفقه والحديث والتفسير وحفظ نصوص كل علم مثل النحو والفرائض والحساب والتوقيت والتعديل والتوحيد والمنطق ، والبيان والطب ، وسائر العلوم العقلية كل لابد فيه عندهم من حفظ نص ذلك الفن ومن لم يستحضر النص عن مسالة ما فى علم ما ان تكلم فيه ، لا يلتفت الى كلامه ، ولا يعبا به ، ولا يحسبونه من طلبة العلم ، ويحدثنا اكليسار وهو بلجيكي زار فاس سنة 1540 ميلادية (فى عهد السلطان احمد الاعرج السعدي الذي حكم المغرب سنة 948) وكتب مذكرات عن وصف فاس ، والقرويين التي امها وقرا بها وتعرف على حياة طلابها ومدرسيها وعلى اساليبهم التربوية وطرائقهم التعليمية ، ويتحدث عن العلوم المتدارسة بها فيذكر منها : التفسير ، الحديث ، الاصول ، الفقه النحو ، البيان ، المعاني ، المنطق ، العروض ، الحساب، التنجيم الكلام ، التصوف ، اللغة ، التصريف ، التوحيد التاريخ ، الجغرافية ، الطب ، القضاء . الادب : ويشمل تاريخ الحركة الفكرية فى هذا العصر من عدة مصادر مختلفة الاتجاه منها كتب الفقه كالمعيار للونشريشي ومعيار الوزاني وكتب التاريخ كدرة الحجال لابن القاضي ومناهل الصبا للفشتالي والنزهة لليفرني وكتب الرحلات كمحاضرة اليوسي ورحلة العياشي وكتب التراجم كمرآة المحاسن للفاسي والدرر المرصعة ونشر المثاني والدر الثمين لميارة وفهارس العلوم كالقانون لليوسي والاقنوم لعبد الرحمن للفاسي وانتشرت الدراسة فى العواصم المغربية وامها الطلاب

من كل صوب كما تقاسم الدلائيون والناصريون النفوذ العلمي على البلاد المغربية في البادية بصفة خاصة وسيطر الدرقاويون على الاطلس وكان نشاطهم ثقافيا اكثر منه صوفيا ، وهناك عوامل جديدة حفزت الى تطوير اساليب التعليم ومناهجه تلك العوامل التي تتلخص في مظاهر ثلاثة : (المظهر الاول) في انتشار الزاوية وسيطرتها على توجيه البلاد . (المظهر الثاني) في الهجرة الاندلسية وما حملت الى المغرب من تأثيرات جديدة . (المظهر الثالث) الاتصال بالاتراك والتأثر بأساليبهم . كانت الزوايا وتارة تكون بولي وتارة تكون بدون ولي ، وهي تضم مجالس علمية مؤسسة على جذب الناس بالاوراد والاذكار والاخذ بظاهر الشرع ؛ وتطورت الحلقات في بعضها الى رقص وسماع وظهر ذلك في زاوية مولاي العربي الدرقاوي تقليدا للمشارقة ، بل ان اصحاب الطريقة العيساوية اخذوا بالشطح والتعرض للنيران والسموم وقد اخذوا ذلك من الرفاعية الشرقية المصرية ، وعنها اخذت البنادق والاعلام والطبول والمزامير (انظر تاريخ تطوان) .. والزوايا نشأت نتيجة لعدة عوامل ، منها ان نظام الاربطة ادى مهمته فخلفته الزوايا ولكن بتوزيع جغرافي مغاير لما كان عليه نظام الاربطة ، لان الزوايا كانت منتشرة في داخل حدود المغرب ، ومنها ان انتشار الثقافة الابتدائية والثانوية رغب المثقفين في متابعة دراستهم ولم يكن الجميع يستطيع الرحلة الى عواصم العلم فكونوا ما يشبه المدارس الكبرى المحلية ، ومنها اختلاف النزعات السياسية حيث كانت الهيئات تعتمد على تعليمها وتكوين ثقافتها قبل الدخول الى ميدان العمل السياسي والعسكري ، ومنها انتشار التصوف في المغرب وهو يعتمد على التكوين الجماعي المتحد المبدا والعواطف والاتجاه الدنيوي والاخروي ، ومنها الصمود ضد الغارات الاستعمارية المحلية التي يقتضي مراكز متعددة نائية عن العواصم لمجابهة غارة القرصان والمستعمرين ، وفي اعقاب الدولة السعدية ظهرت عدة زوايا

واهمها زاوية الدلائيين في تادلا وكانت ذات اثر كبير في تركيز الثقافة الاسلامية وتقويتها وهذه الزاوية تعتبر من أهم الزوايا واشدها اثرا في البلاد المغربية . انشأ الزاوية الدلائية ابوبكر بن محمد الوجادي الزموري من قبيلة صنهاجة في اواسط القرن العاشر (16ميلادية) وكانت طريقة مؤسسها التادلية الجزولية وخلفه ابنه محمد ثم محمد الملقب بالحاج وقد هدمت سنة 1668 ولم يبق من اثرها ما يعين على وجه الدقة مكانها ويظهر انها كانت تقوم على مقربة من قرية معمر في جبال الاطلس المتوسط .

وفي ايام الشيخ محمد الحاج خرجت الزاوية من من عزلتها العلمية واهتمت بالسياسة وشمل نفوذها فاس ومكناس والرباط والغرب فاضطر المولى الرشيد لمحاربتها ولما انتصر عفا عن رجالها كما في (الترجمان المعرب ص 7) ونقلوا الى فاس ثم الى تلمسان ، وفي كتاب سليمان الحوات المسمى (البدور الضاوية) تراجم مفصلة واخبار عن زاوية الدلائيين ، ويقول الناصري في الاستقصا : « ان زاوية الدلائيين كان بها من معاطاة العلوم والدؤوب على دراستها واقرائها وقراءاتها ليلا ونهارا ما تخرج به جماعة من صدور العلماء واعيانهم حتى كانت اليها الرحلة في المغرب لا يعدو الطالب ولا يامل سواها الراغب .

وكان عميد هذه الزاوية هو الشيخ محمد بن ابي بكر كما قلنا وهو من اعلام هذا العصر الذي تالق فيه اسم الحافظ ابو العباس المقري والحافظ ابو العباس يوسف الفاسي والامام محمد بن عاشور والعلامة محمد ميارة ، ومهما يختلف المعاصرون في الموازنة بين المحدثين الثلاثة الاولين فان الدلائي كان رئيس زاوية لعبت دورا خطيرا في اواخر عصر السعديين وكادت ان تتسلق الى الحكم لولا ان مملكة العلويين عاجلتها ثم شجعت الدراسة في القرويين لتقضي على نفوذها العلمي الذي امتزج بالسياسة وحول اهدافها من هداية الى سيطرة .

وفي كتاب (البدور الضاوية في محاسن الزاوية الدلائية) لسليمان الحوات ذكر لاعلامها وترجم لرجالها . وكانت هناك زاوية علمية انقلبت الى حركة سياسية وهي زاوية الشيخ الزعري التي ينتمي اليها ابن ابي المحلي المولود سنة 997 بسجلماسة وقد ثار هذا الفقيه ضد حكومة السعديين وفتن الناس حقبة من الزمن الى ان قتل في احدى المعارك على ابواب مراكش وترك ابو المحلى عدة تآليف منها : (القسطاس ومنجنيق اصخور) في الرد على اهل الفجور (والهودج) . ومن الزوايا المعروفة في هذا العصر زاوية السملاليين بسوس ولم تكن زاوية ذات ولي منسوبة الى ابي حسون السملالي الذي ثار ضد السعديين وحاول تاسيس دولة سملالية ولكن محمد بن الشريف نازله في عدة وقائع وانتصر عليه وقضى على ثورته القوية .

ومن اشهر الزوايا المغربية فى هذا العصر الزاوية الناصرية المنسوبة الى مؤسسها محمد بن ناصر الدرعي فى قرية تمكروت وقد اطنب الحديث عنها الناصري فى كتابه طلعة المشتري فى النسب الجعفري ، كما ان من اشهر الزوايا زاوية سيدي عبد القادر الفاسي بفاس وكانت هذه الزاوية ذات صبغة علمية محافظة لم تتخذ اورادا واحزابا خاصة بها ولم تهدف الى ثورة او الى انقلاب وانما حافظت على الحركة السلفية وقاومت البدع جهد مستطاعها ويظهر ان هذه الزاوية لم تحاول جذب الناس اليها وانما تسلسلت دعوتها فى عقب مؤسسها ، وفى كتاب عناية اولي المجد للمولى سليمان ذكر لعدة مشاهير رجال هذه الاسرة ومن علمائهم ابو زيد عبد الرحمن الفاسي المعروف بالعارف والمتوفى سنة 1036 هجرية . ومما تجدر ملاحظته ان مدينة سلا فى هذه الحقبة تزعمت حركة سياسية على اساس نظام الزاوية فى شخصية ابي عبد الله العياشي تقاوم قرصنة الاسبان والبرتغال ورد كيد الاستعمار ، وعرفت مدينة سلا حركة دينية صوفية على يد الامام عبد الواحد بن عاشر دفين سلا ، وكان العياشي مشاركا عالما له اتباع وله اوراد ، ومن اتباعه بن سعيد الدكالي القاسمي صاحب زاوية دكالة . ومن الزوايا المشهورة الزاوية العياشية وتسمى الحمزاوية نسبة الى حمزة فى ناحية ميدلت والتي منها ابو العياشي صاحب الرحلة الذي ترجم فيها لعدة رجال هذه الزاوية وما تزال هذه الزاوية تحتفظ بخزانة ثمينة كما ان لها صلة قوية بالزاوية الفاسية . ومنها ما يمكن ان نسميه بزاوية العلويين فى عهد المولى محمد الشريف مؤسس الدولة العلوية والذي قضى على مطامح الزاوية الدلائية وركز الدولة فى يده ، وقد بقيت الزوايا تلعب دورها فى المغرب الى عصرنا الحاضر ، واهم هذه الزوايا الشاذلية المنسوبة الى ابى الحسن الشاذلي تلميذ عبد السلام ابن مشيش السلمي (فى القرن التاسع) وينتمى الى طريقته (المرينية) فى الاسكندرية ، وزاوية الشيخ زروق البرنوسي الصوفي دفين ليبيا وتسلسلت هذه الطريقة الى السيد العربي الدرقاوي معاصر المولى عبد الرحمن فى القرن الثالث عشر وصاحب الزاوية الدرقاوية المنتشرة فى المغرب وقد اخذ هو عن علي الجمال دفين (بين المدن) بفاس ، وفى أواخر القرن الثالث عشر ظهرت الزاوية الحراقية فى تطوان كما ظهرت الزاوية التيجانية لمؤسسها احمد التيجاني من عين الماضي بتخوم الصحراء وهو معاصر السلطان المولى سليمان العلوي والمدفون بفاس ، وكذلك الزاوية الوزانية لمؤسسها مولاي عبد الله الشريف فى القرن الحادي عشر وهي ماخوذة عن سيدي احمد دفين الجبل ، وقد انتشرت فى المغرب وفى توات بصفة خاصة وتكلم عنها مؤلف (تحفة الاخوان فى شرفاء وزان) ، ومن الزوايا المشهورة زاوية الشيخ ماء العينين فى الساقية الحمراء بشنجيط وهذه الزاوية ذات نفوذ واسع فى شنجيط ، وفى كتاب (حاضر العالم الاسلامي لشكيب ارسلان) ذكر دور هذه الزوايا فى تاريخ المغرب من الوجهة السياسية والاجتماعية . واسدت الزوايا وبالاخص الناصرية والدلائية والشرقاوية معونة فى التثقيف ونشر التصوف فى سائر البلاد وكان فى زاوية محمد بن وسعدن الموسى مآت الطلاب وانتهج نهجه كثير من رجال الزوايا واصبحت البرامج الدراسية تحتوي على دراسة مادة التصوف وكان ابو المحاسن الفاسي يدرس قوت القلوب والاحياء والشريعة فى آداب السلوك ، وجاء فى كتب الاثبات انه كان يدرس رسالة القشيري وعوارف المعارف للسهروردي ومنازل السائرين وعيوب النفوس للسلمي وشرح ابي عباد على الحكم السلطانية كما كان الامام الزقاق يدرس الفقه والحديث والتصوف ، ولكن كانت معارضة من بعض الاساتذة ضد تعليم التصوف ، فعبد الله السوسي كان يفضل كتب السيرة على كتب التصوف لان فى الاولى سيرة الصحابة وفى الثانية سيرة المتصوفة والعجيب ان احمد الشيخ مؤسس الدولة السعدية لم يلبث ان انقلب على الزوايا رغم اسدته لدولته فامتحن اربابها سنة 908 امتحن عبد الله الكوش ونفاه الى فاس واتهم باقي اصحاب الزوايا بانهم يحتفظون فى زواياهم ودائع بني مرين وفرض عليهم الضرائب بعد ما كانوا معفين منها ، كما اقتفى هذه السياسة المنصور الذهبي فنفى علي باحمد بن موسى السوسي بتارودانت . ولكن محاولات السعديين باءت بالفشل فقد تصدى الصوفي العياشي مجاهد سلا لحربهم وقويت شوكة الزاوية الدلائية وكان ابو المحلي من مشاهير الثوار الصوفيين ضد السعديين حيث احتل درعة ، كما قتل السلطان محمد الشيخ المامون بن احمد المنصور العضاوي البقال لانه تصدى له بجارح القول واتهمه بالتهاون فى الدفاع عن العرائش ولم يمنع ذلك ان يكون المنصور السعدي متصوفا فى اعماقه فقد جاء انه لبس خرقة التصوف على يد شيخه المنجور والواقع ان السعديين مدينون لزعماء الطرق الصوفية كما قلنا لانهم هم الذين قاوموا بني مرين وهدموا دولتهم لانحلال ملوكهم وعدم

مقاومتهم للغزاة المسيحيين للشواطيء المغربية ، ومن هؤلاء عبد الله بن عمر السوسي المدغري ، وعبد العزيز القسطني ومحمد بن مبارك وهم الذين مهدوا لدولة محمد الشيخ السعدي بعد ان بداوا ثورتهم بالسوس وذكر مؤلف زهرة التاريخ بان محمد بن المبارك هو الذي امر قبائل السوس بالانقياد السعديين لذلك لابدع ان يقول مؤلف النشر لولا ثلاثة لانقطع العلم من المغرب في القرن الحادي عشر ، وهم محمد بن ناصر رئيس زاوية درعة ومحمد بن ابي بكر المجاطي ، رئيس زاوية الدلاء ، وعبد القادر الفاسي وهو بدون شك يصفها عن غير قصد بانها ثقافة الزوايا ولا يخفى ان بجانب هؤلاء مآت العلماء وبجانب هذه الزوايا العلمية مآت اخرى اهمها زاوية محمد بن سعدي السوسي ، وقد الف كثير من علماء التصوف في هذا الفن ومن اشهر ما كتب في ذلك دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر ، لخصه وير Weir في كتاب عنوانه مشايخ المغرب في القرن السادس عشر بعد تجريده من التصوف لابي عسكر الصوفي وهو اول مؤرخ للحركة الجزولية كما يقول بروفينصال المتصلة بالشاذلية التي تعرفت عنها معظم الطرق الصوفية في العالم الاسلامي

والبدور الضاوية في الزاوية الدلائية للحوات والدرر المرصعة باخبار اعيان درعة لمحمد المكي الدرعي الناصري وتحفة الاخوان لمناقب صلحاء وزان لمحمد الطاهري وكتاب الحضيكي المسمى طبقات الحضيكي وكاد ان يختص بصوفية سوس ، والف ابن القاضي في القرن العاشر درة الحجال ، والجذوة وهي تحتوي على تراجم لكثير من الصوفية وطوائفهم كالطائفة اليوسفية ، والطائفة الاندلسية والعكاكزة والجزولية ويلاحظ هنري باسي في كتابه ادب البرابرة ان مصنفات التراجم اهملت الاساطير الشعبية المنسوبة للصوفية ، واذا فقد عرف المغرب في هذه الحقبة عددا كبيرا من (الزوايا) تمثل الوانا من الفرق الدينية ذات نزعة خاصة في سلوكها ومعتقداتها ، وحمل الينا هذا الماضي القريب عددا من هذه الزوايا نحسبها اول وهلة انها لم تثر حمية رجال السنة في المغرب الاقصى وانهم وقفوا ازاءها متفرجين وجامدين والحقيقة انه بجانب نظام الزوايا نجد العلماء المغاربة ناضلوا نضالا قويا ضد انظمتها وكافحوا كفاحا مستمرا ليرجعوا بالدين الى صفائه بعد ان حاولت النزعات الغريبة عن جوهر الاسلام ان تتسرب اليه وتتمكن منه ، ولم تكن عوامل هذه البدع الجديدة في المغرب تشابه عواملها في بلاد الشرق ولم تكن مشكلة الطائفية تشغل وحدها الفكر الديني السلفي بل اشتغل علماء الدين ورجال الفكر فيه بمناقشة مشاكل اخرى كانت تثار من حين لآخر في الاوساط المغربية كمشكلة (النسب) ودوره في المجتمعات العامة ، هذه المشكلة شغلت حيزا كبيرا من حركة الاصلاح الديني بالمغرب وبالاخص بفاس طيلة مراحله التاريخية كما يستنتج ذلك علماء الاجتماع المغربي المعاصرون . اما مشكلة (الطرقية) فيلاحظ الفقهاء ان رجال الطرق يحاولون احداث بدعة سيئة في الدين حيث يؤلفون فرقة تسلك منهجا خاصا تتعصب له وتعتقد ان من تمسك به نجا ومن خرج عنه ضل السبيل ، ولا يخفى ان بعض المشعوذين يستغلون بساطة الدهماء فيجعلون منها مادة صالحة للاستغلال والعبث بثقتها او تكييف جهودها حسب مصلحتهم واهوائهم . والف الشيخ احمد بن عبد السلام بناني المتوفى سنة 1234 تاليفا في الرد على بعض الطوائف التي ظهرت بالمغرب في عصره سماه : « المسيار المعرب عن فضيحة الطائفة التي احدثت اسرا بالمغرب » واهتم المؤلف في كتابه بنقد طائفة خاصة انتشرت في عهده .

وفي كتاب المعيار ذكر حركة الفتاوي الفقهية التي تعرب عن حملة العلماء ورجال الدين ضد الطائفية كفتوى الملامة القباب ضد اتخاذ شيخ في طرق الصوفية وكفتوى عبد العزيز القيرواني الفاسي ضد الطرقية والطائفية

والف الزبادي (وهو علامة وفقيه) كتابا في الموضوع سماه الطرق الواربة وفي ترجمة ابي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري المتوفى سنة 1239 الذي الف كتابا مفيدا جدا عن الطائفية سماه (المزايا فيما حدث من البدع والزوايا) وهو كتاب يرد فيه على ابن عمه ابي الحسن علي بن يوسف بن الشيخ محمد الدرعي الذي دعم نظام الزوايا في ذلك الاقليم كما في طلعة المشتري ، وشن المؤرخ الناصري مؤلف الاستقصاء حملة شعواء على الطوائف وارباب الزوايا في كتابه المشهور متحدثا بحمية عن هذه الحركة واهدافها وخطرها .

وكتاب (المزايا في بدع الزوايا) وهو كتاب ذو اهمية في هذا الموضوع ويقال ان نسخة منه توجد بفاس ، وللفقيه عمر الرجراجي كتاب في الموضوع نفسه يحمل اسم (ادابة من تولى من غير الرب المولى) تحدث عنه الامام المنجور في المنهاج .

ونقد العلامة الهبطي المجتمع المغربي في عهده واصفا ما فيه من البدع والطرقية في كتاب توجد نسخة منه بمكناس .

وفي كتب التراجم المغربية تعثر على عدة علماء لم يصنفوا تآليف في هذا الموضوع على انهم استنكروا هذه الحركة ووقفوا منها موقف الخصم العنيد كابي العباس مولاي احمد الشاهد ابن (مولاي التهامي) حيث ناضل ضد فكرة الطائفية التي تزعمها والده كما في النشر اما مشكلة الانساب التي كانت سببا في اثارة عدة مناقشات في الماضي فلم تكن اقل نزاعا من مشكلة الطائفية بل استنكر عدة علماء نظرية (النسب) التي كانت ذات اثر خطير في سير الاحداث العامة في المغرب وبالاخص في بعض العواصم ذات النفوذ العلمي حتى كاد الاسلام في المغرب ان يعود الى نظام الطبقات حيث يصبح المجتمع فريسة الحقد والنضال وحتى كادت الحرف والوظائف ان تقتصر على طائفة دون اخرى .

وقد كون (عنصر الاسلاميين) طبقة من رجال العلم والدين راوا ان نظام مجتمعهم غير مبني مع التعاليم الاسلامية فكونوا جبهة معارضة ضد الميز الطبقي ودافعوا بحمية عن المساواة الاسلامية في صورتها الحقيقية وقد كانت فكرة النسب ذاعت بصورة مخيفة في هذا العصر ، ويكفي ان نذكر هنا ان الامام المنجور كان قدمه علمه فأجابه اليحمدي بقوله « ان كان قدمه علمه فقد اخره نسبه » بل ان قتل القاضي المشهور ابي النعيم الغساني كان نتيجة حكمه ضد البلديين في خلاف نشا بينهم وبين الغرب ، ويعتبر ابن زكري اشهر من تولى المعارضة في عصره وقد ايده عدد من علماء وقته كالشيخ احمد بناني مؤلف (تحلية الاذان والاسماع) ، وكتاب (الوجد المغربي) وكانت الاحاديث التي ساقها ابن زكري للدفاع عن نظريته كحديث (من دخل الدين فهو من العرب) سببا في دخول رجال الحديث للمعمعة كابي العلاء العراقي الذي ايد ابن زكري من الوجهة الحديثية على ان هناك عاملا جديدا في تلقيح الثقافة المغربية في هذا العصر وهو الهجرة الاندلسية .

ذلك ان الاندلسيين بعد الجلاء الاخير تفرقوا في كل مكان ، توزعتهم البلاد ، وساحوا في الارض .. وكان نصيب المغرب منهم وافرا .

فقد حلوا بمختلف المدن الافريقية كالرباط وسلا والقصبة وتطوان وفاس وتلمسان ووهران والجزائر وتونس ، ولعل نصيب تونس كان منهم كثيرا ايضا حيث بنوا بها اكثر من عشرين قرية وكذلك اقاموا ببنزرت والقسطنطينية ومصر والشام ومراكش . والمؤرخون الاقليميون المغاربة يتحدثون دائما عنهم فمؤلف الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام يترجم لعدد من الاعيان الذين اقبروا في مراكش ويذكر (الكانوني) مؤلف كتاب اسفي وما اليه عدة من هؤلاء الاندلسيين الذين وصلوا الى الجنوب المغربي ومؤرخ فاس صاحب السلوة يترجم لمن اقبر بفاس وابو جندار في كتاب الاغتباط في تاريخ الرباط يترجم لعديد من الاندلسيين الموجودين به ، بل ان المنصور السعدي عند ما فتح السودان الف منهم جيشا جرارا أمرهم بالمقام هناك في ضواحي البلاد السودانية تثبيتا لسلطانه وكان هذا الجيش تحت قيادة جودر بن عبد الله ، ومن الطريف ان يكون هذا القائد ولي السفارة في لندن سنة 1637 وتوجد صورة له في متحف لندن سبق لمجلة المستمع العربي ان نشرتها ، ومن السودان وصل فريق منهم الى الجزائر الخالدات (جزائر كناريا) وهناك نشروا مدنيتهم بها .. وبطبيعة الحال ان يكون انتشارهم في نواحي الريف اوفر واكثر لان طريقهم الى المغرب عن اودية تلكم الجبال .. وكما انتشروا في جنوب الجزيرة الاندلسية انتشروا في نابل وفرنسا فقد اجتازوا جبال البرينية ووصلوا الى فرنسا ولا سيما في المقاطعات الجنوبية منها حيث نرى هناك عائلات تعرف عندهم (أنها من سلالة السرازين) وكذلك توجد عائلات في سويسرا تنتمي الى السلالة العربية ايضا ومعروفة عندهم ويظهر لي خلاف هذا ، ذلك لان السرازين محرفة عن السراجين أي بني سراج ، وبنو سراج أسرة اندلسية مالكة حكمت بغرناطة ونزحت الى اوربا واشتهرت بها وكان (شاتوبريان) الاديب الفرنسي من الكتاب الذين صوروا حياتهم .. ويذكر التاريخ الفرنسي اسم العلامة ابا زيد الذي سكن طلوز وقد تنصر اهله واعتنقوا البروستانية ، وكان من جملة المهاجرين الى جنيف لما اصدر لويز الرابع عشر امره بطرد البروتستانيين ، وابو زيد هذا يعتبر في تاريخ فرنسا كصديق لروسو وفولتير وما تزال جنيف تحتفظ باسمه حيث تسمى به شارعا من شوارعها .

اذن فقد هاجر الاندلسيون جزيرتهم لاسباب اجتماعية واقتصادية ودينية وتفرقوا وتوزعتهم البلاد فنزل معظمهم بالرباط وتطوان .

ويذكر مؤلف خلاصة تاريخ العرب ان الكثير منهم اجتاز جبال (البرنية) واستقبلهم هنري الرابع ، على ان هنالك بقية اندمجت في الاسبانيين بعد ان اعتنقت المسيحية وذكر الوزير الغساني في رحلته انه لقي في اسبانيا كثيرا ممن تجري في عروقهم الدماء العربية وهذا الوزير توفي بفاس سنة 1119 على ان الاندلسيين عندما دخلوا المغرب لاحظ فيهم المغاربة اخلاق العجم سواء في عوائدهم أو في لغتهم . وفي رحلة (مويط) ان الرباطيين كانوا يتكلمون بالاسبانية وكل هذا كان سببا في حدوث نفرة بينهم وبين المغاربة حتى ظهر فيهم عبد الرفيع سنة 1052 هـ

وايا ما كان فالمهم ان الاندلسيين لهم اثر عظيم في حفظ الصناعة والملاحة الاندلسية وقد لعبوا دورا خطيرا في القرصنة البحرية ولم يمض على مكثهم بالمغرب مدة قليلة حتى ظهر اثرهم جليا في الحياة الاجتماعية المغربية وفي الادب بصفة خاصة فكونوا مدرسة ثقافية تمتاز بما يمتاز به في الادب الاندلسي من رقة وصفاء وقدرة على مزج العاطفة بالطبيعة مع سحر في موسيقى الالفاظ وتناسق في انتقاء التعابير وفي مقدمة (سوق المهر) ذكر لنماذج من هذا الادب المغربي الذي يذكر دائما بادب الفردوس المفقود كما يضم تاريخ تطوان للمؤرخ محمد داود وصفاحيا لحياة المهاجرين الاندلسيين الى تطوان وادبهم بها .

وتجاوز هذا التأثير ميدان الادب الى ميدان الفن المعماري حيث عملت يد الصناع على بناء ما يذكرهم ببلادهم ، وكذلك حملوا معهم الموسيقى الاندلسية باطباعها المختلفة واساليبهم في الري والفلاحة وفنونها فلقموا الاشجار وتفننوا في تنظيم الحدائق ، ولم ينسوا ان يحافظوا على مظهرهم الاجتماعي سواء في حفلاتهم واعيادهم او في لباسهم وفنون خياطة الملابس لنسائهم من تخريم وطرز وغير ذلك .

وباختصار فقد كانوا متمسكين بتقاليدهم الاندلسية وضنوا ان يفرطوا في شيء بل انهم حملوا معهم الى الرباط توابيت علمائهم وصلحائهم فدفنوها من جديد لتعيش معهم في ارضهم الجديدة وقد لعبوا دورا كبيرا في السفارات مع الخارج نظرا لتعرفهم على لغة الاسبان والفرنج ومعرفتهم بعوائد الغرب وانظمته. وفي كتاب الاغتباط بتراجم قضاة الرباط لابي جندار ذكر لعدة علماء وادباء وشعراء من هؤلاء الاندلسيين .

وكانت لهم اليد الطولى في الادب والعلم والصناعة والزراعة حتى حملوا اهل البلاد وقطعوا ارزاقهم وكان لا يستعمل بلدي ما وجد اندلسي ويذكر ابن خلدون عن رحلتهم الى المغرب وأثرهم القوي في انقراض حضارتهم فيه في مقدمته قوله : (والقت الاندلس بافلاذ كبدها من اهل تلك المملكة بالجلاء الى افريقيا ولم يلبثوا ان انقرضوا وانقطع سند تعليمهم في هذه الصناعة لعسر قبول اهل العدوة لها وصعوبتها عليها وعوج السنتهم ورسوخهم في العجمة البربرية وكان بالرباط كثير من النسوة المتحدرات من الاسر الاندلسية كآل بلانبو وبركاش مثلا ينسجن انواعا من التعاليق والستور عجيبة التشبيك 4) وفي الفلاحة حمل الاندلسيون الواردون على الرباط خلاصة تجاربهم الموفقة ويمكن الرجوع الى كتاب الفلاحة الاندلسية للطنغري المسمى زهر البستان ونزهة الادهان وكتاب الفلاحة الاندلسية لابي زكرياء يحيى ابن العوام الاشبيلي (الجزء 11) مجلة المجمع العربي الدمشقي . وهو تحليل دقيق لفن الفلاحة الذي يعتمد على اختيار الارض والزبول والمياه والفراسة ، وتربية الحيوان ، واختزان الحبوب والفواكه الفضة واليابسة، واختزان التين والتفاح والكمثري والسفرجل والاترج والرمان والاجاص والقراسيا والعنب والقسطل والفستق والبلوط ، وفي التطعيم وتلوين الزهور والتشمير في غير الابان ، وجاء في تاريخ الرباط ان من العادات الاندلسية بالرباط ان الصبيان بالمكتب يشتغلون في آخر رمضان بتزويق الواحهم بدوائر وخطوط ويلونونها بانواع الصباغ وتلك عادة اندلسية لتدريبهم على الخطوط والدوائر الهندسية كتعليم لمبادىء الهندسة .

ولا ننس ان المنصور السعدي كان معجبا بالامة التركية ونظامها وانه حاول ان يقلدها فاصطنع لنفسه جيشا على شكل الجيش التركي وادخل التقاليد الملكية الى البلاط السعدي ولكنه نسي ان هذا المظهر لا يمكن استمراره ما لم تهيء له الاسس الاولى التي هي اصلاح التعليم وتوجيهه نحو النظام العسكري كما كان الشأن في الدولة التركية لذلك باءت محاولته بالفشل وتقلصت اهدافه بعد موته وصارت البلاد على ما الفت من نظام وتعودت من حياة .

وبعث المنصور الى الاستانة سفراء تأثروا مثله بالحضارة التركية ومن هؤلاء محمد بن علي الفشتالي وعلي التمفروتي مؤلف النكات المسلية في السفارة التركية ، وابو العباس احمد بن علي الهوزالي سفير المنصور الى مراد الثالث وابن القاضي مؤرخ الدولة السعدية . ان تعدد الزوايا وهجرة الاندلسيين الى

المغرب والاتصال بالمملكة التركية سواء ذلك الاتصال الجغرافي على حدود تلمسان او الاتصال الديبلوماسي والعسكري الذي تبناه السعديون وتاثروا به الى حد كبير ... كل ذلك اثر في الثقافة المغربية وتوجيه التعليم تاثيرا لا يظهر واضحا وانما يتجلى في عدة محاولات هادفة الى اصلاح مناهج التعليم واساليبه قام بها رجال الحكم والعلم في الدولة السعدية العلوية في مختلف المناسبات ، ومن الطبيعي ان لاتبدو نتائجها في الغالب نظرا لتحجر المعلمين والعلماء على النظام القديم وتقديس الموروث من مناهجه وكتبه واساليب الدرس لذلك بقيت اساليب الدراسة ومناهجها في المغرب كما كانت من قبل مع تغيير بسيط في الكتب ، وتطورات بطيئة (طائفة في اعلام هذا العصر) في فهرس اليوسي وهو من الزاوية الدلائية ذكر للعلماء الذين اخذ عنهم بسجلماسة ودرعة والسوس ومراكش ودكالة ، وقد عدد شيوخه فكان منهم ابو بكر التطافي ومحمد بن عبد الله الحسني وعبد العزيز الفيلالي ومحمد التجموعتي وابو مهدي عيسى السجباني ، ومحمد الزوار ومحمد الحتشوكي واحمد الاعرج بن محمد القائم بامر الله ، كان عالما مدرسا بالقروين وكان ذا كرسي راتب لتدريس العلم ثم خاض السياسة ولد سنة 891 ومات سنة 951 .

احمد المنصور الذهبي ، فقد كان عالما متضلعا في الحديث والفقه والرياضيات والجبر والمقابلة ، له ارجوزة جيدة مدونة ولد سنة 956 ومات سنة 1012

عبد الواحد الحميدي

احمد العذومي

احمد المنجور

سقين الذي عده القصار من المجدودين للاسلام على راس القرن العاشر ، كان داعية للاسلام في افريقيا دخل بلاد السودان وكتوا مات سنة 956 وابو القاسم بن ابراهيم علامة مفسر مات سنة 978 ، عبد الله الورياغلي ، مجتهد اصولي ، مرابط مات سنة 954 .

ابو القاسم الحساني ابن خوجو مات سنة 956

عثمان اللمطي المولود سنة 888 المتوفى سنة 954

محمد بن غازي محدث ومؤرخ له شرح خليل ، والمدونة توفي سنة 919

رضوان الجنوي المشهور بابي حنبل كان فقيها ومحدثا ولد سنة 910 ومات سنة 991

ابن القاضي مهندس عالم مفكر الف عدة كتب اشهرها (المنتقى) والجذوة (والدرة) « والفنية » والمدخل لعلم الهندسة ومات سنة 1025

محمد بن علي القنطري اديب شاعر محدث فارس عسكري مات سنة 1018

عبد الواحد ابن عاشر فقيه مرسي مات سنة 1040

محمد بن قاسم ابن زاكور حافظ اديب وطبيب له مؤلفات شتى اشهرها شرح ديوان المتنبي ، وتذيل ارجوزة ابن سينا مات سنة 1120

الخزائن

اسس المنصور الذهبي خزانة عظيمة سميت بالخزانة المنصورية وقد جمعت كتبها في مختلف الاقطار حيث كان سفراؤه يحملون اليه من البلاد النائية مختلف الكتب وضمت الى خزانة القرويين بعد وفاته كما اشتهرت خزانة الدلائيين بنفائسها وخزانة تمكرورت وزاوية العياشي بذخائر الكتب العزيزة .

(الفهارس والمكتبات)

يحيى السراج الحافظ المفسر ولد سنة 921 ومات سنة 1007

محمد المرابط المغراوي العالم الفقيه توفي سنة 1008

محمد بن ابي القاسم ابن القاضي فقيه رحالة فلكي قتل لموافقته على تسليم ثغر العرائش سنة 1040

واشهر الفهارس

فهرس السراج

وفهرست المنجور وله فهرسان توفي سنة995

وفهرست العميري .

العمران والفن السعدي

تدفق ذهب السودان على عاصمة السعديين مراكش كما سارع البرتغاليون الى تقديم اتاوات جزيلة للدولة لفداء اسراهم فساعد هذا الوفر المادي على تاسيس منشآت ذات فن رائع هو استمرار للفن العربي الاندلسي ولكنه كان استمرار فن شاخ ولم يستطع ان يتجدد ولهذا فقد اصاب طابس حين ذكر ان الفن العربي ظل متجها للماضي ولم تستطع التاثيرات الجديدة التي تلقاها الاجانب ان تغيره او تاتي بشيء فهو فن لاتذكيه روح ، وقد حاول الفنانون ان يعوضوا هذا الاسترخاء الفني بانواع الزينة والالوان ولكنهم لم ينفذوا الى الاعماق ولعل افخم مآثر السعديين تتجلى في قصر البديع الذي وصفه الفشتالي بانه يضم الكثير من اصناف الرخام

الابيض والاخضر والمرمر والزليج المشوب بالذهب الخالص وتغطية الجدران بالصفائح الذهبية والنقش على الجبس وقد شارك في بنائه فنانون من سائر الدول والاقطار .

ومن مآثرهم مسجد باب دكالة بمراكش الذي يحتفظ بالفن المريني والشكل الموحدي والصومعة السعدية الجديدة المتواضعة او مسجد المواسين بمراكش ويتجلى اقتباس الفن السعدي عن المرينيين في الجناحين المتقابلين في صحن مسجد القرويين يشبهان جناحي قاعة الاسد بقصر الحمراء الى حد كبير ولا شك ان بقايا الفنانين المرينيين بفاس ساعد السعديين على تخليد هذا الاثر الجليل بالقرويين حيث يحتوي كل جناح على مكان للوضوء وتحتفظ مدينة مراكش بمقبرة السعديين تلك المقبرة الملحقة بجانب القصبة على غرار مقابر المرينيين بشالة وما تزال بقببها ذات النقوش الزاهية والرخام المنقوش والمواعظ المثبتة والاشعار الحكمية المنشور في زواياها الموت وعجز الانسان عن مغالبة الفناء .

ترك السعديون تاثيرا في الذوق والملابس والاطعمة والحفلات والمواسم والمهرجانات ذات الاصل التركي اقتبسها المنصور السعدي (الذهبي) من بلاد الاستانة التي اقام بها واعجب بحضارتها فهو أول من لبس الرداء الشفاف (القفطان) ونسب اليه فقيل له (المنصورية) وأول من نظم الجيش بفرقه العازفة على الطراز الجديد واستعمل المظلة على راس السلطان ، وقدم الفن العسكري المعتمد على البندقيات النارية واستغل غراسة قصب السكر وحسن معامله بتارودانت وغيرها وغير نظام بناء الاسوار التي أصبحت معززة بالبروج الصالحة لنظام المدفعية كما في برج تازة وبرج فاس وغيرها ، وظلت هذه الدولة معتنية (بالحدائق) والتشجير والاهتمام بالزهور في اكدال والمنارة في مراكش وللامينة بفاس وحمرية بمكناس واكدال بالرباط .

على ان الاندلسيين المهاجرين من المريسكو نقلوا الى اهم عواصم المغرب كفاس وتطوان والرباط بقايا الحضارة الاندلسية سواء في نظام اللباس والترقيم والتطريز او التقاليد المتبعة في الحفلات والولائم والاعراس .

وهذا الفن الجديد القائم على ازدواج الطابع الاندلسي والاسباني والمسمى بالفن الموريسكي يصطبغ بلون خاص يهدف الى ضمان متانة الهيكل مع التنميق والزخرفة ، فيه تسطيرات نائتة ومقربصات وتلوينات وايصال في التوريق والتسطير والنقش وانعدام توازن الاجزاء وعدم جودة المواد ، ويرى عكس هذا أندري جوليان (تاريخ افريقيا الشمالية ص 466) حيث ذكر انه فن واضح المعالم متوازي النسب تتجانس نقوشه تجانسا رائعا ضمن الحيز الذي يملؤه

وقد جلب المنصور الرخام من ايطاليا ومن مناجم (انوكال) المغربية (كيك) واعتمد على مهارة الجباص في نحت مزيج الكلس والرخام ومهارة النجار في بري المواسير الخشبية التي تتكون منها قطع القربصات ومهارة الزلايجي في تلوين الفسيفساء والاستيحاء من النباتات الفارسية التي تزين السقوف والزهيرات بالقرنفل والسوسن في تخليد آية الفن المغربي بقصره العظيم

توشية غريبة الحسين

هل لي من مداوي الهوى
يداوي سقامي عاجلا
قلبي الهوى انكوى
ودمعي تراه سائلا
نجمي في الهوى هوى
وحبي تراه مائلا
عن لقائي ما نوى
ان يكن لدي واصلا

بغيتي منيتي

عالج يا طبيب سقمي ودائي
عسى عن قريب تبلغ منائي
عالج يا طبيب قلبي الكئيب
بوصل الحبيب دمعي أجمع من غير رقيب
في روض عجيب منعم خصيب
يقول الاديب قولي ماابدع يعجبني الاريب
الزهر : معتبر : للنظر : (لمن حضر)

واستمرت العناية بالموسيقى الاندلسية خصوصا بعد ورود الاندلسيين على المغرب وقد كانت هناك مجموعة من التواشي تؤدى بدون كلام فمحد الشاعر العلامة حمدون ابن الحاج ملأها شعرا غنائيا لطيفا وهو:

الاقتصـــاد

واجه السعديون معضلات اقتصادية أهمها نفاذ بيت المال ولذلك فرضوا ضريبة (النائبة) وهي بيضة لكل شخص ثم ابدلوها بدرهم ثم تطورت الى ضرائب استثنائيــة .

وساعد اكتشاف امريكا وتوجه البرتغال الى البرازيل لاحتلالها على هدوء الشواطــيء المغربية من الغزو الاستعماري غير انهم عادوا الى المغرب من جديد فصدهم المغاربة في وادي المخازن . على ان المنصـــور السعدي اهتم بتحسين الاقتصاد المغربي ، ويذكـــر اندري جوليان في تاريخ افريقيا الشمالية ص 475 انــه احتكر الصناعات ورخص لليهود والمسيحيين باستقلال ارجاء السكر ، كما استغل مناجم الملح في تغــازة ـ وتدفق الذهب على مراكش ، ويحكي الرحالة لاورانس مادوك الذي كان عالما لشركة تجارية بمراكش انه شاهد بعينيه ثلاثين بغلة مثقلة باحمال الذهب ، وجاء فـــي مجلة تطوان (العدد 4) في بحث عن العلائق التجاريـة بين المغرب وانجلترا ذكر لتاسيس شركة تجارية فـــي مراكش واشتد الاتصال بين الانجليز والسعديين حتى فكر المنصور في احتلال اسبانيا واقتسامها مع اليزابيث التي آثرت ان تصرف جهودها نحو الهند .. ولا شك ان اتصال السعديين بالانجليز اتاح لهم ان يجلبوا المواد الكمالية من الطنافس والاواني التركية والهندية الشيء الكثير بل بنى المنصور قصرا متنقلا واهم مصـادر المغرب كانت هي المعادن والسكر الذي ما تزال معاملـه في حاجة وكمـا اتصل المغــرب بالانجليز عقد صفقات مع هولندا التي اقترضت منه عدة مرات وكان لها في المعمورة وآسفـي مراكز تجارية مهمــة .

الرباط : الحسن السائح



نظرات حول كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

للأستاذ : محمد بن عبد العزيز الدباغ

- 5 -

الطرف الثالث من الباب الاول من المقالة الاولى (*) :

فى صنعة الكلام ومعرفة كيفية انشائه ونظمه وتاليفه :

ان الذين يطلعون على كتاب صبح الاعشى يشعرون في قراءته بجاذبية نحو الموضوعات العامة التي حللها القلقشندي ذلك لما يمتاز به المؤلف من حسن في الترتيب ، وجمال في التعبير وتحديد محكم للمعاني والقواعد .

وانك لتشعر بهاته الظاهرة جلية في هذا الطرف المتعلق بكيفية تأليف الكلام وبالقواعد البلاغية العامة ، فهو لم يقتصر فيه على التقسيمات الجافة التي يتبعها بعض المؤلفين في هذا الفن ، بل ايدها بامثلة حية من شعر العرب ونثرهم وبآيات قرآنية مختلفة تظهر للقارىء جمال الاسلوب العربي ومدى اعجاز نظم القرآن بالنسبة الى الآثار الادبية العامة .

ولا ينتهي القارىء من هذا الطرف الا وهو مطلع على اسس الفصاحة في اللفظ والتركيب ومستوعبا لاسس المعاني فينهج اساليب البلغاء ويؤلف كلامه بعيدا عن التعقيد والبذاذة والغموض .

وانما وفق المؤلف في عرضه هذا لانه كان واعيا لاسس البلاغة متملكا من قواعدها، جامعا لاراء النقاد من قبله ، فلم يقم بدور النقل فقط ، وانما كان يحلل ويقارن وينقد ويربط بين النظريات المختلفة، فكانت كتابته مرشدا للمتعلمين ودافعا لهم الى الاجادة في التعبير والتصوير .

وقد قسم هذا الطرف الى ثلاثة مقاصد (*) فاطال في المقصد الاول ، واوجز في المقصدين الاخيرين واليك بيان ذلك:

المقصد الاول فى الاصول التي يبنى الكلام عليها وهي سبعة اصول :

ا — ما كان من المعاني مستقيما حسنا ومن هذا النوع في الفخر قول معن بن اوس :

لعمرك ما اهويت كفي لريبة
ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها
ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي
واعلم اني لم تصبني مصيبة
من الدهر الا قد اصابت فتى قبلي
ولست بماش ما حييت لمنكر
من الامر لا يمشي الى مثله مثلي
ولا مؤثر نفسي على ذي قرابة
واوثر ضيفي ما اقام على اهلي

ب — ما كان مستقيما قبيحا وهذا يرجع عيبه الى تأليفه كالتقديم والتأخير الحاصل في بعض الكلام كقول الفرزدق يمدح خال هشام بن عبد الملك :

وما مثله في الناس الا مملكا ... ابو امه حي ابوه يقاربه

(*) كتب هذا الطرف الممتع من الصفحة 192 الى صفحة 339 الجزء الثاني .

(*) عند كتابة عنوان هذا الطرف قال المؤلف وفيه مقصدان ولكنه عند التحليل ذكر ثلاثة .

يريد وما مثله في الناس حي يقاربه الا مملكا ابو امه ابوه وهو خاله . قال ابن الاثير : وقد استعمل الفرزدق من التفاضل كثيرا كأنه يقصد ذلك ويتعمده لان مثله لا يجيء الا متكلفا مقصودا .

ج ـ ما كان مستقيما ولكنه كذب كقولك حملت الجبل، وقد جره الحديث الى التحدث عن المبالغة ، فقال : ان المبالغة اذا تجاوزت حد الامكان اصبحت من مستهجن الكلام وذكر من ذلك قول البحتري :

ولو قست يوما حجلها بحقابها لكانا سواء لا بل الحجل اوسع

وقد وصفها برقة الخصر وغلظ الساق حتى جعل حجلها الذي يدور على ساقها اوسع من حقابها الذي يدور على خصرها .

د ـ ما كان محالا وهو غير معقول ايضا ومنه قول عبد الرحمن بن عبد الله القس .

واني اذا ما الموت حل بنفسها يزال بنفسي قبل ذاك فاقبر

هـ ـ ما كان غلطا وهو ان يريد بالكلام شيئا فيسبقه لسانه الى قول آخر ، ومن هذا النوع قول امرىء القيس في وصف الفرس :

واركب في الروع خيفانة كسا وجهها سعف منتشر

فقد شبه ناصية الفرس بسعف النخلة لطولها واذا غطى الشعر عين الفرس لم يكن كريما .

ومن هذا النوع ايضا ان يجري في مقاصد المعاني على خلاف المألوف المعروف كقول جنادة :

من حبها اتمنى ان يلاقيني
من نحو بلدتها ناع فينعاها
لكي يكون فراق لا لقاء له
وتضمر النفس يأسا ثم تسلاها

قال : « فاذا تمنى المحب للحبيب الموت فماذا عسى ان يتمنى البغيض لبغيضه » .

الاصل الثاني ـ الالفاظ :

وكما يجب الاعتناء بتهذيب المعاني وانتقائها والعمل على الاجادة فيها ، يجب ايضا الاعتناء باللفظ على انه قالب للمعاني ومرآة لها ، ونقل عن ابن الاثير ان الذوق السليم هو الحكم الفصل في اختيار اللفظ والحكم على جودته وفصاحته، قال ابن الاثير : (والمرجع في تحسين الالفاظ وقبحها الى حاسة السمع فما يستلذه السمع منها ويميل اليه هو الحسن ، وما يكرهه وينفر عنه هو القبيح ، بدليل ان السمع يستلذ صوت البلبل من الطير ، وصوت الشحرور ، ويميل اليهما ويكره صوت الغراب وينفر عنه ، وكذلك يكره نهيق الحمار ولا يجد ذلك في صهيل الفرس) .

ثم ذكر المؤلف صفات اربعة اذا اتصف بها اللفظ المفرد كان حسنا جذابا :

الصفة الاولى : الا يكون اللفظ غريبا ليس مأنوس الاستعمال ولا ظاهر المعنى ، وقد نقل عن ابن الاثير ان العرب في الجاهلية كانوا هم ايضا يعمدون الى اجتناب الالفاظ الحوشية وانتقاء الكلمات الفصيحة ، واستدل على ذلك بكلام قبيصة بن نعيم لما قدم على امرىء القيس في اشياخ بني اسد يسألونه العفو عن دم ابيه ، وببعض اشعار العرب كشعر امرىء القيس وعروة ابن آذينة وغيرهما .

ومما نبه اليه ابن الاثير ان العلماء باللغة والادب قد يدفعهم علمهم الى استعمال الالفاظ الغريبة لانهم يلتقطونها من كتب اللغة او يتلقفونها من اربابها ، قال : (وان مارى في ذلك ممار فلينظر الى اشعار علماء الادب ممن كان يشار اليه حتى يعلم صحة ذلك فان ابن دريد قد قيل انه اشعر علماء الادب، واذا نظرت الى شعره وجدته بالنسبة الى شعر الشعراء المجيدين منحطا مع ان اولئك الشعراء لم يعرفوا من الادب عشر معشار ما علمه ..)

ثم ذكر بعض الامثلة للالفاظ الغريبة كقول ابي تمام :

قد قلت لما اطلخم الامر وانبعثت
عشواء تالية غبسا دهاريسا

قال : (فان لفظة اطلخم من الالفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين من انها غريبة ، وانها غليظة في السمع كريهة الذوق ، وكذلك لفظة دهاريس في آخر البيت المذكور)

وقد ذكر ابن الاثير ان الغرابة قد تختلف باختلاف الاعصر ، ثم ذكر ان ذوقه هداه الى ان بعض الكلمات لايعاب استعمالها الا في النثر ، اما في الشعر فلا يعتبر استعمالها مخلا بالفصاحة ، كما ذكر ان بعض الكلمات لا تأتي غريبة الا في بعض الصيغ دون بعض ، وقد مثل المؤلف لكل ذلك .

الصفة الثانية : الا يكون اللفظ مبتذلا عاميا ولا ساقطا سوقيا وهو على قسمين :

القسم الاول ما لم تغيره العامة عن موضعه اللغوي ولكنهم اختصوا باستعماله دون الخاصة كلفظ الشطار في قول ابي نواس :

وملحة بالعذل تحسب انني بالجهل اترك صحبة الشطار

فهاته اللفظة في الاصل جمع شاطر ، وهو في اصل اللغة اسم لمن اعيا اهله خبثا ، ثم استعمل في الشجاع الذي اعيا الناس شجاعة ، وغلب دورانه على لسان العامة فامتهن وابتذل.

القسم الثاني ما كان من الالفاظ دالا على معنى وضع له في اصل اللغة فغيرته العامة وجعلته دالا على معنى آخر وهو اما غير مستقيم في الذكر ولا مستكره في السمع كاستعمال الظرافة في دماثة الاخلاق ، مع ان اصل وضعها قد خصها بنطق اللسان فقط ، واما مستقبح ذكره كما في لفظ الصرم بالصاد ، فقد كان العرب الاولون يستعملونها في القطع كما نقل عنهم ذلك فلما اصبح دالا على القطع في المحل المخصوص صار لفظا مستقبحا .

الصفة الثالثة : الا يكون متنافر الحروف بحيث يمجه الذوق عند سماعه كلفظة الهعخع وهو نبات اسود .

ويرجع ابن الاثير ايضا تنافر الحروف الى حاسة السمع فقط فهو وان ذكر اولا اثر الوضع في تقارب مخارج الحروف وتباعدها فقد رجع الى حكم الذوق في ذلك فقال : (ان حاسة السمع هي الحاكمة في هذا المقام في تحسين لفظ وتقبيح آخر ، على انه قد يجيء من المتقارب المخارج ما هو حسن رائق ، الا ترى ان الحروف الشجرية وهي الجيم والشين والياء متقاربة المخارج لانها تخرج من وسط اللسان بينه وبين الحنك، واذا تركب منها لفظ جاء حسنا رائقا، فان لفظة جيش قداجتمعت فيها الحروف الشجرية الثلاثة وهي مع تقارب مخارجها حسنة رائقة .. وقد يجيء من المتباعد المخارج ما هو قبيح متنافر كقولك ملع بمعنى عدا ، فان الميم من الشفة والعين من حروف الحلق و اللام من وسط اللسان فهذه الحروف كلها متباعدة من بعضها ومع ذلك فانها كريهة الاستعمال ينبو عنها الذوق السليم ..) .

الصفة الرابعة : الا يكون على خلاف القانون المستنبط من تتبع مفردات الفاظ اللغة العربية وما هو في حكمها كوجوب الاعلال في نحو قام ، والادغام في نحو مد ، وغير ذلك مما يشتمل عليه علم التصريف .

الاصل الثالث :

تركيب الكلام وترتيب الالفاظ ، وهو في هذا الاصل تحدث عن كيفية رصف الكلام وتنظيمه واستعمال الالفاظ داخل الجمل استعمالا متسقا سليما من الركاكة والتعقيد ، وقد نبه الى تحكم الذوق ايضا في هذا الرصف لان بعض الكلمات لا تحسن داخل الكلام الا اذا كانت موصولة بما بعدها كلفظة تؤذي مثلا ، فقد ذكر ابن الاثير ان هاته اللفظة جاءت رثة مستهجنة في قول ابي الطيب المتنبي :

تلذ له المروءة وهي تؤذي ومن يعشق يلذ له الغرام

مع ان البيت يحتوي على معنى شريف ، والسبب في ذلك ان لفظة تؤذي لم تات مندرجة مع الالفاظ التي جاءت بعدها ولم تتعلق بها ، قال وقد اتت هاته اللفظة عينها في كتاب الله متعلقة بما بعدها فكانت في غاية الحسن ، قال الله تعالى : (ان ذلك كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق) وقد جاءت في الحديث ايضا متصلة بما بعدها فلم يستثقلها الذوق ولم ينب عنها وذلك انه لما اشتكى النبي (ص) جاءه جبريل فرقاه فقال : (بسم الله ارقيك من كل داء يؤذيك) .

ثم ذكر المؤلف الصفات التي تجب في فصاحة الفاظه فقال :

الصفة الاولى : ان يكون سليما من ضعف التاليف بحيث يسير وفق القانون النحوي المشتهر فيما بين معظم اصحابه حتى لا يمتنع عند الجمهور ، وذلك كالاضمار قبل الذكر لفظا او معنى ، نحو ضرب غلامه زيدا .

الصفة الثانية : ان يكون سليما من التعقيد وهو الا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى الذي يراد منه وهو ضربان .

الضرب الاول وهو الذي يسميه ابن الاثير المعاظلة المعنوية — الا يكون ترتيب الالفاظ وفق ترتيب المعاني بسبب تقديم او تاخير كالبيت الذي ذكرناه من قبل للفرزدق في مدح ابراهيم بن هشام ابن اسماعيل المخزومي خال هشام بن عبد الملك :

وما مثله في الناس الا مملكا ابو امه حي ابوه يقاربه

الضرب الثاني (الا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد بخلل في انتقال الذهن من المعنى الاول المفهوم بحسب اللغة الى الثاني المقصود لايراد اللوازم البعيدة المفتقرة الى الوسائط الكثيرة مع خفاء القرائن للدلالة على المقصود كقول العباس بن الاحنف :

ساطلب بعدالدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

فقد كنى بجمود العين عما يوجبه دوام التلاقي من الفرح والسرور ، مع ان المتبادر من جمود العين بخلها بالدمع عند ارادة البكاء .

الصفة الثالثة : ان يكون الكلام سليما من تنافر الكلمات وان كانت مفرداته فصيحة .

وقد اختلف النقاد في تبيان المراد بتنافر الكلمات فذهب السكاكي وجماعة من علماء البيان ان المراد بها ان يكون في الكلام ثقل على اللسان بحيث يعسر النطق على المتكلم كقول ابي تمام :

كريم متى امدحه امدحه والورى
معي واذا ما لمته لمته وحدي

وكقول الآخر والغالب انه موضوع لهاته الغاية :

وقبر حرب بمكان قفر
وليس قرب قبر حرب قبر

وذهب ابو هلال العسكري في كتاب الصناعتين ان المراد بتنافر الكلمات ان تكون اجزاء الكلام غير متلائمة ومعانيه غير متوافقة كقول السوال :

قبحن كماء المزن ما في نصابنا
كهام ولا فينا يعد بخيل

فليس بين قوله ما في نصابنا كهام وقوله قبحن كماء المزن مناسبة لان المراد بالكهام الذي لا غناء به ولا فائدة فيه وماء المزن انما يحسن في وصف الجود والكرم .

وذهب ابن الاثير ان المراد بالتنافر ان تذكر لفظة او الفاظا يكون غيرها مما في معناها اولى بالذكر كفك الادغام في غير موضع فكه ، وزيادة حرف في غير موضعه ووصل همزة القطع او قطع همزة الوصل ، قال ومنها ان يفرق بين الموصوف والصفة بضمير من تقدم ذكره كقول البحتري :

حلفت لها بالله يوم التفرق
وبالوجد من قلبي بها المتعلق

تقديره من قلبي المتعلق بها .

الاصل الرابع :

المعرفة بالسجع وذكر معناه اللغوي والاصطلاحي واين يحسن موقعه من الكلام ثم عن اقسامه وعن معرفة مقادير السجعات في الطول والقصر وعن ترتيب بعضها على بعض في التقديم والتأخير .

ثم تحدث عن حسنه وقبحه

اما حسنه فيشترط فيه امور كثيرة :

منها ان يكون السجع بريئا من التكلف خاليا من التعسف محمولا على ما ياتي به الطبع وتبديه الغريزة ويكون اللفظ فيه تابعا للمعنى .

ومنها ان تكون الالفاظ المسجوعة حلوة حادة لا غثة ولا باردة مونقة المعنى حسنة التركيب .

ومنها ان تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذي دلت عليه اختها .

ومنها ان يقع التجنيس في نفس الفواصل كقولهم : (اذا قلت الانصار كلت الابصار) .

ومنها ان يقع في خلال السجعة الطويلة قرائن قصار فتكون سجعا في سجع كقوله تعالى (ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم) .

واما قبحه فيعتبر بامور :

منها التجميع وهو ان تكون فاصلة الجزء الاول بعيدة المشاكلة لفاصلة الجزء الثاني .

ومنها التطويل وهو ان يجيء الجزء الاول طويلا فيحتاج الى اطالة الجزء الثاني .

الاصل الخامس :

حسن الاتباع والقدرة على الاختراع :

فاما حسن الاتباع فينظر الكاتب الى ما كتبه الاولون ويقلدهم فيه بل ينسخ ما كتبوا فقط وعلى هذا الامر تسير الدساتير والدواوين وقد عاب المؤلف ذلك ، واما الاختراع فيطلع على اشعار العرب ورسائلهم وخطبهم ويدرس القرآن الكريم واذا ما انشأ رسالة او كتابا ابدع فيه وانشأ شيئا جديدا لم يسبق به احد ، قال ابن الاثير (وهذه الطريق هي طريق الاجتهاد وصاحبها يعد اماما في الكتابة كما يعد الشافعي وابو حنيفة ومالك وغيرهم من المجتهدين في علم الفقه) .

الاصل السادس :

وجود الطبع السليم (*) فان الاستعداد الفطري من اسس تركيب الكلام ومن المؤثرات الاساسية في ذلك ، وقد يغلب الطبع على اديب في غرض من الاغراض ثم لا يوفق في غرض آخر ولذلك قيل : (اشعر الناس امرؤ القيس اذا ركب ، وزهير اذا رغب ، والنابغة اذا رهب ، وعنترة اذا كلب ، اي غضب والاعشى اذا طرب) .

وان الطبع قد يواتي الشخص حينا ويعاكسه حينا آخر فالقريحة لا تدوم فقد روي عن الفرزدق انه قال : (اني ليمر على الوقت ولقلع ضرس من اضراسي ايسر علي من قول الشعر) .

(*) لم يذكر المؤلف الاصل السابع وانما قال الاصل السادس وجود الطبع السليم وخلو الفكر عن المشوش وحيث انه ذكر ان الاصول سبعة ظهر ان ما وقع له انما هو سهو ولذلك فصلت الاصل السادس الى اصلين .

وقد به المؤلف على ان وجود الطبع السليم لا يكفي وحده في خلق الادب وصنع الكتابة بل لابد من العمل على الاستمداد من قواعد اللغة والاطلاع على مختلف العلوم .

الاصل السابع :

خلو الفكر عن التشوش ويرجع الى امرين الى صفاء الزمان ، والى صفاء المكان وقد نقل عن ابي تمام في وصيته للبحتري ان احسن الاوقات لتأليف الشيء او حفظه وقت السحر فان النفس تكون قد اخذت حظها من الراحة وهناك من يعتبر وسط الليل احسن الازمنة لذلك .

المقصد الثاني في بيان طرق البلاغة ووجوه تحسين الكلام وكيفية انشائه وتأليفه :

وقد ذكر ان اول ما يجب على من وجد في نفسه ميلا لتاليف الشعر والنثر ان يتعهد نفسه ويمتحنها بالنظر في المعاني ، وان يستنبط المخترعات ، وان يبتعد عن التعقيد والتوعر وان يجعل كلامه مطابقا لمقتضى الحال ، وان يستقل اساليب الكلام وطرق البيان فيستعمل الاستعارات والتشبيهات وان يتتبع وجوه استحسان الكلام فيستغل البديع والاسجاع والمقابلات وان يجتنب السجع المتكلف .

المقصد الثالث في بيان مقادير الكلام ومقتضيات اطالته وقصره :

فتحدث عن الايجاز والاطناب والمساواة .

اما الايجاز فهو جمع المعاني الكثيرة ، بالالفاظ القليلة وعليه ورد اكثر آي القرآن كقوله تعالى : (اولئك لهم الامن) فدخل تحت الامن جميع المحبوبات لانه نفي به ان يخافوا شيئا من الفقر والموت وزوال النعمة والجور وغير ذلك .

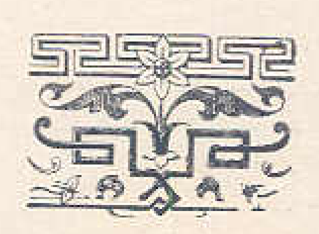
واما الاطناب فهو الاشباع في القول وترديد الالفاظ المترادفة على المعنى الواحد ، وقد وقع منه الكثير في القرآن كقوله تعالى : (فان من العسر يسرا ان مع العسر يسرا) .

واما المساواة فهي ان تكون الالفاظ مساوية للمعاني في القلة والكثرة كقول الرسول (ص) : لا تزال امتي بخير ما لم تر الامانة مغنما والزكاة مغرما) .

وذكر ان البلاغة تقتضي استعمال كل من هذه الانواع في الكلام حسب الحاجة اليه ، فاذا كان المقام يقتضي التأكيد والاقناع والاظهار فالواجب استعمال الاطناب بحيث يعتبر من جنبه مخلا بقواعد البيان والمعاني وهكذا الامر بالنسبة الى مقتضيات الاحوال فيما يتعلق بالايجاز او المساواة .

وهنا انهى المؤلف هذا الظرف الممتع الذي يدل على قدرة في التصميم فقد تحدث اول الامر عن المعاني ، ثم عن المحسنات اللفظية ، ثم اضاف الى ذلك جودة الطبع وخلو الفكر من التشوش ، ثم تحدث عن العلاقة بين طول الكلام وقصره ومساواته للمعنى حسب مقتضيات الحال ، وفي كل موضوع اكثر من الامثلة التي تصقل الذوق وتهذب اللفظ وتضفي على الطبع رقة فتسيل ادبا بديعا يسر القارئين والسامعين .

فاس : محمد بن عبد العزيز الدباغ





كان لسلفنا – في مختلف العصور – شغف بالعلم وتعلق بالادب وحب للمعرفة ، وعناية جلى بالتاليف فيها ومحاولة الابتكار في حلباتها ، وصون ذلك كله من عبث الضياع بكتابته على ما في عملية الكتابة اليدوية من عناء وجهد شديدين ، يدلنا على ذلك هذه الاكداس المكدسة من المخطوطات في مختلف العلوم وشتى انواع المعرفة ، موزعة بين مكتبات عامة ومكتبات خاصة ومكتبات المساجد والزوايا ، احسنها حظا من العناية ما احصي عدده وسجلت اسماؤه واسماء مؤلفيه في فهرسة علمية بمكتباتنا العامة .

تلك حقيقة ، يعرفها مثقفونا ، وفي طليعتهم السادة المشرفون على قسم المخطوطات والوثائق بالمكتبات العامة ، وهواة جمع المخطوطات ومن يشتغل بالتنقيب فيها ويتخصص في دراستها .

واذا كانت الامم المتحضرة الراقية تسعى باستمرار لتصل حاضرها بماضيها ، وتتزود من تجرباتها في كليهما بما ينير الطريق لها ويعبده ، تسلك نحو مستقبل افضل وحياة اجمل .. اذا كانت تلك الامم تفعل ذلك ، وكنا نتطلع الى يوم ، نصبح في مصافها ، فانه لجدير بنا – وخاصة في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخنا التي يجب ان نعي فيها اصولنا ونعرف ذواتنا ونستكمل مقومات شخصيتنا – ان نبحث ، ان نفتش عن آثار علمية وكنوز فكرية وذخائر ادبية اصابها البلى وعاثت فيها الارضة المقيتة ، وهي ليست تمثل في الحقيقة سوى آثار خطوات اجدادنا في معارج العلوم والثقافة ومعالم مراحل سيرهم في سبلهما .

انها مخطوطات قيمة – شكلا ومضمونا – بعثها يعني بعث صور لماضينا العلمي والادبي ولا شك انها مجيدة ومشرقة ، وتثير الفخر بالشخصية المستقلة الكيان ، والاعتزاز بالوجود المتميز الذات ، واغفالها وطمسها يعني اغفال وطمس ماضينا واصولنا .

ولست اشك في ان مخطوط « زهر الاكم في الامثال والحكم » ، لمؤلفه ابي علي الحسن اليوسي الذي وددت ان احدثك عنه اليوم ياتي في طليعة ذخائرنا الادبية التي يجب ان نخلصها من (ظلمة) الغبار و (ظلم) الارضة ، ونخرجها لعالم النور .. ولكن ، قبل ان احدثك عن هذا الاثر الادبي الرائع احب ان احدثك عن صاحبه ... فمن هو ابو علي الحسن اليوسي ؟ !

❊ ❊ ❊

محاولة الحديث عن شخصية العالم النابغة والاديب البارع ابي علي الحسن اليوسي تستدعي قبل كل شيء الحديث عن الزاوية الدلائية ، او هي نفسها حديث عن وجه مشرق القسمات ، بارز المعالم من وجوه هذا المركز العظيم للاشعاع الفكري خلال فترة من فترات تاريخ بلادنا .

استطاعت زاوية الدلائيين (❊) ان تحفظ تراثا مجيدا من العلوم والاداب بعد وفاة احمد المنصور الذهبي ، وان تقوم عليه خير قيام (❊) كما استطاعت ان تنعش روح الادب والشعر بعد خمودها باثر سقوط الدولة السعدية (❊) ، وبتوالي الايام اصبحت هذه الزاوية مركزا لنشر الثقافة في ربوع المغرب وكعبة

❊ اسسها الشيخ ابو بكر الدلائي ، وكانت مأوى للطلبة ومركزا لنشر العلم والثقافة الاسلامية وظلت كذلك حتى اوقع بها مولاي رشيد وشرد اصحابها وذلك في سنة 1079 هـ .

❊ النبوغ المغربي في الادب العربي للاستاذ عبد الله كنون . ط دار الكتاب اللبناني ص 274 ج 1 .

❊ نفس المصدر ص 312 ج 1 .

يؤمها طلاب العلوم الاسلامية ، وقد تخرج منها عدد لا يكاد يحصى من العلماء والادباء اشهرهم على الاطلاق مفخرة المغرب العلمية والادبية في القرن الحادي عشر الهجري : ابو علي الحسن اليوسي .

وقد لبث الادب المغربي – كما يقول استاذنا عبد الله كنون – يحمل طابع الزاوية الدلائية زمنا غير قصير ممثلا في اسلوب اليوسي القوي الرصين ، ومتاديا الى ابن زاكور الشاعر الفحل بطريق شيخه اليوسي (*) .

وقد كان صاحبنا اليوسي ذا باع طويل وكعب عال في العلوم العقلية والنقلية تخرج من زاوية اهل الدلاء ثم عكف بها بنشر العلم والمعرفة حتى اوقع بها مولاي رشيد فانتقل اليوسي الى فاس حيث تصدر للتدريس بجامعة القرويين .

ولعلنا اذ نقرأ ما قاله فيه عصريه العالم الفاضل ابو سالم العياشي :

من فاته الحسن البصري يدركه
فليصحب الحسن اليوسي يكفيه

ندرك الى مدى كان الرجل معروفا بالعلم ، والصلاح ، والورع ، والتقوى ، وحسن الهدى ، واقامة شعائر الدين .

ولعلنا ، ايضا ، اذا قرانا قولته : (لو شئت ان اتكلم الا بالشعر لفعلت) ، ادركنا غزارة شاعريته وتيقنا من ان الشعر كان عنده اسهل من النفس ، يؤكد لدينا ذلك ما ذكره الذين ترجموا له مثل القادري (*) وغيره من انه كان يحفظ عن ظهر قلب ديوان المتنبي وابي تمام والمعري ، وقصائد كثيرة لشعراء آخرين ، كما يؤكد لدينا هذا الديوان الضخم من الشعر الذي خلفه اليوسي ضمن ما خلف من مؤلفات ، وهو يدل على غزارة شاعريته وسلامة طبعه ، ونحن نعتقد على ضوء ما تقدم ذكره ان لليوسي شعرا آخر غير ما ضمه ديوانه لم يصل الينا لان اصوله المكتوبة ربما تكون قد ضاعت او ان اليوسي نفسه لم يعن بتدوينه وبقي محفوظا في ذاكرته ، وضاع بموته .

وقد طبع هذا الديوان طبعة فاسية ، وعمل الاستاذ العلامة عبد الله كنون منتخبا منه ، وقدم قصائد ومقتطعات منه وحللها تحليلا ادبيا ممتازا الاستاذ محمد المنتصر الريسوني في حديثه المسلسل الذي نشرته جريدة « الحسنى » عن اليوسي « العالم الشاعر » (*) .

ولليوسي غير ديوان شعره ، مؤلفات نفيسة ، نذكر منها : « المحاضرات » (*) و « القانون في ابتداء العلوم » (*) و « منهاج الخلاص من كلمة الاخلاص » (*) و « زهر الاكم في الامثال والحكم » ، وهو موضوع حديثنا في هذه العجالة .

هذا الكتاب الشيق ، الممتع ، الرائع ، هو نظير لما الف وجمع في ميدان الامثال والحكم ، مثل « كتاب الامثال » للفضل الضبي ، وكتاب « جمهرة الامثال » لابي هلال العسكري ، وكتاب « مجمع الامثال » لابي الفضل احمد بن محمد بن احمد بن ابراهيم الميداني ، وكتاب حمزة الاصفهاني في الامثال ، وهو لايزال مخطوطا بمكتبة مونيخ ، ويعد من المصادر الرئيسية لكل من اشتغل بعد الاصفهاني في هذا الموضوع ، وكتاب « الوصايا والامثال والموجز من محكم الاقوال » (*) لابي الوفاء المبشر .

توجد من « زهر الاكم في الامثال والحكم » نسخ اربع بقسم الوثائق التابع للخزانة العامة بالرباط ، الاولى مسجلة تحت رقم (1001) والثانية تحت رقم (1159) وهذه مكتوبة بخط مغربي لا باس به، وفي آخرها بتر .

---

* نفس المصدر ص 312 ج 1 .
* نشر المثاني للقادري ج 2 ص 142 .
* راجع جريدة الحسنى من عددها الاربعين الى عددها الثامن والاربعين – السنة الاولى .
* طبعت بفاس عام 1317 .
* طبع بفاس عام 1310 هـ .
* طبع بفاس عام 1327 هـ .
* طبع بالاستانة 1300 هـ .
* لابي الوفاء المبشر بن فاتك كتاب آخر اسمه (مختار الحكم ومحاسن الكلم) تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي . ط المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد 1958 .

اما النسخة الثالثة فهي مسجلة تحت رقم (71) وهي مبتورة الاول ، وليس بها مقدمة ، وانما هي مبدوءة بباب الجيم ومختومة بباب الصاد ، وفي آخر صفحة منها نقرا هذا التعليق لناسخها (انتهى ما وجد من « زهر الاكم في الامثال والحكم » للشيخ الامام ، علامة الانام ، آخر المحققين ، وخاتمة الادباء المعبرين ، العارف ابي علي سيدي الحسن بن مسعود اليوسي رحمه الله ورضي عنه ، وكان الفراغ من نسخ هذا الكتاب يوم الاربعاء ثالث شوال الابرك عام 1334 هـ) .

على ان النسخة الرابعة نسخة غير مبتورة ، وهي مكتوبة بخط مغربي جميل ، تطالعنا في اولها فاتحة الكتاب ، نقراها فنعجب باسلوبها المشرق البارع الذي يذكرنا بعهود للنثر العربي زاهرة ولاعصار له كانت مزدهرة .

قال اليوسي في مستهلها : (سبحان الله المتعالي عن الاشباه والامثال ، والحمد لله ذي الفضل العظيم والكرم المنثال ، ولا اله الا الله المتوحد بالكبرياء والاتال ، والله اكبر ان يتطاول الى سمى جلاله خيال او مثال ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، نحمده على ما اسدى من جزيل الرغائب واجرى من جميل المواهب ، ومنى من جليل المآرب ، واسنى من كميل المراتب ، واولى من الجميل العميم ، ونشكره على افئدة بنور الايمان هداها ، والسنة طال في شاو البيان مداها ، وبصائر اسام سرحها الى مراتع العبر وحداها ، وانتجع بها مواقف غيث الفكر وجداها ، حتى اصبحت تشوى من كؤوس العرفان تهيم ، وتجلو بلوامع التبيان كل ليل بهيم) .

وبعد ان يصلي على النبي (محمد المختار ، المقتعد حقا ذروة الكمال والفخار ، والمرتدي برد الاجلال والاكبار .. الخ) يمهد للحديث عن موضوع كتابه بالكلام عن العلم بصفة عامة فيقول : (العلم انفس علق يقتنى ، واجل ثمر يجتنى ، واعدل محجة ، واقوم حجة ، واحصن جنة — بضم الجيم —) ويمضي مبينا فضل العلم وكيف انه (غذاء العقل وبه يعرف الحكم العدل ، وان الخصيصة التي بها تشرف الانسان انما هي العلم واللسان فان المرء لو بلغ في كمال الجسم والجمال اطوريه لا يكون انسانا الا باصغريه) (*) .

ثم يبين مكانة علم الادب بين بقية العلوم فيقول (فلا جرم كان من اجل العلوم وافخرها ، واحقها بالاعتناء واجدرها علم الادب والتضلع من كلام العرب اذ به تنحل عقلة اللسان ، وتزاح روعة الجنان ، وهو لسان نبينا نخبة العالم وصفوة ولد آدم وكتابه الذي اخرس به مصاقع البيان من بلغاء عدنان .

ومن ثم ينتقل اليوسي الى الحديث عن موضوع كتابه ، وهو الامثال والحكم ، ويبدي اهميتها فيقول بانها (زمام كل معنى ، ومنار كل مرمى ، ومصباح كل ظلما ، وبها يرتاض كل جموح ، ويصبح المبهم ذا وضوح ، وبها يعود الغائب مشهودا ، بل المعدوم موجودا) ثم اشار الى الجهود التي بذلها الاقدمون في هذا المضمار ، وكيف انهم كانوا يعنون بهذا الفن ، يدونون نوادره ويردون موارده ويقتنصون شوارده ويقتطفون ازاهره .

ولقد كانت لليوسي — كما يقول في فاتحة كتابه — نفس تشوقه الى هذا الفن — فن الامثال والحكم — ومآثره تنازعه الى تتبع دائره ، فكان يتطلع ان يجد في ذلك موضوعا او يصادف كتابا مجموعا مما عني به الاقدمون واقتفى اثرهم فيه المتاخرون ، فلم يظفر بشيء من ذلك (*) ، وكان هذا حافزا له على القيام بجولات في عرصات كتب الادب والشعر واخبار العرب ، ولم يزل كذلك حتى امتلأ وطابه بالامثال وفاض اناؤه بالحكم فراوده خاطر جمع (ما علق في هذا الوقت بخاطري مما ترقى اليه نظري وناظري في كن يؤويه ومجموع يحويه حذرا من النسيان عند تطاول الزمان ، فالفت هذا المجموع في الامثال واودعته كل دمية وتمثال ، ثم رايت ان اضم اليها من الحكم جملة مما اشتهيت اليه ووقفت عند طوفاني عليه) .

الى ان يقول : (فجاء بحمد الله كتابا ممتعا ، للاذان الصم مسمعا :

جمعت به والجفن مغض على القذا
وبالخلد البلبال اصبح ذا خلد

(*) في المعنى الكلمة المأثورة : المرء باصغريه : لسانه وقلبه ، وقول الشاعر الجاهلي :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده … فلم تبق الا صورة اللحم والدم

(*) يستفاد من هذا ان «زهر الاكم في الامثال والحكم» ليس مضمونه نسخة اخرى من مضمون كتاب الضبي او الميداني او غيرهما في الامثال (لان دهر اليوسي العقيم وجده السقيم) لم يسمح له بالاطلاع على كتاب من تلك الكتب ومن هنا جاءت اهمية كتابه .

محاسن تزري بالنسيم اذا سرى
تحيي محيا السوسن الفض والورد
وتزري بهاء بالمطير من الربى
وبالعذب للصادي وبالكاعب الراد
لآليء ما غواصها بمصادف
لها صدفا في ملتقى ابحر الهند
ولا حليت يوما بها جيد غادة
ولا فصلت بالعسجد الصرد في عقد
فرائد (*) ما منهن الا خريدة
اعز على المرتاد من الابلق الفرد

(ومع هذا فاني اعتذر لذوي النفوس الوقادة والصارفة النقادة من تقصير فيه ، وخلل لم يتفق تلافيه) .

والكتاب مقسم الى قسمين : القسم الاول في الامثال وما يلتحق بها ، وهو يضم مقدمة شيقة ــ مبنى ومعنى ــ من اربعة فصول ، الاول في معنى المثل والحكمة والثاني في فائدة المثل والحكمة ، والثالث في فضل الشعر ، والرابع في الامثال الشعرية ، كما يضم خاتمة واربعة وثلاثين بابا ، تسعة وعشرون منها في الامثال التركيبية العربية وما يلتحق بها على حروف المعجم ؛ والباب الموفي ثلاثين في الامثال التركيبية ، الحادي والثلاثون في الاعيان ، الثاني والثلاثون في الامثال القرآنية ، الثالث والثلاثون في الامثال الحديثية ، الرابع والثلاثون في الامثال الشعرية .

اما القسم الثاني من الكتاب فهو خاص بالحكم وما يلتحق بها ، وقد ضم بين دفتيه اثنين وثلاثين بابا ، تسعة وعشرون منها في الحكم على حروف المعجم ، الباب الثلاثون في حكم مجموعة ، الحادي والثلاثون في النوادر ، الثاني والثلاثون في الاوليات ، فكان مجموع الكتاب اذن بذلك ستة وستين بابا .

ويحدثنا اليوسي عن اصطلاح الكتاب فيقول : (اعلم باني رتبت ما ذكرته من الامثال على حروف المعجم ، جاعلا الباب الاول حروف الكلمة فان اشتمل المثل على كلمات اعتبرت اولها كلمة ، ثم اول هذه الكلمة حرفا ، ثم عند سرد امثال كل باب اعتبر هذا الترتيب ايضا في جمعها وتقديم بعضها على بعض ، والمعتبر من جميع ذلك اول الحروف الاصلية دون الزائدة الا أن يكون لها ممنوع يخرطها في سلك الاصلية، فان كان الحرف مما ينبني عليه التركيب كـ « لا وما » النافيتين ، و « في والباء » الجارتين اعتبر ايضا) .

وصاحبنا اليوسي لا يقصر كتابه على الامثال العربية الفصيحة ، بل يورد احيانا (شيئا من امثال المولدين ومن بعدهم او شيئا مما يتمثل به في (وقته) من الفاظ الحديث) ، وهذا ليس من شانه الفض من قيمة الكتاب فهو ــ على حد تعبير مؤلفه ــ ليس موضوعا للغزو الصرف والحكايات المجردة ؛ بل موضوع لينتفع به الاديب ويستعين به المتصرف ويتضلع منه الكاتب والشاعر وغيرهما .

ومنهج اليوسي في ايراد الامثال منهج مفيد وطريف ، فهو يسوق المثل ويشرح الفاظه من ناحية اللغة شرحا دقيقا ، ويشير الى الموقف الذي يضرب فيه المثل ، ثم يحكي الحادثة التي تمخض عنها ، وقد يورد في بعض الاحيان شبيهه عند العامة .

فلنستمع اليه وهو يحدثنا عن هذا المثل : (ان لا حظية فلا الية) (الحظوة : المكانة ــ يقال : حظيت المرأة عند زوجها بالكسر ، تحظى حظوة وحظة فهي حظية وهن حظايا ضد صلفت ــ الالو : التقصير ، يقال : الا في هذا الامر يالو الوا ولوا ، والتلى اذا قصر فيه وابطا فهو ءال ومؤتلي ، يضرب هذا المثل في مداراة الناس والتودد اليهم ، والمعنى : انك اذا اخطاتك الحظوة فيما تريد فلا تال جهدا ولا تزال مجتهدا متوددا للناس حتى تستدرك ما فاتك مما تطلب . واصله في المراة انها ان لم تحظ عند زوجها فلا ينبغي لها ان تقصر في طلب الحظوة حتى تنالها ، واصله ان رجلا كان لاتحظى عنده امراة فتزوج امراة فلم تأل جهدا في ان تحظى عنده فلم يفته ذلك وطلقها فقالت ذلك ، اني ان لم احظ عنده فاني لم اقصر ، فصار مثلا في كل من اجتهد في امر لينا له وتعذر عليه وهو لم يقصر في طلبه والسعي فيه ، واعلم ان في المثل بالنصب والرفع يجب تقدير المحذوف،

* في نسخة اخرى : فوائد .

فمن نصب فمعناه باعتبار الاصل : ان لا اكن عندك ايها البعل حظية فلا اكون الية فى الحظوة بتحسين خلقي ـ بتسكين اللام ـ وخلقي ـ بضم اللام ـ حتى ادركها ، ومن رفع فله وجهان : احدهما ان تكون الحظية مصدرا وصفا ، والمعنى : ان اخطأتني الحظوة عندك فلا اكون الية فى طلبها او فلا يقع مني الو وتقصير ، الثاني ان تكون الحظية وصفا او على بابها الا انها راجعة الى غير القائلة ، والمعنى : ان لا تكن لك فى الناس حظية تحظى عندك فانا لا اكون الية فى طلبها حتى اتالها منك او نحو هذا من التقادير وما هو الارجح منها ، وهو معروف) .

***

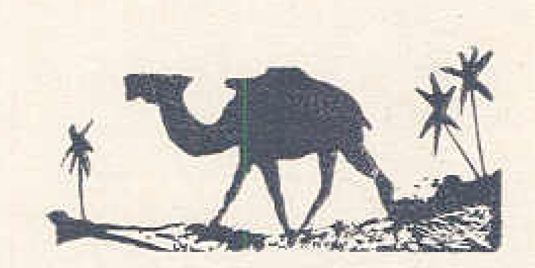
وبعد :
فان للامثال والحكم ـ كما هو معروف ـ قيمة بلاغية وادبية (*) ، وقيمة تاريخية واجتماعية واخلاقية (*) فهي مرآة عاكسة لتفكير الشعوب وثقافتها وعوائدها واخلاقها ، وهي ذات اهمية قصوى ليس يدركها الا من تعمق فى دراسة نفسية الامم والشعوب ، وتطورها المعرفي والمجتمعي (*) .

وكتاب « زهر الاكم فى الامثال والحكم » لمؤلفه العلامة النابغة والاديب المتضلع ابي علي الحسن اليوسي ، ذخيرة عظيمة القيمة والنفع ، ما اجدر المسؤولين عن الثقافة فى بلادنا ان ينقذوه ـ مع ذخائر ادبية أخرى ـ ويخرجوه الى قراء الادب ، ليستفيدوا منه .

تطوان : حسن الوراكلي

---

* انظر كتاب « الامثال والحكم » تاليف : حنا الفاخوري . ط دار المعارف بمصر .
* يقول أبراهيم النظام : (يجتمع فى المثل اربعة لا تجتمع فى غيره من الكلام : ايجاز اللفظ ، واصابة المعنى وحسن التشبيه ، وجودة الكتابة فهو نهاية البلاغة) .
* انظر كتاب « تطور الاساليب النثرية فى الادب العربي » لانيس المقدسي ط دار العلم للملايين ببيروت .



ثابت بن قرة ودوره في التمدن الإسلامي

للدكتور: فكتور الكك

اسمه كما جاء في فهرست ابن النديم (★) ابو الحسن الصابي ثابت بن قرة بن مروان (★) بن ثابت بن كرايا (★) ابن ابراهيم بن كرايا بن مارينوس بن سالامويوس(★) الحراني الصابي. كان مولده بحران سنة احدى وعشرين ومائتين للهجرة، وتوفي يوم الخميس السادس والعشرين من صفر سنة ثمان وثمانين ومائتين (★).

كان ثابت صيرفيا بحران، كما يروي ابن النديم والقفطي وابن خلكان وغيرهم، غير ان بعض اجتهاداته الدينية جرت عليه استنكار اهل مذهبه من الصابئة الحرانيين، ومنعه من الدخول الى الهيكل. فتاب مدة ثم عاد الى مقالته، فمنعوه من الدخول الى المجمع. واضطر بذلك الى مغادرة حران، قاصدا كفر توثا: وهي قرية كبيرة بالجزيرة الفراتية، بالقرب من دارا. واقام ثابت في كفرتوثا مدة الى ان لقي فيها محمد بن موسى بن شاكر قافلا من بلاد الروم، فاعجب محمد بفضله، واستصحبه الى بغداد، وانزله في داره، ووصله بالخليفة المعتضد، وادخله في جملة منجميه، فاتخذ بغداد دار قراره (★) وقد بلغ ثابت مع المعتضد اجل المراتب واعلى المنازل حتى كان يجلس بحضرته في كل وقت ويحادثه طويلا، ويضاحكه ويقبل عليه دون وزرائه وخاصته، فرفع بذلك من انسائه، فثبتت احوالهم، وعلت مراتبهم (★)، وتركوا في الاعم الاغلب على دينهم.

بين الحرانيين والصابئة

والصابئون الذين يهمنا امرهم هنا والذين ينتمي اليهم ثابت، هم الحرانيون لا الصابئون المندائيون. والمندائيون فرقة موحدة عرفانية نشأت في فلسطين قبل الدين المسيحي، وهم من اتباع يوحنا المعمدان كما يقول المستشرق الالماني «خولس» في كتابه عن الصابئة.

وقد اطلق عليهم العرب اسم المغتسلة، لانهم يسكنون على ضفاف الانهر لتسهيل التعميد في الماء الجاري كما هي سنتهم. ولا تزال بقاياهم ماثلة حتى اليوم في مقاطعة خوزستان من ايران، وفي البصرة وكوت وسوق الشيوخ من العراق.

وعندي ان الصابئين الذين ذكرهم القرآن الكريم هم هؤلاء لا الحرانيون المشركون، وذلك في سورة المائدة الآية 72، وفي سورة الحج الآية 26 حيث جاء: «**ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**».

وكان المستشرق خولس اول من فرق بين المندائيين والحرانيين، بعد ان جرى التقليد على الخلط بينهما خطأ مستندا في مقالته الى فهرست ابن النديم.

★ الفهرست طبعة مصر، ص 394.
★ وفيات الاعيان، مصر 1948: ابن زهرون ويقال هرون، ص 278.
★ اخبار العلماء باخبار الحكماء مصر 1326 هجرية ــ بن كريا، ص 81.
★ اخبار: بن سالاماس. وفيات الاعيان ابن مالاجريوس
★ يتفق في ذلك ابن النديم 394 والقفطي 81 و85، وابن خلكان ج 1 ص 278.
★ راجع اخبار ص 81. وفيات 278. وفهرست 394.
★ اخبار ص 81.

اما الحرانيون فانهم بقايا من السريان والكلدان القدماء والاقوام القديمة التي سكنت ما بين النهرين ، وكانوا يعبدون الكواكب ويخصصون يوما معينا لكل كوكب ويتبعون مراسم خاصة لتقديم الضحايا الى آلهتهم ..

وكان الحرانيون جماعة مثقفة ورثت تراث اليونان والرومان واقوام ما بين النهرين ، وتاثرت خاصة بالافلاطونية الحديثة ، مما جعلهم صلة الوصل بين تمدن اليونان والسريان وشعوب الخلافة الاسلامية ، فنقلوا الى العربية علوم الاوائل ، واسهموا قسطا لا يستهان به في رفع بناء الحضارة الاسلامية (من اراد التوسع في دين الحرانين وعلاقاتهم بالصابئة المندائيين ، فليرجع الى كتاب خولسن عن الصابئين ، وابحاث الدكتور « ماسوح » بالفارسية في مجلة « فرهنك ايران زمين » المجلد الثامن سنة 1339 هجرية ، وبحثنا حول هذا الموضوع في مجلة كلية الاداب ، بجامعة طهران شتاء 1962) .

ثابت ومؤلفاته واكتشافاته

كان ثابت كثير الذكاء ، واسع المعرفة ، يتقن السريانية واليونانية والعربية ، متوفرا على علوم الاوائل ، لم يترك علما الا درسه وقرأ عنه وحقق فيه ، فكانت له ترجمات وتآليف ، واحيانا اكتشافات في شتى فنون المعرفة من دين وفلسفة وحساب وموسيقى وهندسة وفلك وطب ، مما يذهل الفكر ويدعو الى العجب . والناظر الى مصنفاته وتآليفه التي اثبتها القفطي ، نقلا عن اوراق بخط ابي علي المحسن بن ابراهيم بن هلال الصابي (✶) ، يقف مبهوتا امام كثرتها وتفرعها في شتى العلوم . فهي بمثابة دائرة معارف علمية :

في الترجمة والتلخيص والشروح والتنقيح

يقول القفطي (✶) في ثابت :

« واما ما نقله من لغة الى لغة فكثير » والواقع ان ثابت بن قرة كان بمثابة رئيس مدرسة للترجمة والاشراف على مترجمات سواه فقد نقل الى العربية كتبا لابلونيوس ، منها « رسالة في المخروطات » و « رسالة في الدوائر المتماسة » ، و « رسالة في قطع الخطوط » كما ترجم كتبا اخرى لاقليدوس وارخميدس واوطوقيوس وتيوذوسيوس وغيرهم . والجدير بالذكر ان بعض هذه الكتب وصلت الينا بترجمتها العربية فقط ، لان الاصل اليوناني طمسه يد الزمن او غاب عن ذاكرة الايام . ومن هذا القبيل مقالة اقليدوس الضائعة عن كيفية (انشاء المضلع السباعي) التي وصلت الينا عن طريق ترجمة ثابت لها وهي في رأي مؤرخ العلوم الشهير جورج سارتن قد تكون اقدم مقالة متقنة في هذا الموضوع (✶) .

اما من جهة الاشراف والتصحيح فقد ذكر ان ثابتا نظر في كتاب « الاصول » لاقليدوس الذي كان قد ترجمه حنين ابن اسحق ، فتناوله بالتصحيح والتنقيح والتوضيح (✶) ، كما انه صحح كتاب ارسطو في علم النبات وراجعه ، وكان اسحاق ابن حنين نقله الى العربية محتويا على مقالتين (✶) . وقد كان لهذا الكتاب تأثير مهم في العلوم العربية واللاتينية في القرون الوسطى ، ومنه نسخة مخطوطة في مكتبة « يني جامع » باسطنبول . ومما يذكر ان بعض الباحثين لسنين خلت عقدوا حوله الحديث والمباحث . ثم ان ثابتا اصلح كذلك ترجمة اسحاق بن حنين لكتاب المجسطي الى العربية اصلاحا قضى فيه حق من سأله ذلك واختصره اختصارا نافعا (✶) .

في الدين والفلسفة

لثابت تآليف دينية متعددة بالسريانية والعربية تتعلق بمذهب بني قومه من الصابئين الحرانيين من سنن ورسوم وفروض وصلوات واعتقادات ، وما يصلح من الحيوان للضحايا وما لا يصلح ، وكيفية تكفين الموتى ودفنهم ، الى ما هنالك من طقوس واصول (✶) .

ويبدو ان ثابتا كان شديد الشغف بالامور الفلسفية ، لان الوزير جمال الدين القفطي يكتب مقررا : « وكان الغالب عليه الفلسفة » (✶) وقد ذكر له القفطي كتبا الفها في امور فلسفية مثل مقالة « النظر في امر النفس » وكتابه « في الطريق الى اكتساب الفضيلة » (✶) غير ان القفطي وغيره لم يفصلوا

✶ اخبار 81

✶ اخبار 84

✶ تاريخ العلم الجزء الاول من الترجمة الفارسية ص 119

✶ وفيات الاعيان ، ج 1 ص 278

✶ العلم عند العرب ، بالفرنسية تأليف الدوميلي ص 86

✶ اخبار العلماء ، آخر الصفحة 38

✶ اخبار العلماء ، ص 84

✶ اخبار العلماء ص 81 وكذلك ابن جلجل في طبقات الاطباء ، القاهرة 1955 ـ ص 75

✶ اخبار ص 83

نظره الفلسفي ، ولا وصلنا عنه شيء في الفلسفة . ويجب الا ننسى هنا ما ذكرناه آنفا من ان ثابتا اضطر الى ترك بلده حران بسبب اجتهاداته الفلسفية في مذهب بني قومه .

في الحساب والموسيقى

اضاف المصنفون القدامى لقب « الحاسب » على اسم ثابت بن قرة (✶) ويفهم من ذلك انه كان قويا في علم الحساب . ويذكر المستشرق الايطالي الدوميلي في كتابه بالفرنسية عن العلم عند العرب ، ان ثابتا بحث في الاشكال الشلجمية واجاد في تحرياته (✶) ويذكر له ابن النديم كتاب رسالته في الاعداد (✶) .

اما في الموسيقى فان القفطي ينسب اليه مؤلفات متعددة منها كتاب في ابواب علم الموسيقى سأله فيه ابو الحسن علي ابن يحيى المنجم ، ومقالة في الموسيقى ، وكتابه في الموسيقى ويشتمل على نحو خمسمائة ورقة وكثير غيرها (✶) ولا غرو فان للموسيقى اتصالا وثيقا بالحساب ، مما لا يخفى على اهل النظر .

في الهندسة

يجب ذكر اسم ثابت في مقدمة العلماء الذين ساهموا في تقدم الهندسة بقسط وافر ، فيسروا ازدهار العلوم ، ودفعوا الحضارة الاسلامية في معارج التقدم والرقي .

ويذكر له ابن النديم والقفطي ، مؤلفات متعددة في هذا الموضوع منها :

- كتاب رسالته في استخراج المسائل الهندسية (✶) .
- كتابه في قطع المخروط المكافي .
- مقالته في الهندسة الفها لاسماعيل بن بلبل .
- كتابه في ان الخطين المستقيمين اذا خرجا على اقل من زاويتين قائمتين التقيا في جهة خروجهما .
- كتابه في المربع وقطره .
- كتابه في مساحة الاشكال المسطحة وسائر البسط والاشكال المجسمة .
- مقالة في تصحيح مسائل الجبر بالبراهين الهندسية(✶)
- كتابه في آلات الساعات التي تسمى رخامات (✶) ، وقد نشر المستشرق كارل كربرس سنة 1936 هذا الكتاب مع ترجمة له (✶)
- كتابه في اعتدال الاجسام والقوى المحركة ونظرية الميزان
- كتابه في اقامة خطوط الظل في الساعات الشمسية ، الذي ترجمه فيدمن وفرنك الى الالمانية ونشراه سنة 1922 (✶)
- مدخل الى كتاب اقليدوس (كتاب الاصول) وقد نعته ابن جلجل بانه « عجيب » (✶) .

في الفلك

لصابئة حران في علم النجوم تآليف واكتشافات مهمة وحسبهم فخرا ان البتاني محمد بن جابر هو منهم ، وفي ذلك يقول بروكلمن (✶) كان لاهل حران ميل شديد للرياضيات والنجوم ، لان لذلك ارتباطا وثيقا بمذهبهم .

ويقرر جرجي زيدان ان اساتذة العالم في علم النجوم هم الكلدان ، وهم الذين وضعوا اسسه ورفعوا اعمدته ، ساعدهم على ذلك صفاء سمائهم وجفاف هوائهم واستواء آفاقهم فرصدوا الكواكب وعينوا اماكنها ورسموا الابراج ومنازل القمر والشمس ، وحسبوا الخسوف والكسوف بآلات فلكية

✶ وفيات الاعيان ج 1 ص 278 (وتاريخ الاسلام للذهبي مجلده 15 232) .
✶ العلم عند العرب ، ص 86
✶ الفهرست 394
✶ اخبار ص 82 و 83 و 84
✶ الفهرست 394 واخبار 81
✶ اخبار العلماء ص 82 83 و 81 و 82
✶ اخبار 83
✶ اخبار 82
✶ العلم عند العرب ص 86
✶ طبقات الاطباء والعلماء ص 75
✶ تاريخ الادب العربي ج 1 ص 201

منذ بضعة واربعين قرنا ، وعنهم اخذ اليونان والهنود والمصريون وغيرهم من اهل التمدن القديم ٠٠(✱) ولكن يقال بالاجمال ان العرب مديونون بعلم النجوم للكلدان وهم يسمونهم الصابئة ـ والصابئة ان لم يكونوا الكلدان انفسهم فهم خلفاؤهم او تلامذتهم (مختصر الدول 266) وكان الصابئة كثيرين في بلاد العرب ولهم مثل منزلة النصارى او اليهود فاخذ العرب عنهم علم النجوم باصطلاحاته ، واسمائه وان كان معظم اسماء السيارات لا يرد الى اصله الكلداني فربما كان له اسماء عارضة ضاعت اخبارها ٠ على ان بعضها لا يزال اصله الكلداني ظاهرا فيه ، كالمريخ ، مثلا فانها تقابل « مرداخ » الكلدانية لفظا ومعنى ٠٠ اما الابراج ومنازل القمر فلا تزال كما كانت عند الكلدان لفظا ومعنى ٠ واليك اسماء الابراج عند كليهما : الثور (تورا) ، الجوزاء او التوأمين (تامي) ، السرطان « سرطان » ، السنبلة (شبلتا) ، العقرب (عقربا) ، والجدي (كديا) ٠٠ (✱)

فليس بدعا اذا ان يكون لثابت بن قرة كغيره من صابئة حران آثار باقية في علم النجوم ٠ ومن كتبه :

ـ كتابه فيما يظهر في القمر من آثار الكسوف وعلاماته

ـ كتاب في علة كسوف الشمس والقمر ، عمل اكثره ومات ، وهو من كتبه الموصوفة ٠

ـ كتابه في ابطاء الحركة في فلك البروج وسرعتها وتوسطها ، بحسب الموضوع الذي يكون فيه من الفلك الخارج المركز (✱) ٠

ـ كتابه فيما اغفله ثاون في حساب كسوف الشمس والقمر ٠

ـ عدة كتب له في الارصاد ، عربي وسرياني (✱)
ـ كتاب رسالته في سنة الشمس ٠
ـ كتاب حساب الاهلة (✱) ٠

غير ان دور ثابت المهم في علم الفلك يقوم على ترويجه نظرية نوسان الاعتدالين التي تخالف النظرية السابقة في مبادرة الاعتدالين ٠٠

ونظرية النوسان هذه تقول بان ثمة تذبذبا « دورانيا » يحصل في الحركة التقهقرية لنقطة الاعتدال (نقطة الاعتدال الربيعي والخريفي هما نقطتا تقاطع فلك الابراج وخط الاستواء السماوي ، تعبر الشمس اولى النقطتين في بدء الربيع والثانية في بدء الخريف فيعتدل اذ ذاك الليل والنهار في جميع الاقطار)

اما نظرية مبادرة الاعتدالين فهي تقدم اوان الاعتدالين عشرين دقيقة في السنة بسبب تحول نقطتي الاعتدال خمسين ثانية على فلك البروج ٠ ومفاد ذلك ان « هيبارخوس » المتولد في نيقيا من الاناضول في القرن الثاني قبل الميلاد) كما يروي بطليموس (المتوفى سنة 167 قبل الميلاد قرب الاسكندرية) ، عندما قابل ارصاده مع الارصاد التي اجريت قبله بقرن في الاسكندرية على يد اريستولوس وتيموخاريس (القرن الثالث قبل الميلاد) تبين له ان النجوم انحازت قليلا لجهة المشرق وبهذا اكتشف تقدم الاعتدالين(✱)

واما واضع نظرية نوسان الاعتدالين فهو ثيون الاسكندري « اواخر القرن الرابع قبل الميلاد » وعلى الرغم من انها نظرية خاطئة فقد تقبلها اناس كثيرون ومع انها تناقض نظرية تقدم الاعتدالين التي قال بها هيبارخوس وفسرها بطليموس ، فان بعض الفلكيين حاولوا التوفيق بين النظريتين ٠ وقد تقبل نظرية نوسان الاعتدالين المنجم الهندي آريابهاطا « اواخر القرن الخامس » الذي يمكن اعتباره حلقة الاتصال بين ثيون وبروكلوس من جهة وبين ثابت بن قرة (اواخر القرن التاسع اول كاتب في العهد الاسلامي تعرض لهذا البحث ، من جهة اخرى (✱) ٠

في الطب والصيدلة

كان ثابت طبيبا ماهرا برع في الطب وطارت له في هذا العلم شهرة واسعة الافياء ، وله فيه نوادر رواها المصنفون كالقفطي وغيره ٠

✱ تاريخ التمدن الاسلامي 3 ص 11
✱ الفهرست 394
✱ اخبار ص 82
✱ اخبار ص 83
✱ الفهرست 394 ـ واخبار 82
✱ جورج سارتن : تاريخ العلم ، الترجمة الفارسية ج 1 ص 476 و477 ٠
✱ تاريخ العلم ج 1 ص 478

وقد ترك ثابت مؤلفات متعددة في هذا العلم ، ننقل بعض اسمائها عن ابن النديم والقفطي ، لتبيان المواضيع المختلفة التي خاضها عالمنا الفذ :

— كتاب رسالته في الحصى المتولد في المثانة ، وقد سماه القفطي كتابه في اوجاع الكلى والمثانة واوجاع الحصى (★) .

— كتابه في وجع المفاصل والنقرس ، مقالة (★) .
— كتاب رسالته في البياض الذي يظهر في البدن (★) .
— كتاب جوامعه لكتاب جالينوس في الادوية المفردة (★)
— كتاب رسالته في الجدري والحصبة (★) .

— كتابه في السكون بين حركتي الشريان (★) مقالتان ، صنف هذا الكتاب سريانيا لانه اوما فيه الى الرد على الكندي ، ونقله الى العربي تلميذ له يعرف بعيسى بن اسير النصراني .

— كتابه في صفة كون الجنين .
— كتابه في المولدين لسبعة اشهر
— كتاب في تشريح بعض الطيور واظنه مالك الحزين
— كتابه في الصفار واصنافه وعلاجه .
— كتابه في اجناس ما تنقسم اليه الادوية .
— كتابه في اجناس ما توزن به الادوية (★) .

— كتاب الذخيرة في علم الطب (★) واكثره في المعالجة .

هذا الكتاب الذي الفه لابنه سنان طبعه في القاهرة ج . صبحي سنة 1928 ، وكتب تحليلا له في مجلة ايزيس ماكس ما يرهوف في مجموعة سنة 1930 ومنه نسخة خطية في مكتبة مالك بطهران تحت الرقم 4543 يعود تاريخها الى القرن العاشر . وهذا الكتاب من نوع الكناشات او الكناش ، لفظة سريانية ، عربيها « الحاوي » .

اما مهارة ثابت في فن التطبيب والمعالجة فشاهدها هذه الرواية التي نقلها القفطي في كتابه ، قال القفطي (★) .

وحكى ابو الحسن بن سنان قال :

يحكي احد اجدادي عن جدنا ثابت بن قرة انه اجتاز يوما ماضيا الى دار الخليفة ، فسمع صياحا وعويلا ، فقال مات القصاب الذي كان في هذا الدكان؟ فقالوا له اي والله يا سيدنا ، البارحة فجأة . فقال ما مات خذوا بنا اليه ، فعدل الناس معه ، وحملوه الى دار القصاب . فتقدم الى النساء بالامساك عن اللطم والصياح ، وامرهن بان يعملن مزورة (★) واوما الى بعض غلمانه بان يضرب القصاب على كعبه بالعصا ، وجعل يده في مجسه ، وما زال ذلك يضرب كعبه الى ان قال حسبك ، واستدعى قدحا واخرج من شستكة في كمه دواء ، فداقه في القدح بقليل من الماء وفتح فم القصاب وسقاه اياه ، فأساغه ووقعت الصيحة والزعقة في الدار والشارع بان الطبيب قد احيا الميت . فتقدم ثابت بغلق الباب ، وفتح القصاب عينيه ، واطعمه مزورة واجلسه وقعد عنده ساعة . فاذا باصحاب الخليفة قد جاءوا يدعونه ، فخرج معهم والدنيا قد انقلبت ، والعامة حوله يتعادون الى ان دخل دار الخلافة . ولما مثل بين يدي الخليفة قال له : يا ثابت ! ما هذه المسيحية التي بلغتنا عنك ؟ قال : يا مولاي كنت اجتاز هذا القصاب والحظه يشرح الكبد ويطرح عليها الملح ويأكلها ، فكنت استقذر فعله هذا اولا ، ثم قدرت ان سكتة ستلحقه ، فصرت اراعيه ، ولما علمت عاقبته انصرفت وركبت للسكتة دواء استصحبته معي في كل يوم فلما اجتزت اليوم وسمعت الصياح قلت مات القصاب ، فقالوا نعم . مات فجأة البارحة ، فعلمت ان السكتة قد لحقته . فدخلت اليه ولم اجد نبضا ، فضربت كعبه الى ان عادت حركة نبضه ، وسقيته الدواء ففتح عينيه ، واطعمته مزورة ، والليلة يأكل رغيفا مدراج وفي غد يخرج من بيته .

وقد شهد لثابت ببراعته في صناعة الطب جميع المصنفين الذين ذكروا اسمه ومما جاء في تاريخ الاسلام للذهبي (★) قوله : « لم يكن في زمان ثابت بن قرة الحكيم من يماثله في الطب ولا في جميع انواع الفلسفة .

كما ان الشاعر المعروف السري الرفاء مدح ثابت بمهارته في التطبيب بعد ان شفاه من مرض كاد يؤدي به ، قال :

★ الفهرست 394 — واخبار 83
★ الفهرست 394
★ اخبار 81
★ اخبار 83
★ اخبار 84
★ اخبار 84
★ مزورة ، بوزن المفعول ، مرقة يطعمها المريض ، مولدة وقال الفقهاء في الايمان هي ما يطبخ خاليا من الادهان (خفاجي : شفاء الغليل ، مصر 1952 ص 241)

هل للعليل سوى ابن قرة شافي
بعد الاله ، وهل له من كافي ؟

احيا لنا رسم الفلاسفة الذي
اودى واوضح رسم طب عافي

فكأنه عيسى بن مريم ناطقا
يهب الحياة بايسر الاوصاف !

مثلت له قارورتي فرأى بها
ما اكتن بين جوانحي وشغافي

يبدو له الداء الخفي كما بدا
للعين رضراض الغدير الصافي

وفي وفيات الاعيان (*) يزعم ابن خلكان ان السري الرفاء قال هذه الابيات في ابراهيم بن ثابت لا في والده ، كما يشير الى ان بعضهم زعم انه قالهافي ثابت بن سنان ثابت. غير اننا نستبعد ذلك لان هذين الاخيرين لم يعرف عنهما انهما اشتغلا بالفلسفة ، والبيت الثاني من مقطوعة السري الرفاء مدح بالبراعة في الطب والبراعة في الفلسفة ، وقد مر بنا ان ثابتا عرف باشتغاله بالفلسفة ، وكانت غالبة عليه ، كما يقول القفطي وابن خلكان نفسه .

هذا هو ثابت بن قرة مترجما ، وشارحا ، ومؤلفا في الدين والفلسفة والموسيقى ، وحاسبا ومهندسا وعالما فلكيا ، وطبيبا صيدليا . والحقيقة ان سعة علمه ، وعمق معرفته بشتى العلوم والفنون تحير الناظر في ذلك ، فضلا عن ان المصنفين القدامى جميعا شهدوا له بالبراعة والتفوق في تلك الفنون التي خاضها .

وقد كان لثابت اثر مشكور في كل ذلك : ان في التأليف والممارسة ، او في التلامذة الذين اخذوا عنه واشرف على تنشئتهم . واشهرهم عيسى بن اسيد النصراني العراقي الذي كان بارعا في النقل من السريانية الى العربية (*) .

وحسنا دليلا على وفور علمه وتجليل اولي الامر له ما ذكره البيهقي في « تتمة صوان الحكمة » ننهي به ما ليس له نهاية من حديثنا على ذلك النابغة الفذ الذي تفرعت منه دوحة عظيمة كثيرة الفروع ، يأتي في طليعة فروعها ابناء : ابراهيم الطبيب ، وسنان الرياضي والطبيب ، وابو الحسن بن سنان ابن ثابت الطبيب ، وابراهيم بن سنان المهندس، وابو الفرج ابن ابي الحسن بن سنان الطبيب ، وابو الحسن بن ابي الفرج ابن ابي الحسن بن سنان الطبيب وغيرهم .

قال البيهقي (*) : وكان المعتضد يكرمه ، ومن اكرامه له ان المعتضد طاف معه في بستان له ويده على يد ثابت فانتزع بغتة يده من يد ثابت ، ففزع من ذلك ثابت فقال له المعتضد : يا ثابت ! اخطأت حين وضعت يدي على يدك وسهوت ، فان العلم يعلو ولا يعلى . فهذه غاية اكرامه في بابه ..

فيكتور الكك ـ نزيل طهران

(*) تتمة الصوان ص 6 و 7 .

(*) اخبار 164 ـ والفهرست 394 .



أبو العباس التيفاشي

للأستاذ: عبد القادر زمامة

عندما يسكت المؤرخون ولا سيما كتاب الطبقات منهم عن علم من اعلام الفكر او رائد من رواد المعرفة ، فان سكوتهم هذا لا يعني شيئا في حقيقة الواقع ، وان كان في بعض الاحيان ستارا كثيفا لابد للباحث من اشعة كاشفة قوية المفعول لتمزيقه ..

وتاريخ الفكر والحضارة في الاسلام يشتمل على سلسلة طويلة ذات حلقات من الرواد والاعلام ، ولكن الباحث المتعمق الذي يريد الربط المحكم بين هذه الحلقات يجد نفسه احيانا امام فراغ واسع بين حلقة واخرى في سلسلتي الحضارة والفكر

وليس لذلك من سبب سوى ان العناية كانت اولا وبالذات متجهة الى تدوين تاريخ الدول والملوك واهل الحظوة والوجاهة حتى اذا اتسعت الآفاق امام المدونين تناولوا طبقات اهل المذاهب والرواة والحفاظ والنحاة والشعراء والقضاة

على ان العناية كانت تلحق احيانا الحكماء والاطباء والفلكيين وبعض رجال الفنون الاخرى .. فنجد من كتب في طبقاتهم وتراجمهم ، لكن الشفوف والاعتبار كانا على الدوام في الجانب الآخر ..

والسعيد المحظوظ من الاطباء والصيدليين والمهندسين والفلكيين والجوهريين والرحالين والجغرافيين .. هو الذي استطاع ان يكون الى جانب مهارته في هذه الفنون قد عرف بالفقه او الحديث او اللغة او الشعر ليتخذ كتاب الطبقات ذلك ذريعة لحشره في زمرة الفقهاء او المحدثين او اهل اللغة او الشعراء ..!

وابو العباس احمد بن يوسف التيفاشي الذي نحاول الحديث عنه اليوم ، مع كتابه القيم « ازهار الافكار في جواهر الاحجار » اصدق من يمثل هذه الظاهرة التي اشرنا اليها آنفا

فالذي بين ايدينا من آثار هذا الرجل يدل دلالة واضحة على انه كان علما من الاعلام ورائدا من الرواد الذين ضربوا بسهم رابح في المعرفة التي جمعها صاحب « هدية العارفين » لمؤلفات التيفاشي (*) تدلنا على ان صاحبها كان موسوعي الثقافة حاول ان يقدم في عصره للباحثين دائرة معارف اسلامية تتناول عدة موضوعات لا تتيسر معرفتها الا لذوي الاختصاص المتوفرين على خبرة واسعة بعد علوم وفنون ..

ولكن ذلك كله لم يكن ليشفع لصاحبنا فيحتل مكانة مرموقة في كتاب من كتب الطبقات التي بين ايدينا ..! فقد سكتت عنه سكوتا غريبا وتجاهلت وجوده حتى خيل لبعضهم انه نكرة في النكرات ..!

ولولا ان تداركته عناية الله فانتسب في عصره الى زمرة القضاة على المذهب المالكي لما حظي بهذه السطور التي جاد بها عليه ابن فرحون في كتابه :

« الديباج المذهب في اعيان علماء المذهب » (*)

فبهذه الصفة وحدها نال عن ابن فرحون لقبين كبيرين هما : امام وعلامة ..!

ثم زاد فتكرم عليه بهذه العبارات :

« واشتغل بالادب وعلوم الاوائل .. وكان فاضلا بارعا .. » له شعر حسن ونثر جيد .. ومصنفات عديدة في فنون .. »

(*) هدية العارفين ج 1 ص 94

(*) انظر طبعة القاهرة ص 74 ـ 75 .

اما المراجع الاخرى – فيما نعلم – فقد وسعها مـا وسع معاصريه فلم ينل منها الا اشارات عابرة لا تطفيء غلة ولا تروي ظما" .. وبهذا تظل ترجمة ابن فرحون التي بين ايدينا فريدة ..! واصلا .. لمن يحاول الكتابة عن التيفاشي من الباحثين .

والمتتبع لكتاب « كشف الظنون » يجد صاحبه يذكر مؤلفات التيفاشي ويذكر وفاته سنة 651 هـ ثم ينسبه تارة الى القاهرة فيقول : القاهري .. وتارة الى قفصة فيقول : القفصي .. وتارة الى تيفاش التي اشتهر بالنسبة اليها فلا يزيد على .. التيفاشي وهكذا .

وجاء صاحب معجم هدية العارفين فجمع قائمة كتب التيفاشي من كشف الظنون وقال في ترجمته :

« القاضي ابو العباس احمد بن يوسف التيفاشي القفصي الطبيب الاديب المتوفى سنة 651 هـ الخ (✶)

وقد اطلعت اخيرا على اثرين مخطوطين من آثار التيفاشي وهما :

1) كتاب نزهة الالباب فيما لا يوجد في كتاب

2) كتاب ازهار الافكار في جواهر الاحجار .

وموضوع الكتاب الاول وصف الحياة الجنسية في محاسنها ومباذلها وصفا مدققا . وشرح نعوت واوصاف اهل العفة والطهارة .. واصحاب الرذيلة والفاحشة والشذوذ مما يعد من اغرب الغرائب ..! في تصوير المجتمع الاسلامي اذ ذاك ..

والكتاب بخط شرقي في المكتبة العامة بالرباط (✶) دخل اليها اخيرا .

اما موضوع الكتاب الثاني فهو وصف الاحجار الكريمة المعدنية منها والحيوانية وصفا مدققا يدل على ان المؤلف كان من مهرة الجوهريين وذوي الخبرة الواسعة والتجربة الطويلة في هذا الميدان .

وهذا الموضوع جدير منا بكل دراسة وبحث لاسيما وهو طريقنا الى معرفة جانب كبير من الحضارة الاسلامية وهو الجانب الذي يتناول رصيد اهل اليسار واهل السلطة من الثروة التي كانت اذ ذاك لا تعدو نفائس الاحجار مع الذهب والفضة ..

كما ان دراسة هذا الموضوع تطلعنا على عدد كبير من الالفاظ العلمية والاصطلاحات الفنية التي كانت متداولة في تلك العصور .. وذلك يؤدي الى تسهيل مهمة الهيئات والمجامع المهتمة بتعريب المصطلحات العلمية عن لغات اخرى .

لهذا ارتأيت ان اتحدث عن كتاب « ازهار الافكار » مع الالمام بالتعريف بصاحبه ابي العباس التيفاشي ومحاولة اثارة البحث عن شخصيته وآثاره .. ولعل في ذلك فائدة ان شاء الله .

ترجمة التيفاشي

هو ابو العباس ، وابو الفضل احمد بن يوسف بن احمد ابن ابي بكر بن حمدون بن حجاج بن ميمون بن سليمان بن سعد القيسي . ولاشك ان هذا النسب الطويل مع النسبة الى قيس يدلنا على ان صاحبنا كان من عائلة ذات جاه وحسب ونسب شأن العائلات التي اشتهرت بالعلم والقضاء .

ويذكر المؤرخون ان الخليفة عبد المومن الموحدي لما دخل افريقية عام الاخماس 555 هـ مدحه الفقيه محمد بن ابي العباس التيفاشي بقصيدة كان مطلعها :

ما هز عطفيه بين البيض والاسل

مثل الخليفة عبد المومن بن علي

فامره الخليفة بالاقتصار على المطلع لان فيه كل شيء..!

فصاحب القصيدة هو عم والد صاحبنا كما يظهر من سلسلة النسب التي قدمنا .

وتيفاش التي تنسب اليها العائلة يقول عنها ياقوت(✶) «مدينة ازلية بافريقية شامخة البناء ، تسمى تيفاش الظالمة ذات عيون ومزارع كثيرة وهي في سفح جبل » .

ولد سنة 580 هـ – يقول ابن فرحون – بتيفاش .. ويظهر ان اسرته انتقلت الى قفصة واستقرت بها ولذلك صارت تنسب اليها . ولا نستطيع ان نعرف عن نشأته وتربيته الاولى شيئا سوى اننا نعلم انه طلب العلم بقفصة وانتقل منها الى تونس ثم الى القاهرة وهو صغير السن كما يقول ابن فرحون .. فاخذ العلم عن الطبيب الشهير عبد اللطيف البغدادي .. ثم انتقل الى دمشق فاخذ عن تاج الدين الكندي .. ورجع الى وطنه ليتولى منصب القضاء في مدينته قفصة .

✶ ج 1 ص 94

✶ تحت عدد ك1533

✶ الاستقصا ج 2 ص 145

✶ المعجم ج 2 ص 66 وهي في هذا العصر من عمالة قسنطينة بالجزائر ، وذكرها ابن حوقل في كتابه .

ويظهر ان ميل صاحبنا كان متجها الى دراسة ما نسميه اليوم ـ العلوم ـ فطلب في بلاده وفي غيرها هذه ـ العلوم ـ واخذ يستقصي فيها البحث والاطلاع والتجربة والتطبيق ..

ولكن صاحب هذه ـ العلوم ـ في تلك العصور كان لابد ان ياخذ بنصيب وافر من الثقافة الدينية والادبية ليكون في صف رجال العلم . ولينال حظه من الاعتبار .. وكذلك فعل التيفاشي . وكذلك فعل غيره من رجال الطب والصيدلة ، والفيزياء والكيمياء ..

ويترك منصب القضاء في قفصة ليلتحق مرة ثانية بالشرق فيطوف فيه ويزور امصاره الكبرى في فارس ، وارمينية والعراق والشام وهو لا ينفك يبحث عن الاحجار الكريمة ويقتني ويجرب ويدرس ويتصل باهل الفن . وقد اشار في مخطوطه الذي بين ايدينا الى كثير من هذه الرحلات التي قام بها ودون بعض مشاهداته ومعلوماته واتصالاته في مخطوطه المذكور . تارة بالتفصيل واخرى بالايجاز ..

واخيرا يتخذ القاهرة وطنا وبها الف كتابه « ازهار الافكار في جواهر الاحجار » في تمام سنة 640 هـ كما يقول في الباب الرابع عند كلامه على الزبرجد ..

وفي القاهرة اتصل بالمؤرخ الاندلسي الرحالة ابي الحسن علي بن موسى بن سعيد (610 هـ ـ 685 هـ) اتصال مودة واخاء وانتفاع . وقد اشار الى ذلك ابن سعيد نفسه في كتابه ـ اختصار القدح المعلى ـ عند ترجمته لابن الحجاج يوسف بن عتبة الاشبيلي (✱) ومن كلام ابن سعيد نستفيد ان التيفاشي كان بالقاهرة قبل سنة 636هـ .. وهي السنة التي توفي فيها ابن عتبة .. ويمدح ابو العباس التيفاشي ابن سعيد ويعجب اعجابا كبيرا بكتاب ـ المغرب ـ فيقرظه بقطعة شعرية احتفظ لنا بها ابو العباس المقري في نفح الطيب (✱) كما احتفظ لنا المقري بما وجد مكتوبا على آخر جزء من كتاب المغرب من اجازة ابن سعيد للتيفاشي . حيث يحليه بهذه الحلية :
ـ اجزت الشيخ القاضي الاجل ابا الفضل احمد بن الشيخ القاضي ابي يعقوب التيفاشي ـ (✱)

ويروي ابن سعيد عن صديقه التيفاشي مرتين في كتابه الغصون اليانعة من محاسن شعراء المائة السابعة ويستعمل كلمة غريبة في حقه وهي :

« وكان الفضل التيفاشي يذكر هذا الرجل ـ الشاعر النافري ـ ويزعم انه استفاد من تصانيفه في ضروب الفلسفة (✱) »

فكلمة ـ يزعم ـ من ابن سعيد هنا في حق التيفاشي لها اعتبارها الخاص .. ولعل الفرق بين الاتجاهين والمزاجين العلمي عند التيفاشي ، والادبي عند ابن سعيد ، هو الباعث عليها ..

ولا ادع الحديث عن علاقة صاحبنا بابن سعيد دون ان اشير الى ان الدكتور شوقي ضيف كتب ترجمة لابن سعيد في مقدمة تحقيقه لكتاب ـ المغرب ـ قال فيها :

« ويرجع من حجه ـ ابن سعيد ـ الى تونس سنة 652 هـ وينزل عند صديقه ابي العباس التيفاشي (✱) » .

ولم يذكر الدكتور مصدره في ذلك .. والمعروف ان التيفاشي توفي بالقاهرة سنة 651هـ كما في ترجمته عند ابن فرحون .. فكيف ينزل عليه ابن سعيد في تونس سنة 652هـ..؛

وفي القاهرة ايضا اتصل صاحبنا بوالد ابن منظور صاحب (لسان العرب) الشيخ جلال الدين الخزرجي الافريقي وقد حدثنا عن هذا الاتصال ودونه صاحب لسان العرب في مقدمة كتابه القيم ـ نثار الازهار ـ المطبوع بالقسطنطينية سنة 1298 هـ (✱) الذي هو في الحقيقة اختصار وتهذيب لاحد كتب التيفاشي المسمى ـ فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لاولي الالباب ـ المشتمل على نحو 40 جزءا .

يقول ابن منظور في مقدمة « نثار الازهار » :

ورأيت الشيخ شرف الدين احمد بن يوسف التيفاشي العبسي (✱) في جملتهم « اصدقاء ابيه » وانا في سن الطفولة لا ادري ما يقولون ولا اشاركهم فيما يقولونه غير انني كنت اسمعه يذكر للوالد كتابا صنفه افنى فيه عمره ، واستغرق دهره وانه سماه « فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لاولي الالباب » .

ثم يمضي ابن منظور في حديثه الطويل عن ابي العباس التيفاشي باعتباره صديقا من اصدقاء والده ، ومؤلفا

✱ اختصار القدح المعلى : بتحقيق ابرهم الابياري القاهرة 1959 ص 163 ـ 164 .
✱ انظر ج الاول ط الازهرية ص 480 .
✱ ج 1 ص 483
✱ انظر ص 59 من الغصون اليانعة
✱ انظر مقدمة المغرب ص 7
✱ انظر مقدمة الكتاب
✱ تصحيف صواب القيسي .

لموسوعة كبرى يريد اختصارها وتهذيبها في كتابه نثار الازهار ..

وقد اتصل صاحبنا بعدد من رجال العلم والادب والسياسة في عصر هو النصف الاول من القرن السابع الذي كان الشرق فيه زاخرا بعدة شخصيات وثقافات واتجاهات عرف التيفاشي كيف يستفيد منها ويدون مؤلفاته العظمى التي ضاع مع الاسف الشديد جلها ولم يبق منها بين ايدينا الا نتفا مبعثرة هنا وهناك .. اجلها واهمها هذا المخطط من كتاب :

ازهار الافكار في جواهر الاحجار الذي سنلقي عليه بعض النظرات كما ارسلنا بعض الاشعة على مؤلفه فيما قدمناه من سطور ..

أزهار الافكار فى جواهر الاحجار

يقول مؤلفه في مقدمته :

« هذا كتاب غريب الوضع .. عجيب الجمع عظيم النفع . ضمنته في (كذا) ذكر الاحجار الملوكية التي توجد في خزائن الملوك وذخائرهم . وفي ذخائر الرؤساء والوزراء مما لا يستغني عن اقتنائه ملك كبير ولا وزير خطير، لما يشتمل عليه من عظيم منافع وعجائب الخواص ولم اشرك بها شيئا من الاحجار المتداولة في ايد العوام العارية عن الخواص الجسام والمنافع العظام » .

ويذكر محتويات الكتاب وهي :

الباب الاول في الجوهر ومعادنه

الباب الثاني في الياقوت

الباب الثالث في الزمرد

الباب الرابع في الزبرجد

الباب الخامس في البلخش

الباب السادس في البنفسج

الباب السابع في البجادي

الباب الثامن في الالماس

الباب التاسع في عين الهر

الباب العاشر في البازهر

الباب الحادي عشر في الفيروزج

الباب الثاني عشر في العقيق

الباب الثالث عشر في الجزع

الباب الرابع عشر في المغناطيس

الباب الخامس عشر في السباذج

الباب السادس عشر في الدهنج .

الباب السابع عشر في اللازورد

الباب الثامن عشر في المرجان

الباب التاسع عشر في السبج

الباب العشرون في الجمست

الباب الحادي والعشرون في الجماهان

الباب الثاني والعشرون في اليشم .

الباب الثالث والعشرون في اليشب

الباب الرابع والعشرون في البلور

الباب الخامس والعشرون في الطلق .

هذه الموضوعات التي شغل المؤلف نفسه بالبحث فيها واما منهاجه في البحث فقد تناوله في هذه الكلمات :

« وسبيلنا ان نتكلم على كل واحد من هذه الاحجار المعدودة من خمسة وجوه :

- تكونه في معدنه
- ذكر معدنه الذي يتكون فيه
- جيده ورديئه وخالصه ومغشوشه
- خواصه ومنافعه
- ذكر قيمته وثمنه في اوسط الامور واغلب الاحوال »

والمؤلف في كتابه هذا لا يكتفي بالدراسة التقريرية المبنية على سرد الحقائق جزافا . ولكنه يعمد الى الدراسة التجريبية فيجرب بنفسه ويقيس ويستنبط ويقارن ويذكر الفروق الدقيقة بين جوهر وآخر في اللون والحجم والميوعة والجمود والصفاء والكدرة ، والخفة والثقل وقابلية الانصهار وعدمها .. ومن اجل ذلك طاف في العواصم والجبال والصحارى ودخل الاسواق وخالط اهل الصناعات .. وصنع بيده اواني وادوات من معادن شتى .. كل ذلك يدونه ويتحدث عنه حديث المطمئن الى مقدرته ومهارته ..

وقد حدثنا عن اللازورد وامتحانه وطريقة هذا الامتحان ثم قال في ختام كلامه :

« ولم انقله من كتاب بل هو من جملة ما وقفت عليه بالتجربة من صحيح كتبنا في الاعمال الصناعية »

ويصف الزمرد وانواعه فيقول :

« واصناف الزمرد اربعة : الذبابي والريحاني والسلقي والصابوني . فالذبابي اخضر — مغلوق — اللون جدا ، لا يشبه خضرته شيء اخضر من الالوان كلها . حسن الصبغ جيد المائية . وانما قيل له الذبابي لشبه لونه بالخضرة التي تكون في الكبار من الذباب الربعي الموجود في البساتين . لا في صغاره الموجودة في البيوت . وهو احسن ما يكون من الخضرة بصيص ..

« واما بقية الاصناف المذكورة من الزمرد غير الذبابي فانها نازلة مقصرة عن جميع الخواص الموجودة في الذبابي كالريحاني فانه ـ مفتوح ـ اللون كلون ورق الريحان ودونه السلقي كلون السلق ، ودونه الصابوني كلون الصابون ولا قيمة له يعتد بها ، واحسن اصنافه الذي يقرب الى البياض مع كمدة ، ويسمى ـ العربي وهو موجود في برية العرب في ارض الحجاز .. » .

هكذا يتتبع المؤلف مادته العلمية بالدرس والوصف والايضاح . ويعطي الاوصاف الدقيقة لكل حجر او معدن وذلك يدلنا على ان الرجل كان متمكنا من مادته عارفا باسرارها سالكا بها طريق الايضاح والبيان .

« ومما جربته واختبرته ووقفت عليه بالعمل ان حماض الاترج يحل الجوهر الا انه يحله خاثرا .. »

ويقول عن قطعة من الزمرد حدثه عنها امين السلطان قائلا : « واشتريت بقوص زمن الملك الكامل قدس الله روحه من رجل من التجار قصبة زمرد وجدها في المعدن المباح لبلده من نوع الزمرد الريحاني وكان وزنها اثنى عشر مثقالا

قال : وقد كنت اشتريتها من التجار غير مهذبة باربعة وثلاثين درهما وحملتها الى الملك الكامل وهو بدمشق وقومت بدمشق بثلاثين الف درهم نقرة !!»

فهو اختصاصي في الجواهر لا يفتأ يحدثك عن اتصالاته برجال يهمه ما يهمهم ، ويخبرك عما استفاده من خبرة وعلم بالموضوع الذي انقطع اليه وعاش من اجله ، واذ نقل من كتاب فهو لا ينقل الا من كتب علمية يونانية مترجمة او عربية موضوعة الفها اساطين هذا الفن في عصره او قبله بقليل .

فينقل عن ابن الجزار وارسطو والفارابي وغيرهم ولكنه يناقش الجميع وياخذ نتائجه من معلوماته وتجاربه الخاصة به.

وفي الكتاب طائفة من المشاهدات التي تثير اعجابنا بمظاهر الحضارة في ذلك العصر .. منها :

« ورأيت عند بعض ملوك افريقية صورة ديك من البلور اهداه اليه بعض الافرنجة . يحمل اربعة ارطال شرابا لا يخل من صورة الديك . ولا يخرم بشيء . حتى اظفاره . وجميعه مجوف . وشاهدت الشراب اذا صب فيه ويدخل في اظفار الصورة . واجتمع في عنق هذه الصورة وسخ . فطلب من يزيله فلم يقدر عليه للخطر المركب في ازالته . فطلب احد الخراطين فطلب خمسين دينارا معدنية على ازالته . والتزم دركه فتلطف به واحسن اليه حتى رضي . واخذه . وازال ما كان في عنقه بحيث لم يطلع عليه احد . واخرجه كانه لم يكن به شيء»

« واخبرني بعض اهل غزنة انه رأى في قصر ملكها شهاب الدين الغزنوي اربع خواب للماء كل خابية تحمل راويتين من الماء من روايا البغال . والخوابي ومحاملها من البلور . والآنية التي تحمل رطلا اذا كانت صافية سالمة من التشعب تساوي ثلاثة دنانير مصرية او نحو ذلك » .

وعند حديثه عن البلور قال :

« وقد ظهر بهذا التاريخ (640 هـ) معدن بالمغرب الاقصى بمدينة مراكش حاضرة المغرب . نقي اللون . الا ان فيه تشعثا . وكثر عندهم حتى فرش منه ملك المغرب مجلسا كبيرا ..! »

هذه نظرات في مخطوط « ازهار الافكار » لعلها تدلنا ـ ان كنا في حاجة الى دليل ـ على هذا التراث العلمي الذي اشترك في تكوينه رجال واجيال ..

وقد قيل ـ واظن ما زال يقال ـ ان ثقافة العرب وعلوم العرب كانت ـ ادبية ـ لا تعرف مجالا غير مجال النظم والنثر ولا تعنى بالدراسات التجريبية والعلمية . ومن هنا وقع اهمال واغفال الناحية ـ العلمية ـ من الحضارة العربية في جهل مرة .. وعن تجاهل مرارا ..!

لكن هذا الجهل . وذلك التجاهل ليسا الا بضاعة رخيصة عند بعض الذين يكلفون نفوسهم عناء البحث في مثل هذه الموضوعات .

واخيرا اشير الى ان كتاب « ازهار الافكار » قد عرف في دائرة المستشرقين منذ اكثر من قرن ونصف فطبعه المستشرق الايطالي الكونت انطونيو ريزي بشيا في ايطالية سنة 1818 م ، ثم اعيد طبعه مع ترجمته الايطالية سنة 1906 م وقد كان المستشرق الهولاندي S. F. Rau (راو) اول من طبعه في مدينة (اوتراخت) بهولندا سنة 1784 م مع ترجمة لاتينية .

وكلتا الطبعتين الان اندر من المخطوط فعسى ان تتاح لهذا الكتاب طبعة عربية متقنة كاملة معتمدة على اصوله الصحيحة .

فاس : عبد القادر زمامة



الصراع بين الشرق والغرب ــ انقلاب الاوضاع السياسية فى العالم ــ أثــر الثورات الكبرى العقائدية فى القضاء على الاستعمار ــ خروج المارد من القمقم .

الصراع بين الشرق والغرب .

حفل التاريخ بانباء صراع قار نشب بين الشرق والغرب ، ولاسيما بين آسيا واوربا ، وكان سجالا . وعلى رواية تيبور منده Tibor Mende: La révolte de l'Asie في كتابه ثورة آسيا (ص 161) ، فان هذا الصراع لم يحمل هيرودوت على الوقوف امامه متأملا فحسب ، بل كان حافزا له لان يتخذ منه موضوعا جوهريا . والحرب ترجع اسبابها الاساسية في التاريخ ، قديما كان ام حديثا ، الى الشؤون الاقتصادية ، والمعاش ، ولكن عناصر اخرى قد ترافق هذه الاسباب وتبدو وكأنها مصدر تلك الحروب . ففي العصور الغابرة كان يعزى الصراع بين الشرق والغرب الى نزعات عسكرية هدفها المفاخرة بالمزيد من اتساع الملك . وفي القرون الوسطى اتسم الصراع بميسم العقيدة ، وكان مداره نشر الدين فيما وراء وطنه والانتصار على اعداء ذلك الدين . واما في التمدن الحديث فان الاسباب الاساسية ، واعني بها الشؤون الاقتصادية ، كشفت عن وجهها النقاب ، وبدت طاغية على كل ما عداها من مصادر اخرى وعوامل . فعلى اثر اكتشاف قوتي البخار واختراع الالة ازدهرت الصناعات في ارجاء اوروبا ازدهارا لم تعد تتسع له اسواقها ، فانبرت الدول للبحث عن اسواق جديدة تؤدي لها تصريف مصنوعاتها ، وتضمن المزيد من المواد الخام لعاملها التي كانت تتزايد يوما بعد يوم ، فانقضت اوروبا على آسيا وافريقية واستعمرتهما كلهما ، واستغلت خيراتهما وجعلت ما بقي منهما مستقلا داخلا في نطاق نفوذها . ولكن معجزة وقعت في الزمن الاخير حملت اوربا على الانسحاب كرها من مستعمراتها في آسيا وافريقية على غير انتظار ، كما انسحبت من امريكا .

انقلاب الاوضاع السياسية فى العالم

تعتبر القارة الافريقية اكبر جزيرة في الكرة الارضية ، وتقدر مساحتها بربع مساحة هذه الكرة . وبما في افريقية من غابات وادغال ووحوش مختلفة وضوار كاسرة ، وبما فيها من سحر اسود ، وملل مختلفة ولغات متعددة كانت تعد بلاد الغرائب والعجائب . ولكن وجه الغرابة فيها على الاصح يعود الى تحكم خمسة ملايين مستعمر اوربي فيها في رقاب 220 مليون افريقي كانوا يستأثرون دونهم بخيرات البلاد ، ويسومونهم سوء العذاب ، ثم هم يمنون عليهم وعلى غيرهم من المستضعفين بانهم يحاولون اعباء تمدينهم وتحضيرهم، ومكافحة النخاسة في ديارهم .

وكانت افريقيا الى وقت قريب المعقل الاخير للاستعمار، فاذا بمعجزة تظهر فيها وترفع في بضع سنين عن اعناق شعوبها سلاسل الاستعباد ، بل ترفع اعلام دولها المستقلة مكان الوية المستعمرين ، فينسحب فيها منكسي الرؤوس والرايات . وكان من عواقب ذلك وقوع معجزة اخرى في العالم كله. وهي اعظم من الاولى ذلك بان افريقيا التي كانت بالامس القريب ، بلاد العبيد والارقاء صارت بين عشية وضحاها ، صاحبة الكلمة الاولى ، بحكم القانون الدولي ، في تقرير مصير العالم ، فضلا عن مصيرها ، لان المجموعة الافريقية في جمعية الامم

اصبحت بعددها تعد اكبر من اية مجموعة اخرى اقليمية . وبالتالي فان الكتلة الاسيوية ـ الافريقية اضحت اكبر كتلة في مجلس الامم المتحدة بانضمام المجموعة الافريقية اليها .

وقد تعرضت وزارة الخارجية الهندية لهذا الموضوع بتقرير وضعه رئيس الوزراء نهرو على منضدتي البرلمان يوم 29 آب 1960 ، وقالت :

« ان التطورات السياسية التي حدثت في البلاد الافريقية خلال السنوات الماضية قد غيرت خريطة القارة : ففي اوائل سنة 1950 كان في افريقيا اربع دول مستقلة فقط هي مصر ، واثيوبيا ، وليبيريا ، واتحاد جنوب افريقيا . وكان ما تبقى من افريقيا تحت الحكم الاستعماري لدول غرب اوروبا بصفة او باخرى .

« كانت الدول المستقلة تشغل تسع مساحة القارة الافريقية البالغ قدرها 11ر5 مليون ميل مربع ، كما كان عدد سكانها اقل من ربع مجموع عدد سكان القارة وما حل شهر اغسطس 1960 حتى كان الوضع قد تغير تغيرا تاما ، ففي التاسع من هذا الشهر بلغ عدد الدول المستقلة في افريقيا عشرين دولة يضاف اليها ثماني دول اخرى محدد لاستقلالها عام 1960 ـ 1961 . تبلغ مساحة هذه الدول ثلثي مساحة القارة ، كما يبلغ عدد سكانها 178 مليون نسمة من مجموع سكان القارة البالغ 220 مليون نسمة » .

والواقع ان الدول الاربع التي عدها هذا التقرير في مصاف الدول الاربع المستقلة : مصر ، واثيوبيا ، وليبيريا ، واتحاد جنوب افريقيا ، وان كانت تتمتع بالحكم الذاتي في سنة 1950 الا انها ما كانت تخرج عن نطاق مناطق النفوذ الغربي . زد على ذلك ان دولا اخرى افريقية احرزت استقلالها في سنة 1962 ، وفي مقدمتها سيراليون وتنجنيقا والجزائر واوغندا ، وان دولا جديدة مثل كينيا ونياسالاند تحدد موعد استقلالها في عام تال(1) .

وهذه المفاجأة التي برزت في مدى عشر سنين ، والتي لم تقتصر على تحرير افريقية ، ودخول دولها اعضاء في جمعية الامم ، بل جعلت كتلتها الاقليمية اكبر مجموعة في هذه الهيئة كانت انقلابا في الاوضاع العالمية السياسية لم يتحدث عن مثله التاريخ قط ، اما وان هذا الانقلاب قد وقع في عصر السرعة التي الفناها فان غرابة تبدو خفيفة في نظر المعاصرين لان السنة الان اصبحت بمقدار مائة سنة مما كانوا يعدون .

فكيف تم هذا الانقلاب العجيب ؟

هذا موضوع لا يزال حديثا ، لم يقع نظري على مقال تناوله بالذات ، ويرجع ذلك الى قرب عهد الانقلاب فرأيت ان اسد هذا الفراغ بالاستناد الى تتبعاتي الخاصة ، وبالافادة مما دونته في مذكراتي خلال مراحل النضال ضد الاستعمار ، وذلك بغية تدوين هذه الناحية من التاريخ على افضل وجه واعني به رد احداثه الى مصادرها واسبابها » .

ومن المفيد الاشارة هنا الى ان هذا الانقلاب لم يتم الا بتضافر العوامل الغربية مع الجهود الشرقية ، وان العوامل الغربية كانت هي الاصل في هذا الانقلاب والجهود الشرقية فرع . وسنتحدث هنا عن القسم الاول من العوامل الخارجية على ان نستكمل الحديث عن الباقي منها ، ثم نتعرض العوامل الداخلية .

الافكار والاحداث الغربية التي ادت الى القضاء على الاستعمار .

ان الانقلاب الجديد العجيب الذي شهدناه جميعا ليس هو وليد احداث معاصرة ، بل يعود في اسبابه الجوهرية ، الى افكار ومبادىء وحوادث قديمة وقعت في ديار الغرب المستعمر . اجل وكما ان نواة القضاء على الاستعمار نبتت في نفس الزمن الذي ترعرع فيه الاستعمار ، اذ كانت الثورات العقائدية الغربية القديمة مصدرا للثورات الاسيوية والافريقية الجديدة فان الحروب التي اجمع البشر على كراهيتهم لها ، وقال بعضهم بفائدتها (2) ان هذه الحروب التي نشبت بين الحلفاء وبين المحور هي التي عبدت الطرق لنضال الشعوب المستعمرة هذا النضال الذي حقق لها امانيها الوطنية . ان هذه الاشارات التي تظهر وكأنها احاجي سنحاول ان نرفع عنها النقاب حتى تبدو طبيعية غير عجيبة .

---

1) يقول فاقرود : « موزامبيق وانغولا لا تزالان تعيشان حتى الان في القرن الخامس عشر ، وفي القرن الخامس عشر البرتغالي : عبودية على صعيد الزراعة ، وعبودية في الاستقلال ذلك بان عملاء ليسبون لا يزالون يحافظون على معاهدة عقدت بينهم وبين جمهورية اتحاد جنوب افريقيا تقضي بسوق 130 الف عامل الى اتحاد جنوب افريقيا سوق البهائم كل عام »

2) كان القديس اغسطينوس والشاعر دانتي والمؤسس لوثر والفلاسفة باكون ولايبنتز ومانتيسكيو والعالم مورل والقائد ملطيك يذهبون الى القول بفوائد الحروب مدعين بانها كانت عنصرا قويا لتقدم المدنية ويستشهدون على ذلك مما كان لفتوحات العرب والاسكندر من الخير الكبير لهذا التقدم .

أثر الثورات العقائدية في القضاء على الاستعمار.

كانت الشعوب الاوروبية حتى القرن الثامن عشر تعتبر ملكا للحاكمين والاقطاعيين، وكانت بريطانياالعظمى وفرنسا على صراع مستمر حول الاستئثار بالزعامة العالمية، واما امريكا الشمالية فكانت مقسمة الى ثلاثة عشرة مستعمرة انكليزية .

ولما ثارت هذه المستعمرات في اواخر ذلك القرن ثورتها الاستقلالية كانت باريس تغذي هذه الثورات بحكم عداوتها للندن ، وبهذه المساعدة استطاعت امريكا ان تحرز استقلالها سنة 1776 بعد حروب دامت ست سنوات .

وهذه الثورة وملابساتها ونتيجتها كان لها في الاوساط الاوروبية اثر بارز في بعث مبدأ القوميات ، وحقها في تقرير مصيرها . فما ان شبت الثورة الفرنسية بعد ذلك ، ووضعت دستورها سنة 1789 ، في هذا الجو العابق بعطر المبادىء القومية ، حتى اقرت حق الشعوب في اختيار مصيرها ، ومبدأ حق الافراد في التمتع بالحرية والمساواة والاخاء .

وقد حرصت حكومة الثورة على مراعاة مبادىء دستورها، فلما فتحت حكومة الكنفسيون مقاطعات سافوا ، وكنتية نيس ، والضفة اليسرى من نهر الرين ، والبلجيك عمدت الى استفتاء سكانها منتشية من ذلك الطبقة الارستقراطية ، فاختاروا الالتحاق بفرنسا . ولكن ما ان استأثر نابليون الاول بالسلطة ، ورسم له الحظ حتى طرح هذه المبادىء جانباء وشرع يهزأ بحق الشعوب في تقرير مصيرها .ولكن الحظ لم يوافق نابليون حتى النهاية . فقد انتهت الحروب بفشله ، ولما عقد المؤتمر الدولي لتسوية الشؤون الاوروبية حاول الافرنسيون الرجوع الى مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها، وطالبوا بالتزام الاستفتاء (1) ، فرفضت الدول المنتصرة هذا الاقتراح بحجة ان هذا الاستفتاء هو من مخلفات الثورة، وانهم يعملون للقضاء عليها .

وكانت اسرة برنسويك ـ هانوفر ، التي استوت على عرش لندن سنة 1714 ، منصرفة الى توسيع مدى استعمارها ، وتأمين زعامتها على البحار ، ولما ادركت امنيتها بالقضاء على نابليون راحت في سبيلها تحقق اهدافها ، وداست على مبادىء الثورة الافرنسية . وجرت مجراها سائر الدول الاوروبية . ثم ما كانت كل هذه الدول تذكر المبادىء القومية ، وتعمل بها الا في قضايا السلطنة العثمانية . فكانت تنتصر للعناصر الثائرة عليها وتؤيد مطالبيها استنادا الى حق الشعوب في تقرير مصيرها . وكادت المبادىء الانسانية تمسي نسيا منسيا لولا ان الولايات المتحدة الامريكية ، التي لم تكن تفكر كغيرها بالاستعمار ، تفردت باحتضانها . فقد وضع توماس جيفرسون (1743 ـ 1827) ، وهو ثالث رئيس للجمهورية ، وثيقة الاستقلال التاريخية مقررا فيها « حق الانسان في الحياة الحرة على اساس المساواة ، وحقه بالثورة ضد الطغاة » ثم ايد الرئيس ابراهام لنكولن هذه المبادىء وقال : « ان الحق في الثورة حق مقدس جدا ، وهو حق نعتقد بانه سيؤدي الى تحرير العالم » .

ثم لما ثارت اميركا اللاتينية على نابليون الاول ايدها مونرو (1758 ـ 1831) الرئيس الاميركي استنادا الى هذه المبادىء ، وكان شعاره « اميركا للاميركيين » غير ان هذا الشعاراصبح شرعة للولاياتالمتحدة من بعد قضتعليها بالتزام العزلة عن السياسة العالمية . وهذه العزلة افسحت المجال امام الدول الاوربية للتفاهم فيما بينها على اقتسام افريقية ، غير ذاكرة اية مبادىء انسانية ، وان تحكم ارجاءها بمقتضى شريعة الغاب اسوة بآسيا التي كانت قد وقعت من قبل فريسة بين ايديها .

وقد اجتمعت هذه الدول في مؤتمر برلين سنة 1885 ، وكان الحافز لها للاجتماع الخوف من ان تؤدي شهوة الاوربي الى نشوب حرب لا تبقي ولا تذر . وبجرة قلم واحدة وضعت اوربا خريطة جديدة لافريقيا ، وتقاسمتها بينها . ولكن هذه القسمة لم تكن عادلة في نظر المانيا وايطاليا ، فعاد الاحتكاك الذيكان بينهما وبين انكلترا وفرنسا الى ما كانعليه قبل مؤتمر برلين ، واشتد حتى انبثق منه شرارة اشعلت الحرب العالمية الاولى .

وهذه الحرب فضلا عن انها ذكرت المتحاربين بمبادىء حقوق الانسان والجماعات فاخذوا يلوحون بها امام الشعوب المستعمرة فانها ولدت ثورة كبرى كان لها الاثر الطيب في اخراج هذه المبادىء من الدعايات المفرغة الى حيز التحقيق . واعني بها الثورة الحمراء بروسيا التي انطلقت ابتداء من 25 تشرين الاول 1917 . وقد انتصر الثوار وعلى رأسهم لينين ، واستولوا على الحكم ، واتجهوا بقيادة الحزب الشيوعية طرقا جديدة لحياة جديدة لم تكن معروفة من قبل .

فالشيوعية فضلا عن تأييدها مبادىء الثورة الافرنسية ، وتأييدها وثيقة جيفرسون بما فيها حق الثورة على الطغاة ، وذلك في خارج بلادها ، فانها جاءت تدعو الى اخوة عالمية

1) كان تاليران احد ممثلي فرنسا في المؤتمر لايعترف بغير حق الفتح على غرار زعيمه نابليون ولكن لما هزمت فرنسا وعقد المؤتمر الاوربي ، انقلب وحاول اقناع المؤتمرين بان يعاد لكل اسرة حاكمة ما كان في حوزتها ملوحا بحق الشعوب في اختيار مصيرها ولكنه باء بالفشل .

شعارها السلام ، ومدارها المساواة بين العناصر دون اعتبار للالوان والاديان اسوة بالمساواة بين الافراد دون اعتبار للدرجات والطبقات .

وقد اصابت الشيوعية بهذه المبادىء المحببة الى قلوب المحرومين والمظلومين ، وهم معظم افراد العالم وجماعاته ، اصابت من النجاح ما لم تدرك جزءا منه الثورة الافرنسية . ويرجع الفضل في ذلك الى ان الشيوعية كان من ورائها دولة ترعاها ، وتتخذ من مبادئها سلاحا لها ماضيا في الصراع بينها وبين الدول التي تسميها بالرأسمالية (1) .

واخيرا انتصر المعسكر الشرقي على المعسكر الغربي في هذا الصراع ، وكان من اهم اسباب ذلك ان موسكو القيمة على الشيوعية تركتها تمشي من ورائها دون ان تتظاهر بتأييدها ، وكانت تتخلى عنها احيانا في سبيل اكتساب القلوب التي تريد ان تكسبها (2) . وهي مع ذلك كانت جد حريصة على تطبيق المبادىء الشيوعية حيال العناصر المناضلة في سبيل استقلالها ، فتهب لمساعدتها في اثناء ثوراتها وبعدها ، وتخف لتأييدها في المحافل السياسية . فكان لكل ذلك ما كان من الاثر في القضاء على الاستعمار .

وبعد فان هذه الثورات ذات المبادىء الانسانية التي ذكرناها كانت للشعوب المناضلة في سبيل التحرر ، بمثابة مستندات سياسية ووثائق تلوح بها وتستند اليها في غضون كفاحها للاستقلال ، وكذلك كانت بالنسبة للدول التي ايدت تلك الشعوب .

ولكن الاسباب التي كانت كالديناميت في تهديم صرح الاستعمار فهي تعود الى الحربين العالميتين الاولى (1914 ــ 1918) والثانية (1939 ــ 1945) الحربين اللتين لم تبدلا جغرافية الكون فحسب ، ولم تغيرا التوازن السياسي الدولي فقط ، بل حملتا الدول بالوعود التي اطلقتها على اثارة شهوة الاستقلال في نفوس الشعوب المستعمرة ، وحفزتا بالتالي هذه الشعوب المتألمة للاستغاثة بالثورات في اعقاب الحربين بغية ادراك امانيها الوطنية ، حتى اذا نشبت الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي واتخذ المعسكر السوفييتي من انتفاضات العناصر المستعمرة سلاحا ماضيا له اسفر النضال عن العثور على الاستعمار صريعا في المعركة الحاسمة .

كيف مات الاستعمار ؟ اثر الحربين العالميتين في القضاء على الاستعمار .

كانت الحروب حتى القرن العاشر حروبا موضعية تقع بين دولة ودولة فيكاد العالم لا يشعر بها . ولكن القرن العشرين شهد ما لم يشهده الناس من قبل : حربين عالميتين ماذا عسانا ان نقول عنهما ، وقد عشناهما ، اذا كان زهير بن سلمى وصف قتالا بين قبيلتين بقوله :

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم

على ان الذي يهمنا في الموضوع ما كان لهاتين الحربين من العواقب في القضاء على الاستعمار (3) .

◆ الحرب العالمية الاولى 1914 ــ 1918 .

ــ اشتبكت الدول الاوروبية بحرب طاحنة جعلت المعسكرين الحلفاء والمحور يتطلع كل منهما الى المزيد من الانصار خشية سوء المصير . وقد بسمت الحرب في السنين الاولى لالمانيا زعيمة المحور فصعق الحلفاء ، وهم اركان الاستعمار ، وراحوا يطلقون الوعود الخلابة في اجواء المستعمرات ، كما تطلق الصواريخ الان ، ويستعملون شتى الاساليب لاسترضاء اهلها . وتوجهوا بانظارهم من ناحية اخرى شطر امريكا بغية اخراجها من عزلتها .

لقد كان من الصعب زحزحة واشنطن عن شريعة مونرو ، خصوصا وانها كانت لا تزال تحس بمبادىء وثيقة الاستقلال التي وضعها الرئيس جيفرسون ، ولكن الحلفاء واليهود وراءهم ، في اوربا وامريكا ، لم ييئسوا بل طفقوا يضربون على الوتر الحساس حتى قضوا على معارضة الرئيس ويلسون ، وقضوا بالتالي بمعاونته ، على معارضة الكونغرس ، وجروا الولايات المتحدة الى الحرب . وكان مدار دعوة الحلفاء لامريكا

---

1) نحن لم ننكر على الشيوعية هذه المبادىء الطيبة في كتابنا ــ اسرار ما وراء البحار ــ (الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية كأنك تراهما) هذا الكتاب الذي اصدرناه سنة 1958 في اعقاب زيارتنا للاتحاد السوفييتي والصين الشعبية، ولكنا انكرنا عليها امورا اخرى ، وانتقدنا نظام الحكم السياسي ، وتسويغها ممارسة الاستعمار المبطن في غضون محاربتها للاستعمار .

2) ضرب تيبومند مثلين على تخلي موسكو عن الشيوعية حيث قال ص 133 ما خلاصته : عندما انسحبت جيوش شان كاي شيك من الجبهة اليابانية لتحارب الشيوعيين الصينيين ظلت موسكو تؤيده عملا بميثاق المعونة وعدم الاعتداء المعقود بينهما سنة 1937 ، وكذلك تخلت موسكو عن حكومة اذربيجان الشيوعية بايران عام 1946 عندما تعرضت لها طهران واسقطتها

3) من معلقة زهير العظيمة في القتال الذي نشب بين قبيلتي عبس وذبيان .

يدور حول الدفاع عن بلجيكا والسرب ، وتحرير العناصر في تركيا والنمسا وفقا لمبادىء جيفرسون التي كان يتبناها الرئيس ويلسون .

وفي يوم 2 نيسان 1917 اليوم الذي صوت فيه الكونغرس على دخول الولايات المتحدة الحرب ، وجه هذا الرئيس الرسالة التالية الى الكونغرس ، وقال فيها :

« ان القانون شيء اغلى من السلام . ولذلك سنحارب دفاعا عن المبادىء التي كانت دائما اثمن من حبات قلوبنا . سنحارب من اجل حقوق الامم الصغيرة ، وحرياتها » .

ثم اوضح هذا الرئيس المخلص للمبادىء الانسانية ، اسس السلام التي يريد ان يحققها بعد نهاية الحرب وذلك برسالته الشهيرة التي وجهها الى مجلس الشيوخ في 18-1-1918 والتي تضمنت مواده الاربع عشرة المعروفة .

غير ان الدكتور ويلسن كان في واد ، والحلفاء في واد . فلما وضعت الحرب اوزارها وتم لهؤلاء الانتصار المنشود كان مثلهم كمثل القوم الذين وصفهم القرآن الكريم بالآية :

«« واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم الى البر ، فمنهم مقتصد » (1) وقد لبى الدكتور ويلسون دعوة حلفائه المنتصرين ، وجاء الى باريس واشترك في مؤتمر الصلح سنة 1919 ولكنه عبثا حاول اقناعهم بان يقرر المؤتمر المبادىء الاربعة عشر التي كان وضعها كاسس للسلام . على انه وان لم ينجح في هذه الناحية فقد اصاب نجاحا في ناحية اخرى كانت المرحلة الاولى من مراحل تحرير الشعوب فقد كان هذا الرئيس حريصا على قيام جمعية للامم بعد نهاية الحرب تشرف على تحرير العناصر . وقد اعرب عن رأيه هذا في خطاب القاه بنيويورك يوم 27 ايلول سنة 1918 قال فيه :

« عندي ان تأليف جمعية الامم وتعيين الغرض منها صريحا يجب ان يكون جزء من الصلح نفسه ، بل اهم جزء فيه » فما وسع الحلفاء الا مسايرة امريكا في هذا المطلب واقرارها ، في مؤتمر الصلح ، تأليف عصبة الامم ، هذه العصبة التي وان لم تستطع الاستقلال عن نفوذ الحلفاء من بعد الا انها وقفت موقف الحكم في القضايا السياسية العالمية .

وقد اتيح لي ان اشهد بنفسي احد مواقفها هذه حينما ابرقت اليها بوصفي رئيسا لجمعية اتحاد الشبيبة الاسلامية شاكيا من المفوضية الفرنسية لاقدامها على حل المجلس النيابي اللبناني سنة 1932 . فقد نظرت عصبة الامم في احدى دوراتها وقتئذ في هذا الشكوى ، وطرحتها على الكونت روبير دوكه الممثل الفرنسي للمناقشة (2) .

والى هذا فقد كان لهذه الحرب ، ولاشتراك امريكا في مؤتمر الصلح مأثرة اخرى في تقدم قضية تحرير العناصر . ذلك بان الدول المنتصرة لم تستطع ممارسة العادة التي كانت مألوفة من حيث استيلائها على بلاد العدو المحتلة . بل اضطرت للعدول عن هذا الاسلوب الى سلوك طريقة جديدة اطلق عليها اسم الانتداب ، وكان على درجات ثلاث ، معلنة ان الغاية من هذا الانتداب اعداد تلك البلاد للاستقلال . وكانت كل دولة منتدبة ترفع الى عصبة الامم سنويا تقريرا عن القطر الذي يقع تحت انتدابها . وهذه الانتدابات ، وان اساء المنتدبون استعمالها حتى حولوها الى استعمار من نوع جديد ، الا انها ، في الواقع ، جاءت من حيث القانون خطوة شطر الاستقلال ، كما انها ، فتحت بابا لمرجع اعلى ، وهو عصبة الامم المشرفة على الانتدابات بابا كانت البلاد المنتدب عليها تدخله كلما اضطرت للشكوى .

واما المأثرة الكبرى لهذه الحرب فقد صدرت عن نكوث الحلفاء بوعدهم للشعوب دون مبالاة ، ذلك النكوث الذي كان حافزا لها للانتفاضة انتفاضة الثائر ، وتتلقى الضربة اثر الضربة فتزيدها هذه الضربات حماسا . فاذا بالحقبة التي مرت بين الحربين العالميتين تمسي حقبة صراع شديد بين المتعصبين المشفقين على مصيرهم ، وبين المستضعفين المغلوبين على امرهم الذين ينشدون الحياة الحرة . تلك الحياة التي يحلمون بها ، والتي وعدوا بها . فكان هذا الصراع بمثابة المرحلة الاولى لزعزعة صرح الاستعمار .

◆ الحرب العالمية الثانية 1939 – 1945 .

— تنفس الحلفاء الصعداء بعد انتصارهم على المحور في الحرب العالمية الاولى ، وظنوا بانهم ادركوا هدفهم المنشود بتأمين حياة الاطمئنان . ولكن الضغط يؤدي الى الانفجار ، فاذا بالمانيا التي هدمتها الحرب تنتفض من تحت انقاضها ، ويبرز الى الميدان هتلر المارد الجبار على رأس النازية ، واذا بايطاليا التي سحقتها الحرب ايضا تنتفض وينتصب موسوليني على رأس الفاشستية حالما باعادة عظمة الرومان . فعاد الصراع بين الفريقين ، كرة اخرى ، وعاد الى اسوأ مما كان عليه قبل الحرب العالمية الاولى ، ثم تمخض هذا الصراع عن حرب عالمية ثانية كانت اشد هولا من الاولى . وكان هتلر يحسن الدعايات خلال الحرب مما حمل الحلفاء على ان يأتوا باحسن منها .

---

1) سورة لقمان .

2) في الجزء الثاني من كتابي قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور : صفحة 104 ، تفصيل لهذه الحادثة .

ولكن الشعوب لم تعد تصدق الوعود الخلابة كما كان من قبل . فكيف العمل والحرب الثانية شرعت تبسم لبرلين وروما منذ اوائلها ؟ ان الخطر الشديد اذا حاق بالانسان يوقظ ضميره ، ويوحي اليه وسائل الخلاص . وربما كان الحلفاء ، وقد حاق بهم الخطر الشديد وقتئذ ، فكروا بالاخلاص ، ولكنهم اذ يعرفون ان الشعوب لا تحسن الظن بهم على اعتبار ان المرء لا يلدغ من جحر مرتين ، قد فكروا في اشراك واشنطن في الوعود الجديدة . فاذا بالميثاق الاطلنطي يذاع في الآفاق موقعا من فرنكلان روزفلت ونستون تشرشل بتاريخ 14 آب 1941 : « المبادىء المشتركة لكل من بريطانيا العظمى والولايات المتحدة في السياسة الوطنية التي يبنيان عليها مستقبلا افضل في العالم » وقد جاء في المادة الثالثة من هذا الميثاق ما يلي :

« تحترمان حق جميع الشعوب في اختيار شكل الحكم الذي تود العيش في ظله ، وترغبان في ان تريا حقوق السيادة والحكم الذاتي معادة الى الذين نزعت منهم قسرا » واذا بوعود اخرى كلها اغراء تنتشر في كل مكان . وعلى كل لسان (1) .

ولقد انتهت الحرب العالمية الثانية على حسب ما كان يبشر به تشرشل في غضون الشدة . انتهت بنصر الحلفاء ايضا، وانتصب الميزان بعدها ، ففي كفة منه شعوب تذكر بالوعود وتطالب بتحقيق امانيها القومية، وفي الكفة الاخرى دول تتردد مشفقة على مصيرها ان هي تخلت عن مستعمراتها ، وحرمت بالتالي من استغلالها واستثمار ما اقامته فيها من منشئات وشركات ، ولولا ان تبدل التوازن السياسي (ستاتيكو) ، وانتقلت الزعامة العالمية السياسية ، بعد الحرب العالمية الثانية، من حوزة انكلترا وفرنسا الى حوزة امريكا والاتحاد السوفياتي لما رجحت كفة الشعوب المحكومة المظلومة ، ولظلت رايات الاستعمار تخفق عالية في كل مكان .

الانقلاب في التوازن السياسي بعد الحرب العالمية الثانيـــة .

انتصرت انكلترا وفرنسا وانصارهما على المانيا وايطاليا واليابان ومؤيديها ، وكان المفروض بعد ذلك ان يزيد هذا الانتصار الكبير كلا من لندن وباريس عظمة على عظمتيهما السابقتين ، ولكن الامر جاء على عكس ما هو منتظر : فهاتان الامبراطوريتان اللتان كانتا من قبل الحرب تعتبران في المرتبة الاولى بين الدول بل في ذروتها ، انحدرتا من بعد الى المرتبة الثانية ، وعانتا من عواقب الحرب ما عانته الدول الخاسرة حتى لم يعد في استطاعتهما الوقوف على ارجلهما الا بالاستعانة بعكاز امريكي . واذا بدولتين جديدتين ، كانتا من قبل في شبه عزلة عن اوربا ، تحتلان مكانهما ، وتصبحان بدلا منهما في مقام الصدارة ، واعني بهما الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي .

وهذا الانقلاب في التوازن السياسي العالمي كان له اثر بالغ في صعيد تحرير البشر من الاستعمار . ذلك بان هاتين الدولتين ، اللتين احتلتا الصدارة في العالم مكان اعظم امبراطوريتين مستعمرتين ، وان كانتا تختلفان كل الاختلاف من حيث المبدأ الاجتماعي ، الا انهما كانتا ، على وجه عام ، متفقتين على مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها . وقد قلنا ــ على وجه عام ــ لان موسكو كانت تحرص على ان تطبق هذا المبدأ خارج البلاد التي تدور في فلكها ، ولان واشنطن المرتبطة بالحلف الاطلسي كانت ، رغم مبادئها السياسية الطيبة ، تضطر لتأييد المستعمرين حلفائها مراعاة لاماني هذا الحلف وخفظا عليه ، فتبدو وكأنها كبرى للمستعمرين .

والواقع ان هذا العرج من قبل واشنطن ، وهذا الاستثناء من قبل موسكو وان مدا في اجل الاستعمار الا ان قيام هاتين الدولتين مقام الامبراطوريتين المستعمرتين في صعيد زعامة العالم ادى خدمات كبرى للشعوب المناضلة في سبيل التحرر ، خدمات ما كانت لتبرز لو ظلت لندن وباريس تسيطران على مقدرات العالم ، كما ادتا قبل الحرب العالمية الثانية .

وهذا الانقلاب في التوازن السياسي الذي وقع في اعقاب هذه الحرب رافقه انقلاب آخر في مجرى الصراع القديم بين الشرق والغرب ، فبعد ان كان الصراع يدور بين آسيا واوربا اصبحت روسيا في لغة السياسة زعيمة الكتلة الشرقية ، بينما امست الولايات المتحدة الاميركية زعيمة الكتلة الغربية . وكم كان لهذا الصراع الجديد من فوائد في الاجهاز على الاستعمار ؟

نشبت بين الكتلتين حرب باردة ، ولكنها في الواقع ، كانت حربا حامية طالما هددت العالم ، ولا تزال ، بالخراب اليباب . وقد سأل سائل برنارد شو ، وذلك قبل علم الذرة الهيدروجينية ، واكتشاف الصواريخ ، عما سيستعمله المحاربون في الحرب العالمية الثالثة من اسلحة ، فقال « لا ادري ، ولكني على يقين بانهم سوف يعودون في الحرب الرابعة الى استعمال العصي والحجارة » اشارة الى الخراب . ولا بدع بعد ذلك ان تهلع قلوب البشر في ذلك اليوم العبوس القمطرير ، ويتنادون للسلام في غضون الحرب الباردة التي تدور رحاها بين المعسكرين .

1) واشنطن تعبد الطرق لموسكو في بلاد العرب والمسلمين ص 18 لصاحب المقال .

وكان محور السياسة الروسية في هذه الحرب الباردة يدور حول مخطط مثلث النواحي قوامه الدعوة الى السلام ، والمنافسة الاقتصادية ، وتأييد الشعوب في نضالها ضد الاستعمار الغربي ، وذلك بالاضافة الى التفوق في ميدان الاسلحة الحربية وانواعها . اما الغاية من الدعوة للسلام فقد عبر عنها نيكيتا خروتشوف بقوله :

« ان الحروب هي وليدة انقسام الهيئة الاجتماعية القائمة على النظام الطبقي . ومعنى ذلك ان الاوساط الصالحة لبعث الحروب من شأنها ان تزول حينما تتخلى الهيئة الاجتماعية عن هذا النظام الذي يجعلها طبقات متفاوتة متنافرة . اجل فبانتصار البروليتاريا ، وبانتشار الاشتراكية وسحقها المظالم الاجتماعية تتلاشى اسباب الحروب وتستطيع الانسانية العيش بسلام » (1) .

واما الغاية من المنافسة الاقتصادية فقد اعرب عنها خروتشوف ايضا بقوله :

« ان انتصار الاتحاد السوفياتي على الولايات المتحدة في الحقل الاقتصادي ، وفوز الاسلوب الاشتراكي على الاساليب الرأسمالية من شأنهما ان يحولا تحويلا كليا مجرى تاريخ العالم بحيث يؤدي ذلك الى ثورة بناء وانماء بين الطبقة العمالية . ومتى تم هذا التحول فان اشد الناس مكابرة واشدهم معارضة للنظام الاشتراكي سيرون ان هذا النظام وحده هو الذي يقوم احوال البشر وذلك بتأمينه لهم كل حاجياتهم (2) .

(1) Revue du Marxisme Mondial - Janv. 1961, p. 13.

(2) Front de la liberté - Mai 1962, p. 14.

واما القصد من تأييد الشعوب المناضلة ضد الاستعمار الغربي ، فهو لا يحتاج لتعريف ، فهو بمثابة تصفيق الاستحسان للخطيب الذي لا يزيد في حماسه فقط ، وانما يجعله شاكرا للذين يشاركونه شعوره بانه يجيد .

والواقع فان تأييد الاتحاد السوفياتي للشعوب التي انتفضت، او ثارت على الاستعمار، وذلك بالمال والاخصائيين ، وفي المحافل السياسية ، لم يزدها نشاطا وحماسا فحسب ، بل ان هذا التأييد الذي جاء في ظروف هي في اشد الحاجة اليه كان حافزا لها ، رغم خوفها من الشيوعية ، ان تقف موقف الحياد . واذا كان عدل الرجل بين الزوجتين يمكن ان يكون له نصيب في الوجود ، فالحياد بين المعسكرين على اختلاف نزعاتهما ومناهجهما سيقدر له البقاء .

وهكذا فان الثورات والحروب ، وما نتج عنها ، من تبدل الافكار في اوربا علاوة على تبدل التوازن السياسي مهدت كل الطرق ، وعبدتها لتحرير العالم المستبعد ، ولكن هذه العوامل الملائمة كان يمكن ان تذهب هباء منثورا لو ان الشعوب المغلوبة على امرها ، لم تبادر الى سلوك هذه الطرق بحزم وثبات وتضحية ، مكتسبة الفرص المؤاتية . وهذا ما سنتحدث عنه في مقالنا التالي ، الذي نتعرض فيه نضال الشعوب في سبيل الاستقلال . « وان ليس للانسان الا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى » .

بيروت : محمد جميل بيهم



الأمم المتحدة أمام الحقائق العالمية الراهنة

للاستاذ : المهدي البرجالي

الكتل الدولية الحاضرة وميثاق الامم المتحدة ـ العوامل التاريخية والآنية التي تحدد وجهات النظر في هذا السبيل ـ الاعتبارات الاساسية التي تؤثر في اتجاهات الهيئة الامميـة وخاصـة في ميـدان العمل الاجتماعي والاقتصادي العالمي ـ التطورات العالمية الحديثة وصلتها بجملة الظواهر الملحوظة في هذا المقام ـ مشروع المجلس الاجتماعي والاقتصادي للتنمية ، والمؤتمر العالمي القادم لبحث مشاكل التخلف : مظهران لاحتمال وقوع تحول جوهري في مضمار العلاقات الدولية .

كان من بين النتائج غير المباشرة لتوقيع اتفاقية موسكو حول موضوع التجارب النووية ان تعزز موقف الامم المتحدة اكثر من اي وقت مضى ، وزاد نفوذها المعنوي زيادة ملحوظة بعد ان اصابته نوبات من التدهور النسبي خلال السنوات القليلة الماضية ، وعلى الرغم من ان العوامل التي حملت الامريكيين والسوفييت على امضاء وثيقة موسكو ، والتخلي هكذا عن بعض الامكانيات العسكرية التي يخولها الاستمرار في تجربة الاجهزة الذرية ـ على الرغم من ان العوامل الرئيسية في هذا الامر لم تكن من صنع الامم المتحدة مباشرة وبالذات ، الا ان المركز الذي تحتله هذه المنظمة بصفتها مسؤولة عن استقرار السلام العالمي ، زيادة على ما صرفته من جهود في هذا الميدان ، بما فيها التدخل العسكري المباشر ، كما حصل في كوريا سنة 1950 والكونغو سنة 1961 ـ هذا المركز الذي يتوافر للامم المتحدة يمنحها ـ حقا ـ امكانية التفاعل باستمرار مع الاحداث والتطورات التي تتم ، ولو خارج نطاقها ونفوذها ـ بالتالي ـ جانبا كبيرا من الاهمية في اتجاه هذه التطورات ونتائجها ، سواء كانت ذات صبغة سلبية او ايجابية تقدمية او تقهقرية .

وهذا القدر من التحسن الذي طرأ على الموقف العالمي ، وانعكست آثاره على وضعية الامم المتحدة نتيجة التوقيع على الاتفاق الدولية النووية ـ هذا التحسن ـ وان كان يشكل في مبدئه خطوة جوهرية الى الامام ، ويساهم في تعزيز وضعية الامم المتحدة تعزيزا لا تنكر اهميته الا انه لا يمكن ان ينسينا جملة المشاكل القائمة في حظيرة هذه الهيئة الاممية ، والمتعلقة بطريقة تنظيمها ، وظروف تكوينها وتطورها الذاتي ، وامكانيات نشاطها وآفاق مستقبلها بوجه عام ، ان الظاهرة التي نلاحظ في هذا المقام هي ان ميثاق الامم المتحدة ما زال يتعرض ـ منذ ظهوره ـ الى كثير من المؤاخذات والانتقادات التي تتعلق بعضها بنقط ثانوية او شبه ثانوية ، بينما يمس بعضها الآخر ، قضايا ومسائل ذات خطورة جوهرية حقا ، والملاحظ كذلك ان الاراء ووجهات النظر الدولية حول الموضوع ، ما برحت تتكاثر وتتعدد ، وتتخذ احيانا مناحي متشعبة تزداد مع الايام ، وبمقدار ما يتسع نطاق الاحتكاك الدولي العام وتتشابك مظاهر العلاقات الدولية داخل الهيئة العالمية الحاضرة ، ومن الطبيعي ان تنشأ حالة رد فعل من هذا القبيل يوجد فيها ميثاق الامم المتحدة موضوع مؤاخذات ملحة ومطالبة بالمراجعة والتعديل على شكل من الاشكال ، فهذه المنظمة تخضع ـ كغيرها ـ لنواميس النشوء والتطور وذلك بكل ما يقتضيه الامر من حاجة الى التجدد والتغير ونزوع مستمر الى التلاؤم مع مختلف الاحوال القائمة ، والتكيف بمقتضياتها ونتائجها سواء من ناحية الشكل او الموضوع ، هذه حقيقة عامة وبدائية ، تفسر الحاجة التي يعبر عنها الكثيرون والتي يستوجبون بمقتضاها تعديل بعض القوانين التنظيمية التي تتحكم في نشاط الامم المتحدة وتكييف هذه القوانين على حسب الحقائق الدولية الجديدة ، ويستدل على ذلك بعمق الاختلاف الذي يوجد بين عالم 1945 حينما وضع الميثاق الحالي

وبين عالمنا الحاضر ، هذا الاختلاف الذي لا يتعلق بالاوضاع السياسية الدولية فحسب ، بل يمس كذلك جانب الافكار والملابسات العقلية والنفسانية ، والوقائع الحضارية الانسانية التي اصبحت تتطور بصورة اسرع مما يعتقد عادة ، ومثل هذا التعليل الذي يحتج به البعض في هذا الموضوع هو - بحق - على جانب من الوجاهة والمعقولية الا انه لا يحيط بكل جوانب الصلة القائمة ، ولا يفسرها تفسيرا شاملا ومستوعبا ذلك ان الحاجة الى التعديل في ميثاق الامم المتحدة ، لم تنشأ بصورة تدريجية وبحسب التطورات المتشابكة التي عرفها العالم خلال هذه السنوات الخمس عشرة الماضية ، ان الحاجة الى التعديل قد نشأت - على العكس من ذلك - بصورة سريعة جدا ، وغداة وضع الميثاق وقيام المنظمة الاممية من الاساس . اما السبب في ذلك فيعود الى طبيعة الظروف التي صاحبت تأسيس الميثاق ، والجو العام الذي كان يسيطر على المجتمع الدولي حين قيام المنظمة الاممية ، وهناك ظواهر بارزة يمكن ملاحظتها بهذا الصدد ومن ذلك انعدام اية حالة من التوازن الدولي حينذاك على الشكل الذي يوجد عليه الآن ، فآسيا لم تكن لها فاعلية حقيقية داخل الامم المتحدة ، الا بصورة ضئيلة جدا اما افريقيا فقد كانت - مع بعض الاستثناءات البسيطة - منفية عن المنظمة والمجالس الاساسية المنبثقة عنها ، ولم تكن امريكا اللاتينية ذات وزن يذكر في سير شؤون الهيئة الاممية ، وان كان كثير من الدول في هذه المنطقة الحساسة من العالم قد انتسب اليها منذ البداية سواء على صورة او اخرى ، وقد نشأ عن ذلك بالطبع ، ان الكتل السياسية الدولية الحاضرة لم تكن قد استمت بعد عناصر وجودها وتطورها الاساسي ، وبالنتيجة لذلك فان مؤثراتها في مجرى السياسة العالمية ، وداخل الامم المتحدة ، هذه المؤثرات لم يكن لها من وجود فعال ، فالكتلة الحيادية لم تتبلور الا بعد مرور نحو عشر سنوات على قيام الامم المتحدة ، وكذلك الشأن بالنسبة الى الكتل المماثلة الافريقية الاسيوية او غيرها ، بل ان الفوارق الاساسية بين الكتلة السوفياتية والغربية ، هذه الفوارق لم تكن بعد قد برزت بصورتها الحاسمة ، التي استحالت اليها واستمرت عليها بعد ذلك منذ سنة 1949 ولكل هذا فان المجال لم يكن متسعا كثيرا لظهور خلافات واسعة المدى بين الشرق والغرب ، حول بنود ميثاق الامم المتحدة ، وما تحتويه هذه البنود من اجراءات تنظيمية في مختلف الميادين ، وعلى الرغم من بروز بعض الاعتراضات من جانب بعض الدول الكبرى خلال مؤتمر سان فرانسيسكو سنة 1945 وذلك مثلا كالخلاف الذي نشب حول اجازة او رفض الفكرة القائلة ، بان الدول الخمس الدائمة في مجلس الامن لا حق لها من منع المجلس من فحص المنازعات ، التي لا تكون طرفا فيها ، وقد اجيزت هذه النظرية بالفعل بالرغم من اعتراض بعض الدول الكبرى وبموجبها اصبح من حق المجلس ان ينظر في اي نزاع يعرض عليه ولو لم تكن احدى الدول دائمة العضوية طرفا في هذا النزاع وكما تقدم فعلى الرغم من بروز بعض الاعتراضات من هذا القبيل فانه لم يحدث ما يمكن ان يعتبر صداما بين الشرق والغرب في مؤتمر سان فرانسيسكو ، ولا سجل كلا الطرفين من التباين في الرأي حول بنود ميثاق الامم المتحدة مثل ما اصبح عليه الامر بعد ذلك في السنوات التالية ، لقد كانت هناك بالعكس حالات التقاء بين هؤلاء واولئك في كثير من النقط والمعطيات المعروفة وكان الجو السائد في مثل تلك الاحوال هو جو الدول الكبرى . . والدول المنتصرة على الرغم من وجود عدد كبير من الدول الصغيرة والمتوسطة التي شاركت في فحص بنود الميثاق والمصادقة عليه . وعلى ذكر الدول المنتصرة نجد هنا عنصر آخر من العناصر السياسية والسيكولوجية التي اثرت في تكييف الموقف الدولي خلال فترة نشوء الامم المتحدة ، وبروز ميثاقها التأسيسي ، فالانتصار المحصل عليه في الحرب كان نتيجة تضافر كثير من الجهود والقوى المختلفة في العالم بما فيها جهود كثير من الدول الصغرى التي امدت القوات الحليفة بطاقات ضخمة وهائلة من الرجال والمواد والواقع ان عددا كبيرا من هذه الدول الصغيرة سواء منها المستقل او غير المستقل كان يعيش حالة او اخرى من حالات الحرب مع النازية والفاشية ، الا ان الدول الكبرى كانت تدرك - بالرغم عن ذلك - انها هي قوام الحرب الاساسي ، والمدار الذي تدور عليه نتائج العراك الحاسم ، وذلك لما يتوفر لديها من استعدادات ضخمة وشاسعة ، وما يتهيأ لها من امكانيات غير محدودة في مختلف الميادين ، ومن غير شك ، فان مثل هذه الاستعدادات والامكانيات هي التي اباحت للدول الكبرى هذه، حق الاستئثار بمقاعد دائمة في مجلس الامن ، ووضعية خاصة تمكنها من نقض القرارات المتخذة في حظيرته بصورة اوتوماتيكية ، ومراقبة اتجاهات نشاطه ونتائج اعماله على هذا النحو المباشر ، وهكذا فعلى الرغم من اعتراض عدد كبير من الدول الصغيرة التي مثلت في مؤتمر سان فرانسيسكو (سنة 1945) فقد اقرت المادة السابعة والعشرون من ميثاق الامم المتحدة بكل ما تنص عليه من تخويل حق النقض للدول الكبرى في مجلس الامن وذلك في جميع المسائل التي يمكن ان تعرض عليه ، الا ما كان من قبيل المسائل الاجرائية العادية التي يكتفي فيها حينئذ بحصول اغلبية سبعة اصوات دون اشتراط موافقة احدى الدول الخمس ذات العضوية الثابتة واقرت المادة تلك ، بموافقة عدد من الدول الصغيرة نفسها ، شعورا منها بان الموقف الدولي ، لا يبيح الانسياق وراء اعتراضات قد لا تكون من ورائها اية نتائج ايجابية .

والواقع ان كل ما كان يعني الدول الصغيرة في ذلك الحين هو ان تقوم الهيئة الاممية على قواعدها بالفعل ، وتنتصب كحقيقة واقعية فعالة ، يمكنها ان تساهم بأية صورة من الصور في جهة تصفية الاستعمار واقامة التوازن العالمي الجديد الذي كان يهدف اليه الجميع ، وكان الشعور السائد في احوال من هذا القبيل هو ضرورة تعبيد الطريق امام الامم المتحدة ، والامتناع عن تقييد ميلادها بمختلف الاعتراضات والمماحكات المختلفة ، ولعل بعض الدول الكبرى نفسها ، كان يحدوها نوع من هذه الرغبة الملحة في قيام الامم المتحدة باي ثمن كان ولو ادى ذلك الى غض الطرف عن بعض البنود التي يمكن ان تكون غير مرغوب فيها فقد كان من الجائز ان يثير الاتحاد السوفياتي مثلا اعتراضات طويلة وعريضة حول طريقة تركيب الكتابة العامة لهيئة الامم كما بدأ يفعله الان في غضون السنوات الاخيرة ولكنه لم يتصلب في هذا الموضوع ، اثناء مؤتمر سان فرانسيسكو سنة 1945 وقد وفر ذلك على المنظمة كثيرا من العقبات التي كان من الضروري ان تعترض قيامها منذ البداية .

★ ★

ذلك بعض من جوانب الملابسات التي رافقت ميلاد الامم المتحدة وكانت لها تأثيرات متفاوتة في صياغة بنود ميثاق الهيئة الاممية وتكييف بعض الانظمةالتي تسودسير هذه الهيئة، لحد الآن ، لكن الى اي حد تؤثر هذه الملابسات في مركز المنظمة في الوقت الحاضر ؟ وما هي المظاهر التي يتجلى فيها ذلك ؟ ان مقارنة بسيطة بين ظروف ولاية (هامرشولد) الامين السابق ، والاحوال التي انبثقت عنها ولاية الامين العام الحالي — مقارنة من هذا النوع تدلنا على مقدار التحول الذي لا يفتأ يميز مواقف بعض الدول الاعضاء في الامم المتحدة ، وما يسببه ذلك من تعقيدات في تطبيق الدستور الذي اقر بسان فرانسيسكو سنة 1945 ، هذا مع العلم بان هذه التعقيدات لابد ان تزداد اتساعا وتطورا بمقدار اتساع نطاق المصالح الدولية المتعارضة وتطور الافكار والنظريات بهذه المصالح سواء على وجه او آخر ، لقد تم الاتفاق بعد انتهاء ولاية (تريكف لي) الامين السابق — تم الاتفاق حول تعيين (هامرشولد) بصورة يمكن اعتبارها سهلة ميسورة ، اما حينما دعا الامر الى تنصيب امين جديد في اعقاب حوادث الكونغو التي توفي خلالها (داغ هامرشولد) فان الخلاف بين الشرق والغرب حول منصب الامانة العامة وطريقة تركيبه — هذا الخلاف كان قد بلغ درجة بعيدة جدا ، ولم يكن موضوعه في الواقع شخصية معينة كـ (طانط) او غيره ، وانما كان موضوعه الجوهري ذلك البند من الميثاق الذي ينص على اسناد منصب الامانة العامة الى شخص واحد ، يعززه مساعدون من دول مختلفة ، بينما اصبح السوفييت يطالبون بالغاء هذا النظام واستبداله بنظام اللجنة الثلاثية الشهيرة التي يمكنها ان تتسلم زمام الامانة العامة على ان يكون احد اعضائها غربيا والاخر شيوعيا والثالث منتسبا الى الكتلة الحيادية او عالم الدول المتخلفة اي ان الروس قد اصبحوا يطالبون بتعديل مهم يجب ان يدخل على قمة الجهاز التنظيمي للامم المتحدة بعد ان انقضت فترة طويلة من الوقت منذ ان وافقوا على عموم ميثاق الهيئة في سان فرانسيسكو سنة 1945 ومن الجائز جدا ان تثار المشكلة من جديد في نهاية السنة الحالية وذلك عندما يحل الانتداب الموقت للامين العام الحالي الى نهايته ويدعو الحال حينئذ الى تثبيت السيد (طانط) بصورة رسمية او اختيار امين عام جديد ، فهل ينتهز الروس حينئذ تجدد الفرصة المواتية وينطلقون مرة اخرى الى الدعوة لوجهة نظرهم حول اللجنة الثلاثية وما يتصل بها من اجراءات وتنظيمات من شأنها ان تقلب نظام الامانة العامة الحالي رأسا على عقب ؟ قد يرى البعض ان هناك امكانية للاغضاء من جانب الروس عن هذه القضية ولو بصورة موقتة ، وذلك نتيجة للتحسن العام الحالي الذي طرأ على الموقف الدولي بعد توقيع الاتفاقية النووية الاخيرة بموسكو ، لكن هذا الاغضاء — في حالة ما اذا وقع — فان بواعثه ستكون ولاشك بواعث تكتيكية وموقتة ، ولا يمكن ان يدل على ان نظرية اللجنة الثلاثية التي يتمسك بها الكرملين قد وقع التخلي عنها بصورة جدية وحاسمة ، لان هذه النظرية ترتبط ببعض النقط الاساسية في الستراتيجية السياسية الروسية، وليس من اليسير ان تنقلب هذهالستراتيجية بصورة اوتوماتيكية عفوية وان كانت بعض خطوطها تتغير في بعض الاحيان تبعا لبعض الاعتبارات السطحية الطارئة ، على ان النزوع الى اجراء نوع من التعديل على بعض البنود المعينة في ميثاق الامم المتحدة هذا النزوع لا يختص به السوفييت والكتلة التي تنتسب اليهم ، فهناك دول عديدة اخرى تعتقد — هي كذلك — بضرورة او على الاقل بملاءمة مثل هذا التعديل وذلك من اجل تقويم بعض المقتضيات التي يتضمنها الميثاق ، والتي لم تعد في مستوى التطورات العالمية الحديثة ، وايضا من اجل تقوية جهاز المنظمة الاممية وجعله اكثر قدرة على الاستجابة للحقائق الناشئة عن تحرر اسيا والقارة الافريقية ، والدول العديدة التي تتبنى آراء من هذا القبيل تنتمي في مجموعها الى طبقة الدول الصغيرة والمتخلفة واغلبيتها — وان كانت تساهم عمليا الان في عضوية الامم المتحدة — فانها لم تشارك من قبل في وضع ميثاق سان فرانسيسكو ولم تناقش فصوله وبنوده نتيجة وجودها حينئذ تحت اشراف الدول المستعمرة وعدم قدرتها آنذاك على اتخاذ اية مبادرة ذات صبغة سياسية دولية ، ان وجهة نظر الدول هذه في الموضوع تتركز بصورة خاصة حول البنود المتعلقة بنظام مجلس الامن ، وطريقة تركيبه ودرجة تمثيله لمختلف المناطق العالمية وصلة كل ذلك بقدرته على

تحقيق المهام الكبرى المنوطة به سواء في ميدان السلامة الدولية او غير ذلك، فالمجلس حسب وجهة النظر التي تعتنقها دول من هذا القبيل – لا يمثل بتركيبه الحالي مختلف المناطق العالمية الهامة ، ولا يستطيع لذلك ان يعكس باستمرار وجهات النظر الرئيسية في العالم بكل ما لها من صلة بالتيارات الفكرية والسياسية والعقائدية التي تجتاح دنيانا المعاصرة وتؤثر على وجهتها في كافة الميادين فاذا كانت اوربا شرقيها وغربيها وامريكا الشمالية ممثلة في المجلس بصورة دائمة مع ما للدول الممثلة لها من حقوق في نقض القرارات وتبنيها فان مناطق اخرى من العالم لها اهميتها القصوى في الحياة الدولية العامة لا تجد سبيلا الى تمثيل نفسها في مجلس الامن الا بصورة دوريه موقتة ، وبشكل لا يضمن لها مراقبة منظمة وفعالة على سير الاتجاهات التي يتخذها هذا المجلس في مختلف القضايا والمشاكل العالمية الكثيرة ، وباستثناء الصين التي يمكن اعتبارها ممثلة لمجموع منطقة الشرق الاقصى وجنوب شرقي آسيا فان باقي القارة الاسيوية ومجموع افريقيا وامريكا اللاتينية يشملها هذا الاعتبار بكل مقتضياته ونتائجه ، على انه ليس من الممكن حقا ان تدرج الدول كلها جملة واحدة في عضويه مجلس الامن اذ ان هذا المجلس هو مجرد فرع من فروع الامم المتحدة ، يختص بالنظر في قضايا الامن الدولي علاوة على بعض الصلاحيات الاخرى ذات اهمية متفاوتة لكن اذا لم يكن هناك مجال لتوسيع نطاق مجلس الامن بمثل هذه الصورة المطلقة فان ثمة على الاقل امكانية لتوسيعه توسيعا نسبيا بشكل يضمن له استيعاب اهم المناطق الرئيسية بالعالم وتمثيل مختلف التيارات ووجهات النظر الدولية القائمة في ربوعه ، وتذكر في هذا المقام ، مناطق عالمية مهمة يرى الكثيرون انه من اللازم ان تجد وسيلتها الى التمثيل في مجلس الامن بصورة دائمة على الرغم من ان الدول التي تختار لتمثيل هذه المناطق تتغير باستمرار وبنسبة ثلاثة سنوات لكل دولة فالمهم اذن هو ضمان تمثيل القطاعات الجغرافيه العالميه وليس تمثيل دولة مفردة بعينها ومن بين المناطق التي تذكر في هذا الصدد منطقة الشرق الاوسط والمغرب العربي وافريقيا السوداء وآسيا الوسطى واواسطاوروبا وامريكاالجنوبية والوسطى وهذه المناطق هي من اكثر المناطق حساسية في العالم ومن اشدها تأثيرا في سير الاحداث العالميةالراهنة ولهذا فان كثيرا من ذوي النظر في المجال الدولي يرون انه من الضروري اعادة النظر في نظام مجلس الامن وادخال تعديلات على ميثاق الامم المتحدة ، يتسع بمقتضاها نطاق هذا المجلس ، بحيث يرتفع عدد اعضائه من احدعشر الى خمسةعشر او عشرين عضوا يراعى في انتخابهم التمثيل الدقيق لكافة القطاعات الدولية الاساسية في العالم ، وهناك مشاريع قرارات من هذا القبيل تحتضنها دول او عدة كتل دولية تنتسب الى الامم المتحدة ، لكن هذه المشاريع لم تقدم الان للمناقشة العلنية ولذا فهي لا تكتسي لحد الان اي اعتبار على المستوى الدولي الرسمي والكتلة الغربية نفسها – وهي التي تستفيد اكثر من غيرها من مقتضيات النظام الحالي الذي يسود بعض فروع الامم المتحدة هذه الكتلة نفسها لا تنكر هي الاخرى امكانية اجراء تعديلات معينة على ميثاق سان فرانسيسكو وذلك كنتيجة لتجربتها خلال هذه السنوات مع هذا الميثاق واقتناعها بان بعض البنود التي يحتويها لا تتفق دائما – عن تطبيقها – مع المصالح الغربية الاساسية ومما يثير الانتباه حقا في هذا الموضوع ان نظام التصويت في مجلس الامن وما ينطوي عليه من اشتراط موافقة الدول الخمس الدائمة ، وبكل ما يخوله من استعمال حق النقض عند الاقتضاء ، هذا النظام – وان كان يشكل امتيازا يعود التمتع به الى الدول الغربية الثلاث ، بالاضافة الى الصين والسوفييت – فانه لم يعد يثير عناية الغربيين كثيرا واهتمامهم ، بل ان بعض الاوساط السياسية في الغرب ، قد اصبحت تنتقده وتوجه ضده الكثير من الملاحظات والمؤاخذات وبالطبع فان الكتلة الغربية تعتبر منطقية مع نفسها في اتخاذ موقف من هذا القبيل ، ذلك ان حق النقض – وان كان من الامتيازات المهمة ، التي تتمتع بها – فان هذا التمتع لا يعدو ان يكون ذا اهمية نظرية لا غير ، فليس من بين الدول الغربيه من لجأت الى استعمال حق النقض ، الا في حالات استثنائية وقليلة جدا ، وتبدو الولايات المتحدة اكثر الدول الكبرى استغناء عن اللجوء الى هذا الحق ، بينما يضرب الاتحاد السوفياتي في هذا المضمار رقما قياسيا شديد الارتفاع، اذ ان عدد مرات استعماله لحق النقض خلال الخمسة عشر سنة الماضية، قد تجاوزت المائة بالتأكيد، ولهذا فان السوفييت يبدون وهم اشد حرصا على الابقاء على نظام الفيتو بينما لا يظهر ان الامريكيين يمانعون في تحوير النصوص الدستورية التي تقره ، وذلك بالصورة التي تحول دون استعماله بصورة مبالغ فيها ، وفي مختلف الظروف والاحوال العارضة ومن البديهي ان موقف السوفييت والامريكيين بهذا الصدد يتأثر بالمصالح الدولية التي تهم كلا من الجانبين والظروف الخاصة التي تحيط بنشاطهما السياسي والديبلوماسي داخل الامم المتحدة وفي مختلف انحاء العالم فكل من موسكو وواشنطون يبتغي الحفاظ باستمرار على اقوى مركز ممكن في حظيرة الهيئة الاممية ، وعلى مستوى لا يبيح للجانب الاخر اية فرصة للظفر والتفوق وكل منهما يرى – في نطاق موقفه هذا – ان هناك ضرورة لتعديل بعض بنود ميثاق الامم المتحدة الا ان وجهات النظر حول الموضوعات التي يجب ان يتناولها التعديل – وجهات النظر هذه تبدو متناقضة على وجه او اخر فبينما يشدد الروس على وجوب تعديل نظام الامانة العامة ، يعارض الامريكيون ومن يلوذ بهم هذه النظرية معارضة مطلقة هذا فيما يتسرم

الغربيون من المغالاة في استغلال حق النقض بمجلس الامن ، ويودون لو تم تعديل نصوص هذا الحق بشكل او آخر ، الا ان الروس يبدون عارم المعارضة ضد هذه الفكرة لانها اذا ما اقرت ووقع تحديد اللجوء الى الفيتو فان المجال سيضيق جدا بالكتلة الشيوعية في ميدان الامم المتحدة ، وذلك لضآلة عدد الاصوات التي تضمن الحصول عليها باستمرار وضخامة الرصيد الذي يتوافر للغربيين في هذا المجال .

★ ★

لقد انقضى الآن على ميلاد الامم المتحدة اكثر من ثمانية عشرة سنة واجتازت المنظمة هذه مراحل وفترات هامة يعتبر بعضها من اهم فترات التاريخ الانساني في العصر الحاضر ولاشك ان من بين الحقائق الكبرى التي بلورتها كل هذه السنوات المنصرمة ، هي ان الميثاق المصادق عليه في سان فرانسيسكو لا يمكن ان يبقى جامدا دائما للتجارب الانسانية المتجددة ، والتطورات التاريخية المتعاقبة وانه من الضروري ان يجري عليه من التعديلات المناسبة ما يمكنه من التلائم مع مقتضيات الحياة الدولية الراهنة ، بكل ما تعج به من عناصر التعقيد ، وما تزخر به من عوامل التناقض والتصادم، وقد فطن واضعو الميثاق والموحون ببنوده وفصوله فطنوا الى اهمية هذه النقطة وحيويتها فلم يغفلوها عن الاحتمالات والمقتضيات التي تترتب عن اصدار ميثاق دولي من هذا النوع ووضعه موضع العمل والتطبيق لقد اقرت المادتان 8 و 9 من ميثاق سان فرانسيسكو ــ اقرت هاتان المادتان مبدأ ادخال التعديلات على دستور هيئة الامم المتحدة وذلك في حالة ما اذا ظهرت حاجة الى ذلك وصادقت عليه الجمعية العامة باغلبية ثلثي الاصوات ، غير ان هذا النص المتعلق بالتعديل ينطوي في صلبه على اشتراطات مهمة لها صلة بامكانية تطبيق هذا المبدأ اذا ما كان له ان يطبق في يوم من الايام ومن ذلك ما يشير اليه من انه من الضروري حصول موافقة الدول الخمس ، ذات العضوية الدائمة في مجلس الامن ، موافقتها على اجراء اي تعديل لكي يصبح مجازا من قبل الجمعية العامة للامم المتحدة وهذا الامتياز الممنوح للدول الكبرى الخمس هو مجرد امتداد للامتيازات المخولة لهذه الدول في مجلس الامن والقاضية لها بحق العضوية الثابتة ، واستعمال حق النقض ضد القرارات المتخذة اذا كانت تكتسي صبغة غير اجرائية على انه بالرغم من وجود هذا النص في الميثاق المقرر لمبدأ التعديل ومقتضياته فان دستور الامم المتحدة لا يزال ــ في خطوطه الاساسية والتفصيلية ــ على نحو ما كان عليه منذ ان اقر لاول مرة في (سان فرانسيسكو) سنة 1945 ، والذي يلاحظه المرء بهذا الصدد ، ان هناك نوعا من التناقض الغريب بين الاكثار من الدعوة الى التعديل وبين الاحجام عن اجراء هذا التعديل سواء بنسبة او اخرى ويعود ذلك ــ بصورة رئيسية ــ الى

الصعوبات البالغة التي لابد ان تعترض اية مبادرة تعديلية كيفما كان نوعها واتجاهها ، وسواء اقترحتها هذه الدولة او تلك او احتضنتها هذه الجماعة او الاخرى من المجموعات الدولية المنتسبة للامم المتحدة فالدولة او الكتلة الدولية التي يمكن ان تضع صيغة تعديلية معينة ثم تقدمها الى المنتظم العام مقترحة بموجبها تغيير مادة من المواد التي يتضمنها الميثاق، او اقرار اضافات جديدة الى صلبه الاصلي او الغاء بند ما من البنود التي تشتمل عليها ابوابه ــ هذه الدولة او المجموعة الدولية قد يكون هناك في الغالب من مصالحها الخاصة ما يحفزها على تقديم مثل هذه الاقتراحات بالالغاء او التعديل الدستوري سواء على شكل او آخر ، وهذه المصالح لا يمكن ان تكون دائما منسجمة مع مصالح كافة المجموعات الدولية الاخرى واهدافها واتجاهاتها الخاصة والعامة ، ولهذا فان مثل هذه المجموعات الدولية لابد ان تقابل اقتراحات هذا القبيل بالمعارضة والرفض ، او تواجهها على الاقل بنوع من السلبية واللامبالاة ، ومن هنا يبدو مظهر الصعوبة في اقرار مبادرة تعديلية حقيقية على ميثاق الامم المتحدة في الوقت الحاضر وهذه الظواهر اصبحت من الوضوح بدرجة كبيرة جدا وتسلم بها الآن اغلبية الملاحظين السياسيين وخبراء الشؤون الدولية في العالم ، على انه اذا كان من غير الممكن هكذا وضع الميثاق الامسي في الوقت الحاضر موضع الاصلاح والتحوير المباشر فان هناك ــ مع ذلك ــ مجالا لاتخاذ بعض الخطوات الاصلاحية في حظيرة الامم المتحدة دون ان يدعو الامر ــ نتيجة لذلك ــ الى اجراء تغييرات ذات صبغة دستورية ، ان النقطة الجوهرية التي تلتقي حولها الآراء في هذا المجال هي ان المنظمة يجب ان يتسع نطاق نشاطها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي مثل ما هو عليه الامر فيما تقوم به من نشاط سياسي على المستوى العالمي الواسع ، وهناك ايضا مجال كبير لتعزيز طاقة المنظمة الاممية وتوفير المزيد من الوسائل لها ، لكي تستطيع القيام باعبائها في مختلف الميادين التي تهم الحياة الانسانية العالمية ، وقد كانت الدورة الماضية التي عقدت في خريف 1962 كانت مدعاة الى التفكير في مشاريع اصلاحية من هذا القبيل ، احتضنتها بعض الدول التي تبدي قدرا من الاهتمام بنشاط الامم المتحدة ووضعت في شكل مقترحات تضاف الى العديد من الاقتراحات التي تتلقاها الهيئة الاممية في مختلف الميادين ، ويثير النظر في هذا الصدد مشروعان غربيان احدهما فرنسي والاخر امريكي ، كان قد اشير اليهما في اواسط السنة الماضية ، وبمناسبة قرب انعقاد الدورة السابقة للامم المتحدة ، ويرمي هذان المشروعان الى ادخال عدد من المحاولات الاصلاحية على جهاز الامم المتحدة وذلك بقصد تعزيز فعالية المنظمة الاممية وتعميق مؤثراتها الايجابية على الصعيد الدولي والعالمي

ودون ان يمس ذلك بنصوص الميثاق الحالي او يثير قضية تعديله على اوجه من الوجوه ، ومن بين النقط المشتركة بين هذين المشروعين : الدعوة الى اصلاح السيطرة التي تتبعها الجمعية العامة في مختلف ميادين نشاطها العادي ، وبالاخص ما يتعلق من ذلك باعمال التحقيق في القضايا ، والتوسط في المنازعات العارضة ، ويعني المشروع الامريكي خاصة بالجوانب الاقتصادية من نشاط الامم المتحدة فيدعو الى اعادة تنسيق المصالح الاقتصادية التابعة للهيئة وتكييف نشاطاتها في هذا المجال تكييفا يجعلها اكثر فاعلية وابعد اثرا ، وقد تكفل الفصلان التاسع والعاشر من الميثاق بشرح اختصاصات وسلطات المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للامم المتحدة ويبدو من دراسة المواد التي يتضمنها هذان الفصلان ان واضعي الميثاق قد وفروا لهذا المجلس كثيرا من عناصر التناسق مع الفروع الاخرى التابعة للمنظمة كربط العلاقة بين المجلس وكافة الدول الاعضاء وعقد الصلة بينه ايضا وبين مجلس الامن والجمعية العمومية بل ومختلف الجهات التي تتحمل مسؤوليات اقتصادية واجتماعية في مختلف انحاء العالم لكن الذي يقترحه المشروع الامريكي هو العمل على زيادة فروع احكام هذا التناسق وتوسيع مداه حتى تتم اثارة مختلف فروع نشاط الامم المتحدة في الميدان الاقتصادي وبصورة اكثر فاعلية واشد دقة ونفوذا ولا تخص الجهات الغربية بهذه المظاهر من العناية الايجابية باتجاهات عمل الامم المتحدة ونشاطها على مختلف المستويات فالدول او المجموعات الدولية الاخرى ما برح بعضها يعبر بين وقت وآخر عن بعض الرغبات والمقترحات من هذا القبيل ، وترمي المقترحات في مجموعها الى مضاعفة فرص التلاؤم بين الامم المتحدة والحقائق العالميه الراهنة ولو بدون اللجوء الى ادخال تعديلات او اضافات على ميثاق سنة 1945 ، واذا كانت المشاريع والاقتراحات من هذا النوع لا تجد دائما السبيل لكي توضع على مسرح النقاش في المنتظم العام مثل ما هو عليه الامر في المسائل والقضايا العالمية التي تعالجها الامم المتحدة حسب مسطرتها المألوفة – اذا كانت المشاريع والاقتراحات الاصلاحية من هذا القبيل لا تصل غالبا الى درجة ان تحتضنها الامم المتحدة بصورة رسمية وتعدل منهجها في العمل والتصرف – على الرغم من ذلك فان روحا جديدة قد اخذت تؤثر اكثر من اي وقت مضى على روح المنظمة الاممية وتحفزها على التجاوب تجاوبا اعمق مع المتطلبات الانسانية الراهنة ، سواء في ميدان التنمية الاقتصادية ، او على صعيد العمل الثقافي والاجتماعي ، ويلاحظ المراقبون بهذا الصدد ان هيئة الامم التي كانت القضايا السياسية العالمية تطغى على الكثير من وجوه نشاطها العام – اصبحت الان تتجه فعليا الى اعادة نوع من التوازن الضروري بين الاهتمام بمثل هذه القضايا وبين العناية بجوهر المشاكل الاقتصادية والاجتماعية العالمية .. هذه المشاكل التي اخذت تنال من نشاطها حظا اوفر بكثير مما كانت توليه من قبل لمثل هذه المواضيع ، ويعلل ذلك – حسب آراء بعض المراقبين – بانه نتيجة حتمية للتطور الجذري الشامل الذي طرأ على العالم ، وافضى في النهاية الى اختفاء مظاهر النظام الاستعماري القديم ، ونشوء عدد كبير من الدول الفتية المستقلة حديثا ينتسب غالبها الى القارة الافريقية البكر، فاستقلال هذه الدول وبروزها بالتتابع على المسرح الدولي ادى بطبيعة الحال الى تغيير كثير من المعطيات والحقائق التي كان يقوم عليها التوازن العالمي القديم وقد كان هذا التوازن يعتمد في اسه على اعتبارات اقتصادية وسياسية ، تعني الدول الكبرى فيما بينها بصورة خاصة ، بحيث ان الشعوب الاخرى المستعمرة في افريقيا وآسيا كانت تحسب كمجرد عناصر مكملة لمجموعة الدول الامبريالية والصناعية الكبرى في اوربا ، وداخلة في نطاق قوتها الاقتصادية والبشرية التي يقوم عليها مستوى التوازن العام في العالم ، وكانت مثل هذه الاحوال تجد انعكاسات واسعة لها في مختلف المجالات الدولية والعالمية بما في ذلك الامم المتحدة ايضا حيث كانت هذه المنظمة تعاني من سيطرة الدول الكبرى ونفوذها – وان كان ذلك بصورة محدودة نسبيا ، وكانت هذه السيطرة تدفع بالمنظمة الاممية الى اغفال كثير من الحقائق الملحة ، المتعلقة بحياة الشعوب المتخلفة ، وتركيز النظر – عوض ذلك – في مختلف القضايا المتصلة بالصراع بين الشرق والغرب ، والحرب الباردة التي يتبادلانها في كافة انحاء العالم ، ان هناك الان بالفعل تغيرا جوهريا في اتجاهات الامم المتحدة ، والاختيارات التي تحتضنها وطبيعة الاهتمامات التي تتحكم في سير نشاطها سواء على المستوى الفلسفي او العملي بكل صوره وانواعه وتبرز شعوب العالم الثالث الان ، كموضوع رئيسي لاهتمامات المنظمة العالمية وكمجال اساسي لتحقيق وجودها وتأكيد رسالتها في مجال التهدئة والتطوير والبناء ، ولا ريب ان هذا التغير في اتجاهات الامم المتحدة واختياراتها الاساسية هو من اهم الاحداث التي عرفتها هذه المنظمة منذ سنة 1945 بل من بين اهم التطورات الراديكالية التي عرفها العالم في سنوات ما بعد الحرب ، وقد اشرف الامين العام الحالي منذ عدة شهور على وضع الخطوط العريضة لبرنامج واسع المدى ، من المفروض ان تحتضنه الامم المتحدة وذلك في نطاق وجهتها الجديدة التي تقوم على محاولة احداث تطور جوهري وحاسم ، في مجرى الحياة الاقتصادية والاجتماعية بالعالم واقامة توازن عالمي جديد تجد فيه الدول المتخلفة سبيلها لتحقيق نمو عام ومتكامل في مختلف الميادين ، وبرنامج الامم المتحدة هذا يدعى بـ « البرنامج العشري من اجل التنمية » وقد صادق عليه المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للمنظمة خلال دورة

عقدها في اوائل صيف سنة 1962 ، ويرمي المشروع في اساسه الى تنمية الدخل القومي للدول المتخلفة بنسبة 5 في المائة ، وذلك خلال مدة اقصاها سنة 1970 ومن بين الوسائل التي يحددها البرنامج للوصول الى اهداف من هذا القبيل : العمل على تطوير مختلف القوى الاقتصادية والاجتماعية للبلدان المتخلفة من تعليم وزراعة وصناعة وتخطيط وغير ذلك ويمكن للمنظمات المختصة التابعة للامم المتحدة كاليونيسكو ومنظمة الزراعة والتغذية ومنظمة الصحة العالمية – يمكن لهذه المنظمات ان تساهم بقسط وافر من المساعدات الضرورية في هذا السبيل، وذلك على اساس التعاون فيما بينها وبين الدول المتخلفة ، التي يتعين عليها بموجب المشروع ان تفتح المجال واسعا لتنسيق سياساتها الاقتصادية مع سياسة الامم المتحدة في هذا المجال وذلك لكي يمكن للمشروع ان يصل الى اهدافه المتوخاة في مدى عشر سنوات على ان برنامجا كهذا اذا كان ممكنا جدا من الناحية الفنية ، فان صعوبات عديدة ، لابد ان ان تواجهه بصورة اخص ، من حيث الاحتياجات المالية والتجهيزية ، ذلك ان المتطلبات المادية التي تقتضيها برامج من هذا النوع – ترمي الى استيعاب المشاكل الاقتصادية المعقدة في مجموع العالم الثالث – ان هذه المتطلبات لابد ان تكون باهظة وواسعة المدى الى حد بعيد ، والامم المتحدة – محصورة في نطاق الامكانيات المتهيئة لها لا تستطيع ان تنهض باي قسط من الاعباء المادية الثقيلة التي تقتضيها مخططات عالمية وبعيدة الاجل كهذا المخطط الذي تشرف على اعداده مصالح الامانة العامة للهيئة بالتعاون مع المجلس الاقتصادي والاجتماعي بل ان الامم المتحدة تعاني فعلا مظاهر عجز مالي خطير في ميزانيتها المخصصةللكونغو وفي الموارد التي تصرفها الوكالات التابعة لها كوكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين مثلا ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فان الدول المتخلفة نفسها ليس لها من الامكانيات المتوافرة ما يمكنها من مواجهة جميع المتطلبات الضرورية في هذا المجال ، ولا يعود السبب في ذلك الى مجرد تخلف هذه الدول واتصافها بالفقر في مختلف الميادين ، وانما يؤول الامر في ذلك او جانب هام منه على الاقل – الى الاحوال العامة التي تسود نظام التجارة الدولية والظروف التي تتحكم في توجيه حالات العرض والطلب ، على مستوى الاسواق العالمية .. هذه الاحوال والظروف التي تجعل الدول المتخلفة باستمرار تحت رحمة الاتحادات الصناعية العالمية التي ترفع من قيمة المواد الاولية الاتية من افريقيا وآسيا متى اقتضت مصلحتها ذلك وتخفض منها طبقا لما يتفق مع حساباتها وتقديراتها التجارية الخاصة ، ان هناك اتجاها عاما يسود مختلف الشعوب المتخلفة ويدعوها بالحاح الى مضاعفة السعي من اجل الخروج من نطاق التخلف ومحاربة عوامله واسبابه وتتخذ اقطار العالم الثالث في آسيا او افريقيا او امريكا الجنوبية – تتخذ مناهج عديدة ومتباينة من اجل تحقيق بعض التقدم في هذا السبيل فمن بين هذه الدول من يعتمد على اساليبه الخاصة في محاولة تحقيق هذا التقدم ، وهناك الكثير من الدول الاخرى التي تؤثر سبيل التعاون فيما بينها معتمدة في ذلك على سياسة تخطيطية مشتركة تستوعب مختلف المشاكل الاقتصادية والاجتماعية القائمة، وتهدف الى التخفيف من هذه المشاكل ، او استصفائها ضمن الاطار القاري كما هو متمثل في برنامج التحالف من اجل التقدم بامريكا اللاتينية مثلا او داخل نطاق تكتلي كما هو الشأن في المنظمات الاقتصادية التابعة للحلف المركزي بالشرق الاوسط او حلف جنوبي شرقي آسيا بالشرق الاقصى ولاشك ان سياسة التنمية الذاتية هذه التي تتهافت عليها مختلف الدول الضعيفة اقتصاديا قد ساعدت على تغيير كثير من اوجه الحياة عند هذه الدول ، واعانت بعضها على مواجهة مشاكل التخلف بصورة لا بأس بنتائجها الاجمالية الا ان المعضلة ستبقى مركزة مع ذلك في عجز الدول المتخلفة عن تمويل المشاريعالتطويرية التي تتبناها في هذا المضمار وازدياد التعقيدات امامها بهذا الصدد – نتيجة النظام الذي يسيطر – كما قدمنا – على نظام التجارة الدولية والاختلالات التي يسببها ذلك على مستويات الموازين التجارية لهذه الدول ثم هذا التدهور والتسلسل الذي ياخذ برقاب البلدان المتخلفة كنتيجة لاحتياجها – من جهة – الى الاموال الاجنبية في تجهيز المشاريع التي تخططها وعجز منتوجاتها وتجارتها من جهة اخرى – وبسبب ذلك – عن اختطاط طريق سليم وحقيقي لغزو الاسواق العالمية بصورة دينامية وذات عوائد مضمونة ومنتجة وخلال ذلك كله تتراكم مشاكل التخلف العالمي وتتضاعف اثارها وعواقبها بمقدار ما يزداد تضخم السكان وتشتد الحاجة الى مواجهة المتطلبات المادية والروحية الملحة الناشئة عن كل ذلك وهناك على هذا الصعيد حالتان اساسيتان تندرج في عمومهما كثير من صور العلاقات الاقتصادية الدولية من هذا القبيل فالاولى حالة الدول المتخلفة التي ترتبط بنظام الاحلاف والكتل اما مباشرة او بصورة غير مباشرة وهذه الدول بحكم تبعيتها السياسية الدولية تهيأ لها امكانيات للاستفادة الاقتصادية لا يمكن نكران اهميتها وفاعليتها لكن اكثرية الاقطار المتخلفة الاخرى سواء في آسيا او افريقيا لم يكن لها لتستسيغ سلوك مثل هذه السبل ، في العلاقات الدولية ولم تزل تؤثر عوضا عنذلك انتهاج طريق الحياد وعدم الانحياز وفي ذات الوقت ترغب جميعها في تركيز علاقات اقتصادية واسعة ومتطورة سواء مع هذه الكتلة او تلك من بين الكتل المتنافسة في العالم ، واستغلال ذلك في محاربة التخلف الذي يجثم على مرافق حياتها العامة غير ان الرغبة هكذا في التوفيق بين مبدأ التحرر الاقتصادي وعدم التبعية السياسية من جهة وتحقيق التنمية الاقتصادية الراديكالية من

جهة اخرى – ان الرغبة في مثل هذا التوفيق – وان كانت تؤدي احيانا – الى نتائج حقيقية – الا انها لا تساعد دائما على استمرار مثل هذه النتائج وتتابعها بالشكل الذي يمكن من تحقيق نهوض جوهري وعام طبقا لما ينشده الجميع في مختلف اقطار العالم الثالث ، وهناك كثير من الاسباب السياسية التي تفسر الكثير من المعطيات الماثلة في هذا المقام الا ان هذه الاسباب السياسية ليست دائما هي كل شيء في موضوع من هذا القبيل ، فهناك كذلك عوامل دولية اخرى ترتبط في مجموعها بجملة من الاعتبارات الاقتصادية البحتة – لها هي الاخرى – تاثيرها الكبير في هذا الموضوع ، ذلك ان الدول الكبرى نفسها لم تعد تجد بدا من سلوك سياسة خاصة للتكامل الاقتصادي فيما بينها مما اصبح ضرورة ملحة امام الحقائق الحضارية المعقدة في عالم اليوم ، وعلى اساس مبدأ التكامل هذا بين الدول المتقدمة صناعيا واقتصاديا نشأ نظام السوق الاوربية المشتركة في الغرب ، ومنظمة « الكوميكون » اي هيئة التنسيق الاقتصادي لمجموع الدول الشيوعية في اوربا وغيرها ، وبدأ التفكير علاوة على ذلك – يتجه الى انشاء كتل ثنائية او ثلاثية على هذا الغرار تجمع بين الولايات المتحدة وبريطانيا مثلا ، او بين هذه الاخيرة وبين اسبانيا والبرتغال او بين دول واخرى من هذا القبيل ، والظاهرة التي تثير النظر بهذا الصدد هي ان العلاقات بين هذه المنظمات الاقتصادية الاوربية لا تقوم دائما على قاعدة التعاون في اطار المصلحة الاقتصادية العالمية بل ان روحا من التنافس السلبي بل والتصارع احيانا يسيطر على جو العلاقات بين هذه المنظمات ويقود البعض منها الى نوع من الانكماش الاقليمي ، كما يقود البعض الآخر الى المغالاة في تقديس المصالح التكتلية ولو على حساب الشعوب المتخلفة وشبه المتخلفة في بقية انحاء العالم ، ومن الجلي ان استمرار احوال من هذا النوع ليس من شأنه ان يساعد على ازدهار التجارة الدولية بالصورة المطلوبة وليس من شأنه ايضا ان يعين على تطور الاقتصاد العالمي بالشكل الذي يتلاءم مع الرغبة في محاربة التخلف بالعالم ، واقامة توازن اقتصادي جديد تصبح فيه المناطق العالمية اكثر استعدادا للتكامل فيما بينها على اساس جدي وسليم ، ومن هنا يتجلى مقدار الاهمية التي اصبحت تميز سياسة الامم المتحدة في هذا الموضوع والاثر الذي يمكن ان يحدثه ذلك على مصائر الحياة الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية بعالمنا الحاضر ، فخطة الامم المتحدة طبقا للمشروع الذي يتبناه المجلس الاقتصادي والاجتماعي بالتعاون مع الامانة العامة – هذه الخطة ترمي الى تعزيز الجهود التي تبذلها الامم المتخلفة للخروج من نطاق التأخر الاقتصادي الذي تعاني منه باستمرار ، وعمل الامم المتحدة في هذا المقام يستهدف اولا محاولة تنسيق المبادرات والجهود المحلية المبذولة ، والمساعدة على ايجاد الاطر الضرورية اللازمة لتنفيذ ذلك ، ثم اهم من هذا كله العمل على توفير موارد مالية قارة تكفي الدولية التي تعني كلا من الجانبين والظروف الخاصة التي تحيط من هذا الطراز وينص المشروع الاممي بهذا الصدد على اللجوء الى منظمات دولية واسعة الامكانيات كالجمعية الدولية للتنمية التابعة للمصرف الدولي وهيئات عالمية اخرى من هذا القبيل وفي وضع مثل هذه الهيئات ان تقدم مساعدة مهمة في هذا المضمار تحت اشراف المجلس الاقتصادي والاجتماعي نفسه وبالتعاون مع المعنيين في كافة الدول المتخلفة بالعالم ولا يستبعد المشروع امكانية الانتفاع برؤوس الاموال الاجنبية الخاصة ، غير انه لا يمكن الاعتماد عليها دائما في تمويل المشاريع الضخمة التي تقتضيها سياسة واسعة المدى كسياسة محاربة التخلف بالعالم ، ولتوفير مورد قار وغني بالامكانيات من اجل انجاز اهداف من هذا المستوى لابد من تعاون دولي منظم يستهدف تحقيق نوع من التكافل الايجابي بين الدول الغنية والشعوب المتخلفة ، وترى الامم المتحدة – من خلال البرنامج العشري الذي يتبناه المجلس الاقتصادي والاجتماعي – ترى انه من الضروري ان تتنازل البلدان المتطورة صناعيا عن واحد في المائة من دخلها القومي السنوي لاعانة مشاريع التنمية والنهوض بالبلدان المتخلفة ، وقد سبق ان اعلنت مطالبات من هذا النوع في بعض المؤتمرات التي عقدتها الدول النامية من اجل بحث المشاكل الاقتصادية التي تواجه « العالم الثالث» الا ان الموضوع الآن قد اصبح يكتسي صبغة اكثر جدية ورسمية مما كان عليه الامر في اي وقت مضى ، وتستعد الامم المتحدة في الوقت الحاضر لعقد مؤتمر عالمي للتنمية لاشك انه سيثير مجمل القضايا المتصلة بالموضوع ، والوسائل الدولية التي يمكن اتخاذها لمعالجته ، طبقا للسياسة الجديدة التي بدأت بها هيئة الامم في هذا المجال والمأمول على اي حال ان يعنى المؤتمر ببحث التجارة العالمية والعلائق الدولية مع الاسواق المشتركة سواء منها الموجودة او المقترحة ، وكثير من القضايا من هذا القبيل ، والمأمول – اهم من ذلك – ان يخلص من نتائج ابحاثه ومقابلاته الى سبل علمية وموضوعية ، تستطيع الامم المتحدة – على هديها – ان تؤدي واجبها في محاربة التخلف بالعالم ، واستقصاء اصوله وعوامله من الجوهر ، ومساعدة الاقطار الافريقية والاسيوية والامريكية اللاتينيه على التخلص منه بصورة صحيحة وفعالة ، وتهيئ المجال هكذا لاقامة التوازن العالمي الجديد في اطاره الحقيقي الذي يتفق مع نهاية الاستعمار ، وقيام عصر النهضة الانسانية المتكاملة .

سلا : المهدي البرجالي



انعقد بأديس أبابا خلال الاسبوع الثالث من شهر نونبر الماضي مؤتمر وزراء الشؤون الخارجية للدول الاثنين والثلاثين الاعضاء فى « منظمة الوحدة الافريقية » للنظر فى الخلاف المغربي الجزائري حول الحدود التي فرضها الاستعمار على بلادنا بعد أن اقتطع أطرافا منها .

وبهذه المناسبة كتب هذا الحديث عن القطر الذي وضع فيه ميثاق الوحدة الافريقية .

تعتبر الحبشة احد الاقطار القديمة التي عرفت فى العالم بتراثها العظيم الفريد ، اذ يرجع تاريخها الى ما قبل ميلاد المسيح عليه السلام بالف سنة ، فقد حكمها حكام انحدروا من ذرية سيدنا سليمان وملكة سبا ، واستمر ملكهم الى اليوم بغير انقطاع .

ومساحة الامبراطورية الحبشية مليون ومائتان وخمسة وثلاثون الفا من الكيلومترات المربعة ، وهي مساحة تقارب مجموع مساحات أوغندة وغانة والداهومي وتونس والمغرب فى حدوده الراهنة . وتقع الحبشة عند الشمال الشرقي من القارة الافريقية المشرف على جنوب البحر الاحمر ، وتبعد عن خط الاستواء نحو الشمال بأربعمائة كيلومتر . وهي تحد عند الغرب والشمال الغربي بجمهورية السودان ، وتحد من الجنوب بكينيا ، بينما تحد من الشرق والجنوب الشرقي بجمهورية الصومال . أما من الشمال الشرقي والشرق فتحد بالبحر الاحمر وبالصومال الخاضع للسيطرة الفرنسية .

ومعظم البلاد هضاب وجبال عالية تتخللها بحيرات متعددة وتخترقها انهار متدفقة . ولقد أصبحت بفضل مناظرها الجذابة ومناخها الصحي الممتاز جنة للسياح وكعبة يؤمها المولعون بالآثار وعلماء طبقات الارض وهواة صيد مختلف اصناف الوحوش والحيوانات .

وكان مثل الحبشة فى القارة الافريقية كجزيرة للاستقلال فى بحر من الاستعمار . فلقد ازدهرت بها عبر عهود التاريخ المختلفة ممالك عظيمة لا زالت المآثر والقصور والكنائس تشهد بوجودها وبمدى رقيها . وقد ورد ذكرها عند « هوميروس » و «هيرودوث» وغيرهما من كبار الكتاب الاقدمين ، كما جاء ذكرها ايضا فى القصص الدينية النصرانية وفى العهد القديم كذلك .

واذا كان الشعب الحبشي من اقدم السلالات فقد اتصل بغيره من الشعوب واختلط بها ، الا ان حضارته ظلت مع ذلك اصيلة كما تشهد بذلك النقوش والمآثر والانصاب المثبتة فيما بين الساحل عند البحر الاحمر والبحيرات الجنوبية . ولما كانت الحبشة بلادا موغلة فى القدم فان ثقافتها عتيقة أيضا . ثم أن هذه الثقافة متعددة المظاهر نظرا لاختلاف العشائر الحبشية التي دخلت الديانة النصرانية خلال القرن الميلادي الرابع . وقد كانت مدينة « اكسوم » العاصمة الدينية للبلاد قبل مجيء النصرانية . ولها اهمية أثرية وتاريخية فى مجال الثقافة الدينية اذ توجد بها اقدم كنيسة بنيت فى الحبشة ، وهي كنيسة « مريم صهيون » التي تعتبر من الآثار الدينية القديمة في العالم كله . وقد كانت هجرة المسلمين الاولى الى الحبشة كما هو معلوم ، وذلك لما امتازت به من التسامح منذ أقدم العصور .

والفلاحة هي السند الاول للاقتصاد الحبشي الذي يتطور تطورا مطردا ، فقد ازدهرت اخيرا بفضل استعمال الوسائل والادوات الحديثة في ارض خصبة تمتاز بطقس يتارجح بين الحرارة والاعتدال فساعد على تنمية الانتاج . كما ان للتجارة والنقل والمواصلات مساهمة هامة في تحقيق التطور الاقتصادي والاجتماعي بالبلاد الحبشية . فلقد بلغت نسبة تصدير البن خلال السنوات الاخيرة ما يتراوح بين 55 و 60 في المائة من مجموع الصادرات ، اذ ان الحبشة تصدر الآن ما يتراوح وزنه 55 الفا و 65 الف طن من البن الممتاز ، وهو ما قدرته وزارة التجارة والصناعة بنسبة اثنين في المائة من الصادرات العالمية من البن .

ولتربية الماشية اهمية كبرى في اقتصاد الحبشة ايضا ، فمجموع رؤوس البقر والغنم يقارب اثنين وعشرين مليونا . اما اذا اضفنا الى هذا العدد رؤوس الجمال والخيول والماعز فان هذا العدد يرتفع الى اثنين واربعين مليون راس . وتصدر الحبشة مقادير هامة منها ومن منتوجاتها من الوبر واللبن على السواء.

وتولي الدولة اهتماما خاصا لاستغلال ماتكتنزه الارض من المعادن التي تستعين على استخراجها بأحدث الوسائل ، ويوجد الذهب في طليعة هذه الثروة ، بينما ياتي استخراج « البوتاسيوم » في المكانة الثانية . وتتولى القيام بهذه الاعمال شركات من الولايات المتحدة الامريكية ومن المانيا الاتحادية . ولما كانت الحبشة تتوفر على انهار وبحيرات متعددة فقد اخذت الدولة تستغل تدفق المياه للحصول على الطاقة الكهربائية التي كثر استهلاكها واشتدت الحاجة اليها بحكم سياسة التصنيع التي اخذت البلاد بها في السنوات الاخيرة ، وخاصة فيما يرجع الى انتاج المنسوجات والادوات الفلاحية .

ولقد ادى هذا المجهود الموصول الى ارتفاع ملموس في مستوى معيشة السكان خلال الاعوام الاخيرة بفضل النجاح الذي حالف مشروع السنوات الخمس الاول وبفضل منجزات المشروع الثاني الجاري به العمل الآن . وقد انتعشت المواصلات وخاصة المواصلات الجوية نظرا لوعورة البلاد .

واذا كانت الحبشة من اقدم الاقطار الافريقية فان شعبها يتكاثر بنسبة عالية ، فعدد افراده يقارب اليوم اثنين وعشرين مليون نسمة يقوم على شؤونهم ويرعى مصالحهم الامبراطور هيلاسيلاسي الاول الذي هو الخليفة الخامس والعشرون بعد المائتين لاول ملك لهذه البلاد التي استرسل الملك فيها ثلاثة آلاف سنة فضربت الرقم القياسي في القدم بين الاسر المالكة في العالم اجمع .

وولد جلالة الامبراطور هيلاسيلاسي الاول يوم 23 يوليوز سنة اثنين وتسعين وثمانمائة والف في بلدة « غورو » من مقاطعة « حارار » . وكان والده هو صاحب السمو « راس ميكونين » الذي برز في واقعة « ادوا » التي دارت بعد ميلاده بأربع سنين . وبرهن الامير منذ شبابه الاول على ذكاء وحنكة نادرين يؤهلانه لتقلد مسؤوليات الملك ورئاسة الدولة فاسترعى بذلك انتباه عمه الامبراطور « مينيليك الثاني » الذي القى اليه مهمة الحكم وانعم عليه بارقى الالقاب في الدولة . ولما آلت اليه ولاية العهد في السنة السادسة عشرة من هذا القرن اخذ يجتهد في ادخال الاصلاحات على جهاز الدولة ويعمل في المجال الدولي على احلال الحبشة مكانا لائقا في الحياة العالمية . وبفضل مجهوده واصراره اصبحت الحبشة في شهر يوليوز عام 1923 عضوا في عصبة الامم . وباشر فيما بعد اقامة الصلات الوثيقة مع الاقطار الاوربية واقطار الشرق الاوسط منذ السنة التالية ، كما اخذ نفسه بادخال وسائل الادارة الحديثة واجهزتها على مختلف مظاهر الحياة العامة بالحبشة .

ونودي بولي العهد الامير « راس طيفيري » ملكا على البلاد في شهر أبريل سنة ثلاثين وتسعمائة والف . ثم نودي به امبراطورا للحبشة في اليوم الثاني والعشرين من نوفمبر لهذه السنة نفسها فسمي بجلالة الامبراطور هيلاسيلاسي الاول ، وكان عمره ثمانية وثلاثين عاما واربعة اشهر كاملة . واقيمت حفلات تتويجه فكانت مناسبة لاجراء اتصالات دولية عديدة مع الرسل والمندوبين الاجانب الذين حضروا تلك الحفلات التي دخلت البلاد بعدها بمدة قليلة في عصرها الدستوري الراهن .

فلم تمض الا سبعة شهور على تتويج الامبراطور حتى انجز عملا خالدا في تاريخ الحبشة ، اذ سن لها اول دستور مكتوب في تاريخها الذي يمتد ثلاثين قرنا فأصبحت الكلمة للقانون بعد ان كانت للقوة . ونص الدستور على احداث برلمان يتالف من مجلسين هما مجلس النواب ومجلس الشيوخ ؛ كما نص على استقلال السلطة القضائية عن الحكومة .

ولم يقتصر الامبراطور على اقتفاء سلفه في الاتصال بالاقطار الاجنبية ، بل اخذ يعتني عناية خاصة بمجالات التهذيب والصناعة والشغل ويستكتب الفنيين والخبراء الاجانب لمساعدته على تحقيق برنامجه الرامي الى تطوير الحبشة وجعلها دولة حديثة .

الا ان ايطاليا الفاشيستية قد اعتدت على الحبشة سنة خمس وثلاثين وتسعمائة والف فقام الشعب بقيادة الامبراطور للدفاع عن شرف البلاد وحوزتها ، وبذل في سبيل ذلك كل ما استطاع من جهود وتضحيات رغم تفاوت القوى وعدم توفر الجيش الحبشي على ما يؤهله للدفاع وصد العدوان . وحضر الامبراطور لدى عصبة الامم يستنهضها للدفاع عن الامم الصغيرة ويدعوها الى الوقوف بجانب بلاده وشعبه . ولقد آثر المنفى على الاستسلام لاعدائه . غير انه لم يلبث طويلا حتى اعاد الكرة بعد مرور خمس سنوات فقط ، عندما سار يوم خامس مايو سنة 1941 على راس القوات الحبشية في زحفها مع القوات البريطانية على جيوش الاحتلال الايطالي حتى عاد الى قاعدة ملكه التي دخلها دخول الفاتحين المظفرين ، فكانت عودته هذه بعثا لبلاد الحبشة الجديدة .

واخذ الامبراطور نفسه بالعمل الموصول على اسعاد شعبه برفع مستوى حياته ، بحيث يمكن لنا ان نقول ان هذه الغاية قد شغلت معظم وقته خلال السنوات الثلاث والثلاثين التي مرت على تتويجه لحد الساعة . وقد اتخذ التربية والتهذيب وسيلة لادراك هذه الغاية ، فأصبح هذا المجال في طليعة الميادين التي اهتم بها مشروع السنوات الخمس الاول والثاني على السواء ، وجاءت جامعة هيلاسيلاسي الاول متوجة لهذا المجهود المتصل . فان اشعاعها لم يعد مقصورا على الحبشة ، وانما اخذ يشمل بعض الاقطار الافريقية . وكان الامبراطور قد عرض جميع المؤسسات التعليمية الحبشية على كافة الطلبة الافارقة في أول اجتماع عقده رؤساء الدول الافريقية المستقلة بعاصمة غانة سنة 1958 ، كما رصد لهذه الغاية منحا وجوائز هامة .

ان هيلاسيلاسي ملك احدى الدول العريقة في الاستقلال بالعالم كله ، ومكانته ملحوظة جدا في المحافل الدولية داخل القارة الافريقية وخارجها على السواء ؛ فقد تجلت هذه المكانة المبرزة لدى زيارته الاولى لمقر هيئة الامم المتحدة في صيف 1954 وخطاب امينها العام بهذه المناسبة . كما تجلت في رئاسته لمؤتمر القمة الاخير المنعقد في الاسبوع الرابع من شهر مايو المنصرم الذي انبثق عنه ميثاق الوحدة الافريقية .

ولقد زار الامبراطور معظم أقطار العالم زيارات رسمية انعمت عليه الجامعات خلالها بالقاب علمية شرفية كبرى نذكر منها جامعات « مونريال » و « أوكسفورد » و « كولومبيا » وجامعة « بنارس » الهندية وجامعة اليونان بالاضافة الى جامعات « كامبردج » وموسكو وبراغ وليبيريا و « كوفيللا » بالبرتغال . واذا كان الامبراطور مؤمنا بالنصرانية فان له موقفا متحررا ازاء الديانات الاخرى . فلقد اصدر نصا يقضي بحرية العقيدة ، وهو يولي نفس الرعاية للكنيسة وللمسجد كما تؤكد النشرات الرسمية (*) . ويعنى الامبراطور برعاية الفنون والآداب والعلوم ، وله هواية خاصة باقتفاء التطور في مجالات الفكر جميعا . وهو يتكلم الانجليزية والعربية بالاضافة الى مختلف اللهجات الحبشية .

واذا كان الامبراطور هيلاسيلاسي الاول قد زود البلاد باول دستور مكتوب في تاريخها قبل ثلاثة وثلاثين عاما كما تقدم ذكره فقد انتهز مناسبة مرور خمس وعشرين سنة على تتويجه لمراجعة ذلك الدستور وجعله ملائما لمقتضيات التطور . وقد تمت هذه المراجعة سنة خمس وخمسين وتسعمائة والف فتمخضت عن الدستور الجاري به العمل الآن . والغاية التي يستهدفها هذا الدستور هي تمتين تقدم البلاد وتأمين تطورها في مختلف المجالات الحيوية . وقد قضى الدستور الاول للحبشة باحداث مجلسي النواب والشيوخ اللذين كان الامبراطور يعين اعضاءهما ويختارهم من وجهاء البلاد وزعماء عشائرها ورجال الراي في مختلف مقاطعاتها . اما الدستور المراجع الصادر يوم 22 نونبر 1955 فانه يعتزم كما جاء في ديباجته « اقامة الاسس المتينة لتحقيق السعادة والرفاهية للاجيال الحاضرة والمقبلة من ابناء الحبشة » .

واذا نحن انعمنا النظر في مقارنة الدستور الاول بالدستور الجاري به العمل الآن وقفنا على مدى التقدم الكبير الذي حققته البلاد في حياتها الدستورية . فلقد أصبح اعضاء مجلس النواب ينتخبون بالاقتراع الحر العام . ويرجع الى الامبراطور أمر اصدار

(*) استعنت في تحرير هذا المقال بالمنشورات الصادرة باللغة الانجليزية عن وزارة الانباء الحبشية .

القوانين والمراسيم التي يعرضها على البرلمان الذي لـه الحق فى ادخال التعديلات عليها ، ولا يحق لـه مطلقـا ان يرفضهـا .

واما اعضاء مجلس الشيوخ فيعينون لمدة ستـة اعـوام ، ويختارون مـن الامـراء والوجهـاء والـولاة والشخصيات المعروفة بسداد رايها وبخدمتها للصالح العام . ويمكن ان يعاد انتخاب أعضاء مجلس النـواب بعد انصرام السنـواب الاربع التي هي مدة العضوية فى هذا المجلس . ولا ينتخب من قـل عمره عـن خمس وعشرين سنة او كان سلوكـه العام سيئا . ويعيـن الامبراطور رئيس مجلس الشيـوخ وخليفتيه . أمـا رئيس مجلس النواب ونائباه فينتخبون كل سنة بيـن اعضـاء المجلس .

والمواطنون سواء امام القانون الذي لا يفرق بينهم فى مجال حقوقهم المدنية بحسب عقائدهم او ميولهـم ، فالدستور يضمن حريـة الكـلام والصحافـة والراي والاجتماع والملكية والعمل والانتقال والاقامـة ، كمـا يضمن حرية الانتسـاب الى الهيئات والمنظمات المطابـق وجودها لنصوص القانون . ولا يحرم الشـخص مـن حريته او حياته او أملاكه الا عقب محاكمـة قانونيـة تثبت ادانته بعد أن يكون قد تمتع خلالها بحق الدفاع .

وقد قسمت البلاد اداريا الى اربع عشـرة مقاطعة يقوم على كل واحدة منها حاكم عام يرجع اليـه امـر جباية الضرائب والمحافظة على السـلام والامن وتطبيق القانون على جميع المواطنين . اما البلديات فلها نـوع من الاستقـلال الذاتـي وخاصة العاصـمـة ومدينـة « أسمرة » التي هي أكبر المدن الحبشية بعد اديس أبابا التي تقع بوسط القطر تقريبـا .

واذا نحن انتقلنا الى مجـال السياسة الدوليـة والعلاقات الخارجية وجدنا أن الحبشة كانت عضوا فى عصبة الامم قبل اربعين عاما ، ثم اصبحت احد الاعضاء المؤسسين لهيئة الامم المتحدة فى أواخر شهـر أبريـل سنة خمس واربعين وتسعمائة والـف عندما كـانت الحرب العالمية الثانية تشرف على النهاية . فالحبشة عضو فى اللجان المختصـة التابعة لهذه المنظمة العالميـة كمنظمة الشغل الدولية ومنظمة الفلاحـة والتغذيـة والمنظمة الصحية العالمية ومنظمة رعاية الطفولة واتحاد المواصلات الدولية ومنظمة « اليونيـسكو » والمصـرف الدولي للتنمية والتعمير ومنظمة الرصيـد النقـدي الدولي وغيرهـا .

وادیس ابابا عاصمة الحبشة هي مقـر اللجنـة الاقتصادية الافريقية لهيئة الامم المتحدة ومقر امانـة منظمة الوحدة الافريقية . وقد كانت هذه العاصمـة مقرا لاجتماع رؤساء الدول الافريقية فى الاسـبوع الرابع من شهر مايو المنصرم فانبثق عن اجتماعهم « ميثـاق الوحدة الافريقية » . ولاديس ابابا مكانة ملحوظـة فى الحياة السياسية لقارتنا وفى المجال الدولي بوجه عام .

ولقد كانت الحبشة سنة 1955 عضوا فى مؤتمر « باندونغ » للاقطار الافريقية والاسيوية ، كما شـاركت فى مؤتمر الدول المحايدة المنعقد فى « بلغراد فى شهـر شتنبر سـنة احدى وستين وتـسعمائة والف .

الرباط : عبد اللطيف الخطيب



ديپلوماسية بسمارك

للمؤرخ : بيير رونفون
ترجمة الاستاذ : عبد الحق بنيس

- 2 -

في شتاء 1886 – 1887 يصاب الجهاز البيسماركي بتهديد جديد . اذ في آن واحد وقعت ازمة في العلاقات الالمانية – الفرنسية (*) وحدث توتر روسي – نمساوي من جراء المسألة البلغارية (*) . اذن اصبح وفاق الاباطرة الثلاثة اسما بلا مسمى عندما حاولت الحكومة الفرنسية ، وقد قلقت من التهديد الالماني ، ان تتصل بروسيا ، سيما وان القيصر الذي مني مرارا عديدة بالفشل الذريع اصبح مهيأ لقبول العروض الفرنسية . اما احتمال حدوث هذا التقارب او هذا الحلف بين روسيا وفرنسا فقد اضحى بالنسبة لبيسمارك امرا يبعث على القلق . وما لبث في خطاب له امام مجلس الريخشتاغ (البرلمان) ، عندطرح القانون العسكري الجديد على التصويت ، ان اشار الى ان المانيا قد تصبح مضطرة الى خوض « حرب على واجهتين » . وتتلخص خطته الجديدة فيما يلي : شل السياسة الفرنسية والسياسة الروسية ، والعمل مع ذلك على تفادي اي اثارة لتطاحن مباشر بين المانيا وروسيا ، ولتحقيق هذه الغاية يجب العمل على طمأنة الحكومة الروسية مع اشعارها بمدى الاخطار التي قد تصيبها ان هي اقدمت على سياسة تكتنفها مغامرات .

واخذ المستشار الالماني ينفذ هذه الخطة في الشهور الاولى لسنة 1887 . وفي سبيل « كبح جماح » فرنسا وروسيا قد قبل ، اثناء تجديد الحلف الثلاثي ، بان يأخذ على عاتقه التزامات جديدة ازاء ايطاليا ، وبعدها اغرى بريطانيا العظمى حتى انضمت الى حظيرة جهازه الديبلوماسي . وادهى من هذا انه بعد قليل

(*) في 20 ابريل 1887 اصدرت محكمة ليبزيغ العليا بالمانيا الى شرطة الحدود الالمانية – الفرنسية امرا بالقاء القبض على شنيبلي Schnoeblé الذي كان في حراسة الحدود الفرنسية الالمانية وكان هذا يقوم با عمال تجسس لصالح فرنسا . الا ان الذي اعطى للحادث خطورته هو ما نصب لحراس الحدود الفرنسيين من مكيدة مكنت الالمانيين من التوغل في الحدود بضعة امتار . وهنا ثارت ثائرة الراي العام الفرنسي والحكومة معا وطالب الجميع باعلان الحرب على المانيا ، باستثناء رئيس الجمهورية الذي اكتفى بطلب اطلاق سراح شنيبلي . فاجابه بيسمارك بالقبول ، وكان الفرنسيون قد اتهموا بيسمارك بانه بعمله هذا انما اراد اثارة فرنسا لاعلان الحرب على المانيا .

(المترجم)

(*) بموجب مقررات مؤتمر برلين الذي نظر في المسألة الشرقية 1878) ، نالت بلغاريا استقلالها الداخلي عن الدولة العثمانية . ومنذ ذلك التاريخ وروسيا تمارس عليها نفوذا حاسما . وما ان حانت سنة 1885 حتى ظهرت في بلغاريا حركة وطنية مناوئة لروسيا مما ادى بهذه الاخيرة الى تدبير مؤامرة لاختطاف الامير الاسكندر باتانبرغ Alexandre de Battenberg ، ولكن البرلمان البلغاري في يوليوز 1887 يرفض الامير الذي رشحته روسيا ويقبل بدله فيرديناند من ساكس كوبورغ مرشح حكومة فيينا . وهذا ما جعل القيصر الروسي يحنق على النمسا – هونغاريا ويستدعي السفير الالماني لديه لاحاطته علما بهذا التصرف المخالف لروح معاهدة الاباطرة الثلاثة.

(المترجم)

سيوقع اتفاقا سريعا مع روسيا وسمى هذا الاتفاق بمعاهدة « تاكيد الطمانة » . انه نجاح لحذاقة الديبلوماسية البسماركية . فكيف حقق بيسمارك هذا النجاح ؟ .

انتهت مدة المعاهدة الاولى للحلف الثلاثي (*) في شهر مايو 1887 . واعربت الحكومة الايطالية عن استعدادها لتجديده ، الا انها اشترطت لذلك ضمانات اضافية . كانت تخشى ان تقدم فرنسا ، التي اصبحت سيدة في تونس ، على تمديد نفوذها الى طرابلس ، كما كانت تريد ان تحمل حلفاءها على الاعتراف لها بحق الحصول على بعض المكاسب في البلقان يوم يسوى التطاحن النمساوي ـ الروسي ـ وهذا ما كان ينتظر دائما ـ عن طريق حل وسط وعن طريق تقاسم مناطق النفوذ . ولم يكن في نية المانيا ولا النمسا ـ هونغاريا قبول هذه المطالب الا انه نظرا للمصاعب البلقانية والتوتر الفرنسي الالماني في اواخر 1886 ـ وهذا ما اعطى للمشاركة الايطالية ثمنا اغلى ـ فان الدولتين المركزيتين وافقتا على التفاوض على هذه الاسس . كانت المفاوضات شاقة : فالنمسا ـ هونغاريا لم ترد ان تتعهد بتقديم عون مسلح في المسالة الطرابلسية . حقا انها اعترفت لايطاليا بحظ من النفوذ في البلقان الا انها اشترطت في مقابل ذلك الحصول على وعد بتقديم نجدة عسكرية في حالة حدوث حرب نمساوية ـ روسية . ولئن قبل بيسمارك وجهات نظر الحكومة النمساوية فيما يخص النقطة الاولى الا ان الثانية لم يقبل بها ؛ اذ كان لا يامل ان تقوم ايطاليا بتقديم وعد من شانه ان يجعل موقف النمسا ـ هونغاريا ازاء روسيا اكثر تعنتا وعنادا ، وبالتالي تقوية حظوظ هذه الحرب النمساوية ـ الهونغارية ، اذ كان من مصلحة المانيا ان تعمل على تلافي ذلك . وادى الامر بحكومة فيينا الى الخضوع للضغط الالماني . وعليه فعندما جددت معاهدة الحلف الثلاثي لخمس سنوات اخرى لم يضف اليها الا اتفاقان فقط ، الاول بين المانيا وايطاليا في موضوع قضايا البحر الابيض المتوسط ، والثاني بين النمسا ـ هونغاريا وايطاليا في موضوع القضايا البلقانية .

وتنص التسوية المتوسطية على ما يلي : « اذا هاجمت ايطاليا فرنسا في اوروبا ، على اثر تمديد النفوذ الفرنسي الى طرابلس فعلى المانيا ان تساندها بحد السلاح » . وفي حالة كهذه سيكون باستطاعة ايطاليا ـ كما قال بيسمارك ـ ان تنزع من فرنسا نيس Nice وكورسيكا .

واما التسوية البلقانية فقد قررت ما ياتي : اذا اضحى الاحتفاظ **بالوضع الراهن** في البلقان امرا مستحيلا ، واذا اضطرت النمسا ـ هونغاريا الى الشروع في احتلال الاراضي اما بكيفية دائمة او موقتة فان ايطاليا سيكون لها الحق في الحصول على عوض .

وهكذا تغيرت طبيعة الحلف الثلاثي فبعد ان كان في الاصل دفاعيا اتخذ الآن وجهة هجومية ما دام قد تعرض لحالة هجوم ايطاليا على فرنسا في اوروبا .

بيد ان بيسمارك ، في الوقت الذي اخذ فيه على عاتقه وعدا بمساندة ايطاليا بحد السلاح ، كان اتخذ من قبل تدابير للتخفيف من الاعباء الجديدة التي قبل بها . فاعتبارا من شهر دجنبر 1886 ضغط على الحكومة الايطالية لكي تبرم مع بريطانيا العظمى اتفاقا حول القضايا المتوسطية ، وبعدها بايام قلائل امر سفيره بان يقدم الى الملكة فيكتوريا (ملكة بريطانيا) نصحا « بالتقارب مع النمسا ـ هونغاريا وايطاليا » . وكان بهذه الوسيلة يامل في اشراك بريطانيا العظمى في « جهازه » بشكل غير مباشر . لماذا قبلت الحكومة البريطانية (منذ سنة 1886 اصبحت الحكومة البريطانية برئاسة سالسبوري من الحزب المحافظ) بالتفاوض مع ايطاليا ؟ . كانت بريطانيا العظمى في هذا الوقت توجد في مصاعب مع فرنسا من جراء المسالة المصرية (*) ، كما كانت قلقة البال من السياسة القيصرية لان من شان سيطرة الروس على بلغاريا ان

(*) هو الحلف الذي ضم المانيا (والنمسا ـ هونغاريا) وايطاليا . (المترجم)

(*) كان من المقرر ان تحتل مصر في سنة 1881 كل من فرنسا وبريطانيا العظمى . ولكن فرنسا تخلت عن ذلك لان البرلمان صوت ضد المشروع . ثم ندمت بعد ذلك لما رات نجاح بريطانيا العظمى في احتلالها للقطر المصري : تعالى هذا الندم من قبة البرلمان الفرنسي كذلك . وامام ذلك لم تجد الحكومة الفرنسية بدا من مطالبة انكلترا بالجلاء وسن قانون للمرور في قناة السويس . ولئن تحدد القانون الخاص بقناة السويس سنة 1888 الا ان بريطانيا ظلت تماطل في الجلاء عن مصرمما جعل العلاقات بين بريطانيا العظمى وفرنسا تزداد توترا حول هذه القضية وظل الامر كذلك الى غايةسنة 1904 حيث ابرام الاتفاق الودي وتبادل مصر بالمغرب الاقصى . (المترجم)

يعرض سلامة المضائق (البوسفور والدردانيل) للخطر ، ناهيكم عن المسألة الايرلاندية التي كان لها تاثير خطير على الوضع السياسي الداخلي ، وهذا ما كان الوزير الاول يشير اليه مرارا فى مراسلاته الخاصة . ثم ان سالسبوري كان يعتقد ان ليس فى الامكان القيام فى الشرق « بعمل ناجع » سواء اكان بحريا ام بريا ، بل فى نظره أن الوسيلة الوحيدة الكفيلة بالدفاع عن المصالح البريطانية هي العمل الديبلوماسي . وعليه فقد كان مضطرا للحصول على المثل ، ان يقدم مساندة للنمسا – هونغاريا فى القضايا البلقانية ولايطاليا فى القضايا المتوسطية .

كان المستشار يراقب عن كثب سير التفاوض الانكليزي – الايطالي وكان يتدخل عدة مرات للعمل على تقريب وجهات النظر . وفى 12 فبراير 1887 اسفرت المفاوضات عن اتفاق سري انكليزي – ايطالي اكتسى شكل تبادل للرسائل لكي لا يعرض على النواب من اجل المصادقة عليه . وقد اعرب الاتفاق عن ارادة الدولتين فى المحافظة على **الوضع الراهن** فى البحر الابيض المتوسط – بما فى ذلك بحر الادرياتيك وبحر ايجه والبحر الاسود – واذا تعذر ذلك فعليهما بالاتفاق على التغييرات التي قد تصيب هذا الوضع . وتقرر فى هذا الاتفاق كذلك « ان تقدم ايطاليا سندها الكامل فى المسألة المصرية » وان تقدم بريطانيا العظمى بالمقابل « سندها لكل عمل قد تقوم به ايطاليا فى افريقيا الشمالية وخاصة فى طرابلس وبرقة فى حالة ما اذا قامت دولة ثالثة بغزو لهذه المنطقة » والمقصود بالدولة الثالثة فرنسا . الا ان اهمية هذه التعهدات ظلت مشكوكا فيها . فالنص الايطالي يقول : « تتعاهد ايطاليا وبريطانيا العظمى على تقديم عون متبادل فى البحر الابيض المتوسط كل ما حدث خلاف بين احدى الدولتين وبين دولة ثالثة » . وفى نظر الايطاليين ان « العون المتبادل » هو العون **المسلح** . فى حين ان النص الانكليزي يكتفي بالقول : «بان كيفية هذا التعاون يجب ان تحدد عندما تنزل النازلة وحسب الاحوال التي وقعت فيها النازلة » .

وعليه فقد اجتنب سالسبوري كل وعد مكتوب . وقد اعتز بذلك امام الملكة فيكتوريا اذ كتب عن هذه المذكرة يقول : « بان نصوصها قد صيغت بشكل ترك معه للحكومة الانكليزية صلاحية تقدير ما اذا يجب تقديم المعونة المادية لايطاليا او لا » وادهى من ذلك ان الحكومة البريطانية ، مع احتفاظها بوسيلة لتاويل تعهداتها حسب هواها ، قد قبلت التعاون مع احد اعضاء الحلف الثلاثي .

ويصير هذا التعاون حقيقة ملموسة عندما تنضم النمسا – هونغاريا (24 مارس 1887) الى الاتفاق الانكليزي – الايطالي . ودخلت اسبانيا بدورها فى هذه الترتيبات : اذ فى 4 مايو وقعت اتفاقا مع ايطاليا من اجل المحافظة على الوضع الراهن فى البحر الابيض المتوسط وتعهدت بالا تقدم لفرنسا فى اي حال من الاحوال سندا من شانه ان يزعج « بكيفية مباشرة او غير مباشرة » كلا من ايطاليا والنمسا – هونغاريا والمانيا .

لم يوقع بيسمارك على هذه الاتفاقات المتوسطية لانه لم يرد ان يتحمل مسؤولية الاشتراك ، ولو بصفة سرية – اذ هل سيظل السر مكتوما ؟ – فى نشاط موجه ضد روسيا . الا ان المستشار هو الذي كان يدير دفة اللعب على امل شل السياسة الفرنسية والسياسة الروسية . ففي طرابلس كان السند الديبلوماسي الانكليزي لايطاليا كافيا لحماية المصالح الايطالية وبالتالي لتجنيب بيسمارك مشقة الوفاء بالوعود التي قدمها لايطاليا . كذلك الشأن فيما يرجع للمصالح النمساوية – الهونغارية التي اصبح بعضها مضمونا من قبل بريطانيا العظمى وايطاليا : وهكذا ستضطر روسيا الى اتخاذ جانب الحيطة دون ان تستطيع اتهام بيسمارك بالتنكر لمبادىء الوفاق .

والحقيقة ان رغبة المستشار ، ولو فى اللحظة التي اتخذ فيها المبادرات المعادية للروس ، ظلت تجنح الى الاحتفاظ مع روسيا بعلاقات صادقة ، ان لم نقل ودية ، وما ذلك الا للعمل على تجنيب روسيا اتخاذ سياسة جديدة ازاء فرنسا . وعندما تعذر عليه تجديد معاهدة الاباطرة الثلاثة اصبح يهتم على الاقل بطمأنة الحكومة الروسية والاحتفاظ باتفاق معها . لكن أنى له ان يصل الى هذا المبتغى ان لم يقدم لروسيا بعض التعويضات فى السياسة البلقانية ؟ ان هذه العقبة لم تعترض سبيل المستشار ، اذ كان مستعدا لان يعطي لروسيا ، على سبيل السر ، بعض الوعود مع علمه ان روسيا سوف لاتستطيع الاستفادة منها لانها ستصطدم بالدول الثلاث الموقعة على « الاتفاقات المتوسطية» .

ومع ذلك اصطدم التفاوض الذي اقترحه بيسمارك بمصاعب جمة ، نظرا للخلافات فى اوجه

النظر بين اعضاء حاشية القيصر . كانت هناك نزعتان تتصارعان : الاولى للمستشار جيرس Giers الذي خلف غورتشاكوف . فهذا المستشار يزدري فرنسا ويأمل بالتالي الاحتفاظ مع المانيا بوفاق ؛ والثانية لكاتكوف Katkof الكاتب السياسي والصحافي البارع الذي ناصر فكرة الحلف الفرنسي . اما الاسكندر الثالث (القيصر) فظل مترددا بينهما . وفي ربيع 1887 صرح اثناء التوتر في العلاقات الفرنسية – الالمانية ، بقوله : « سوف لا أترك المانيا مطلقة اليد تصول وتجول في اوروبا ، فلو شن هجوم على فرنسا ولو خارت قوى هذه الاخيرة فان روسيا سوف تلقي بنفسها في كفة الميزان » . ولكنه فاه للصحيفة الشبيهة بالرسمية الناطقة بلسان الحكومة « الشمال » ، بكلام مؤداه انه لا يفكر في حلف فرنسي – روسي . لاشك انه ادرك ان الحيطة تدعو الى عدم التسرع في اعطاء وعد بالتأييد لفرنسا . ولم ينته الجدل حول هذه القضية الا في مارس 1887 أي حينما أفل نجم كاتكوف على اثر المقال الذي نشره على العموم – وكان ذلك حماقة منه – وكان يتضمن نصوص معاهدة الاباطرة الثلاثة . وبعد قليل سمح العاهل لجيرس بالسير بالمفاوضات مع المانيا حتى النهاية . وفي 18 يونيه 1887 وقعت المعاهدة السرية التي يسميها بيسمارك « معاهدة تأكيد الطمأنة » .

لقد تعاهدت كل من المانيا وروسيا على التزام جانب الحياد « اذا وجدت احداهما في حرب » مع دولة عظمى اخرى ؛ لكن اذا كانت هذه الدولة العظمى هي النمسا – هونغاريا أو فرنسا فان الحياد لا يلزم الا اذا تعلق الامر بحرب عدوانية . وعليه فان روسيا ستكون في حل من كل تعهد ان اقدمت المانيا على مهاجمة فرنسا . ومن جهة اخرى فان المانيا اعترفت « بشرعية النفوذ الروسي على بلغاريا » بما في ذلك الروملي . وتعهدت كذلك بتقديم مساندتها الدبلوماسية لروسيا في الحالة التي تصبح فيها هذه الاخيرة « مضطرة للدفاع بنفسها عن مدخل البحر الاسود » ، أي احتلال البوسفور كتدبير وقائي اذا حاولت بارجة انكليزية اقتحام الممر بالقوة . ما قيمة هذه الوعود ؟ لقد اولتها روسيا بعض الاهمية لانها كانت تجهل « الاتفاقات المتوسطية » . الا أن بيسمارك كان يعلم علم اليقين ان كل عمل قد تقوم به روسيا الا وسيصطدم بالمقاومة التي رتبتها كل من بريطانيا العظمى والنمسا – هونغاريا وايطاليا .

وفي هذا الوقت وصل « الجهاز البيسماركي » الى اوجه . فقد ارتبطت المانيا بمعاهدة حلف دفاعي مع النمسا – هونغاريا منذ سنة 1879 ، ومع رومانيا منذ سنة 1883 . وكلا الحلفين مصوب ضد روسيا . وامنت لنفسها في حالة حدوث هجوم فرنسي عليها وعدا بالعون المسلح من ايطاليا ووعدا آخر بالحياد من روسيا . واخيرا فان بريطانيا العظمى وجدت نفسها مشتركة بكيفية غير مباشرة في شبكة السياسة البيسماركية ، وذلك بواسطة (الاتفاقيات المتوسطية) . ماذا كان يريد المستشار ؟ عزل فرنسا و « حمل روسيا على الحياد » . ففيما يرجع للنقطة الاولى نجح نجاحا تاما : حقا ان الحكومة الفرنسية كانت تجهل الاتفاقات المتوسطية ولكن كان لديها من الدواعي ما جعلها تشك في وجود مثل هذه الاتفاقات ، اذ كان سالسبوري يراقبها عن كثب ويصفها بقوله : « انها جار ثقيل الظل » ؛ ولاحظت الحكومة الفرنسية كذلك ان ايطاليا ؛ منذ صعود كريسبي Crispi الى رئاسة الحكومة ، اصبحت تكن لها علامات العداء التي كانت تتزايد يوما عن يوم ، سيما بعد قطع العلاقات التجارية معها وشن « حرب جمركية » عليها ، تلك الحرب التي دامت عشر سنوات . اما ما يخص النقطة الثانية فان نجاح بيسمارك فيها كان ضعيفا بعض الشيء . حقا انه حصل على وعد بحياد روسيا في حالة – وهذه حالة كانت متوقعة نوعا ما – ما اذا اقدمت فرنسا على مهاجمة المانيا . ومع ذلك فقد كان يشك في قيمة التعهد : لانه كان يعتقد ان روسيا سوف لا تتأخر عن التدخل لو حدثت حرب فرنسية – المانية واصبحت فرنسا مغلوبة على أمرها . وفي نظر بيسمارك ان الفائدة الوحيدة العملية التي تضمنها لالمانيا معاهدة « تأكيد الطمأنة » هي تفادي اقدام روسيا على ابرام ميثاق **حلف** مع فرنسا : فكلما احتفظت المانيا بعلاقة مع الامبراطورية الروسية الا وساد هذه الاخيرة شعور بعدم الحاجة الى ابرام تعهدات واضحة مع فرنسا ؛ وكلما ايقنت الحكومة الفرنسية انها لا تستطيع الاعتماد مقدما على عون مسلح من روسيا الا واقتنعت بعدم جدوى القيام بحرب للاخذ بالثأر . ولكن ما هو الثمن الذي دفعه بيسمارك حتى وصل الى هذه النتيجة ؟ لقد اضطر المستشار للالتزام بتعهدات – في سبيل ارضاء روسيا في القضايا البلقانية ولو من حيث الظاهر – كان من الصعب التوفيق فيما بينها ، سواء من حيث النص أو من حيث الروح ، وبين ما جاء في المعاهدة النمساوية – الالمانية والاتفاقات المتوسطية .

فماذا سيقع يا ترى يوم تنفجر الحوادث في البلقان وتضطر المانيا الى المشاركة في العمل ؟ وكيف السبيل الى احترام وعود متناقضة ؟ تتذليل هذه العقبات المتوقعة كان بيسمارك يعتمد على حذاقته وعلى نفوذه الشخصي بالاضافة الى خوف الحكومات الاخرى .

وستكذب الوقائع هذا التفاءل . اذ في غشت 1887 عندما اعتلى فيرديناند من ساكس كوبورغ عرش بلغاريا (※) ايقظ هذا الحادث مرة اخرى التطاحن النمساوي ــ الروسي ، وبالرغم من اعتراف بيسمارك « بشرعية النفوذ الروسي » في بلغاريا ، الا انه ناصر السياسة النمساوية ــ الهونغارية ونشر في 8 فبراير 1888 نص معاهدة التحالف الالمانية ــ النمساوية ثم طلب اعتمادات للزيادة مرة اخرى في عدد جنود الجيش ليصبح في وسعه القيام بحرب « على واجهتين » ؛ اضف الى ذلك انه اصدر امره الى بنك الامبراطورية لرفض التعامل بالسندات الروسية وقصده من ذلك اثارة الهلع في نفس الالمانيين اصحاب هذه السندات الذين كانوا يملكون في هذا الوقت القسط الاوفر من الاموال الروسية المقروضة للخارج . وفي نفس الوقت اعطى امره بالدخول في محادثات مع اركان الحرب النمساوية ــ الهونغارية الا انه رفض قبول حرب « وقائية » على روسيا . واخيرا تصرف ، في 12 دجنبر 1887 ، بشكل ادى بانكلترا والنمسا ــ هونغاريا وايطاليا الى اعطاء انذار للحكومة العثمانية مؤداه انه يتحتم على الباب العالي « تركيا » ان لايتنازل لفائدة روسيا على سيادته في بلغاريا ؛ وانه اذا ما قاوم السياسة الروسية فانه سينال مساندة الدول الثلاث المشتركة في الاتفاقات المتوسطية . وعندما رات الحكومة الروسية نفسها واقعة في آن واحد تحت ضغط هذه العوامل كلها ، اضطرت الى العدول عن السياسة التي كانت تريد نهجها في بلغاريا ؛ الا انها اتجهت الى فرنسا علها تجد لديها التسهيلات المالية التي حرمتها منها المانيا : وفي اكتوبر 1888 اجرت روسيا قرضا عظيما في ساحة باريس .

فهل كان هذا بمثابة حد لمعاهدة «تأكيد الطمانة»؟ يبدو ان المستشار في نهاية 1888 اصبح يعتقد بعدم جدوى تجديد هذه المعاهدة اذ كيف يعقل ان يبدي القيصر استعداده لادنى تجديد بعد الخيبات التي مني بها المرة تلو المرة ؟ الا ان بيسمارك اراد ان يدخل من باب آخر : اقترح سريا على بريطانيا العظمى عقد حلف مرتين ، الاولى في يناير والثانية في مارس 1889 ولكن عندما رفضت الحكومة الانكليزية هذا العرض في اكتوبر 1889 عاد ليعرب عن امله في الاحتفاظ بمعاهدة « تأكيد الطمانة » . اما القيصر الذي لم يخف عليه ما دار في المحادثات الانكليزية ــ الالمانية والذي خشي أن تستأنف هذه المحادثات فقد قبل بالدخول في التفاوض من اجل تجديد المعاهدة . وبالرغم من ان القيصر لم يعد يعير اي قيمة للضمانات الالمانية الا انه ظن ان الاحتفاظ بهذه العلاقة انما هو من باب اتخاذ الحيطة ، اذ قد تعمد المانيا الى تقديم مساندة تامة للسياسة التي تنهجها النمسا ــ هونغاريا في البلقان .

وعليه فقد ظلت السياسة البيسماركية في مستهل 1890 تسير في نفس النهج ــ بعد ان اجتازت مرحلة من التردد ــ الذي كانت تسير فيه سنة 1887 . بيد ان هذه السياسة اصبحت يوما بعد يوم سريعة العطب . واضحى بيسمارك ، بالرغم من كل ما اوتي من نفوذ ودهاء منقطع النظير ، يعاني دائما مشقة عظمى في « تسيير الآلة » التي اصبح تركيبها معقدا للغاية . وبالرغم من ان مناوراته الديبلوماسية ظلت تفيده في سد ثغرات الجهاز الا انه لم يكن يعمل الا لتاخير ازمة « جهازه » .

مكناس : عبد الحق بنيس

※ راجع ما كتب على الهامش في صدر هذا البحث (المترجم)

قصة العدد



منذ وقت طويل وانا ارغب ان اكتب اي شيء بهذا العنوان ، واليوم وقد سنحت لي الفرصة ، قد وضعت العنوان بحروف كبيرة في نصف صفحة من الورق ، وتركت للهوى ، بعد ذلك ، يحلق بالقلم .

اظن انني رأيت عيونا كالتي رسمتها في هذه الاسطورة، لست ادري أكانت تلك الرؤيا في حلم ، لكنني رأيتها وبالتأكيد لا استطيع وصفها تماما كما هي : لامعة ، شفافة كقطرات المطر التي تنزلق فوق اوراق الشجر بعد عاصفة الصيف . وعلى كل حال ، فاني اعتمد على خيال قرائي كي يفهموني في هذا الذي نستطيع تسميته مسودة للوحة قد ارسمها في يوم ما .

— 1 —

ان الوعل يسير مجروحا .. يسير مجروحا ، دون شك ، ان اثر الدم يشاهد بين جراح (احراش) الجبل وبمجرد ما قفز عن احدى شجيرات الصرو تراخت ارجله .. سيدنا الغلام هذا ابتدا من حيث انتهى الآخرون .. صاح الخادم الجبلي : في مدة اربعين سنة قضيتها في خدمة الجبل لم ار ضربة اصوب .. لكن بحق القديس ساتوريو حارس صوريا (Soria) اقطعوا عليه الطريق من هذا السنديان ، هيجوا الكلاب ، انفخوا في هذه الابواق ملء قوتكم ، اغرزوا مهامزكم قدر شبر في هياكل جيادكم ، الم تروا انه يتجه نحو عين الحور ، واذا نجا قبل ان يموت ، فاننا يمكن ان نعتبره ضائعا .

رددت وعاد جبل مونكايو ، صدى قصصي ، اصوات الابواق ، ونباح الكلاب المنطلقة من غير رباط ، وصيحات الغلمان تتردد بغضب من جديد ، وهذا الجحفل المختلط من الرجال والجياد والكلاب اتجه نحو النقطة التي اشار اليها انييكو ، كبير الخدم الجبليين لمركيزات الميناء ، وكان ذلك انسب راي لقطع الطريق على الطريدة ، لكن كل شيء ذهب سدى ، ذلك انه ما كاد يصل اسرع سلوقي الى السنديان ، وهو يلهث والرغوة تغطي فاه ، حتى كان الوعل قد اجتازه بقفزة سريعة كسهم ، ضائعا بين جراح (احراش) شعب ضيق يؤدي الى العين .

— حينئذ صاح انييكو : قفوا .. فليقف الجميع — كان من قدر الله ان ينجو ، فتوقف الركب ، وخرست الابواق وتراجعت الكلاب عن طريقها وهي تهر غاضبة بمجرد سماعها صوت الصيادين بأمر التراجع ، وحينئذ انضم بطل نزهة الصيد فرناندو دي ارخينصولا ، الولد الاكبر لالمنار ، الى مجلس الصيادين وصاح متوجها نحو خادمه الجبلي :

ماذا تفعل ؟ — في حين قد ارتسمت الدهشة على ملامحه ، وقد اشتعل الغضب في عينيه — ماذا تفعل يا ابله ؟ انت ترى بان الطريدة مجروحة ، وهي اول صيد يسقطه يدي، ومع ذلك تتراجع عن اثرها ، وتتركها تضيع ، لتموت في عرض الغابة ، اتظن بانني ربما اتيت لقتل الوعول لاقدمها مأدبة للذئاب ؟

— وهمهم انييكو قائلا : سيدي ، من المستحيل المرور من هذه النقطة .

— مستحيل ، ولماذا ؟

— تابع قوله الجبلي : لانه شعب يؤدي الى عين الحور ، عين الحور التي يسكن في مائها روح الشر ، والذي يجتريء على تعكير تيارها فان ثمن جرأته يكون غاليا ، قد تكون الطريدة اجتازت ضفاف العين ، وكيف يمكن ان تجتازوها انتم — دون ان تجروا على انفسكم بؤسا فظيعا ؟ نحن، الصيادون ، ملوك مونكايو ، ولكن ملوك يؤدون جزية ، ان الطريدة التي تلتجيء الى هذه العين الغامضة تعتبر ضائعة طريدة ضائعة ! قبل ذلك افقد انا سيادة آبائي وافقد قبل كل شيء روحي بايدي العفريت من ان اسمح ان يفلت من يدي هذا الوعل ، ذلك الذي اصابته ضربتي في اولى رحلاتي الصيدية .. ارايته ؟ ارايته ؟ ما زال يبدو بين لحظة واخرى

من هنا ، وان رجله تخونه ، وجريه يتثاقل ، اتركنـي .. اتركني .. اتركني ، دع من يدك هذا العنان او امرغك فـي التراب .. ومن يدري علني لن ادع له مجالا للوصـول الـى العين ، واذا وصل فهو ملك للجن ، وصفاء العين ، وسكانـه وو.. يا برق ، يا جوادي لو ادركت الطريدة فانني امر بان تسلك للآلىء عقدي في سلسلة لجامك الذهبي .

غادر الفارس والفرس مكانهم كالاعصار ، وانييكـو يتابعهم ببصره الى ان اختفوا بين آجام العليق ، بعد ذلـك جال ببصره فيمن حوله ، وكلهم ظلوا مثله في سكون وذهول ، واخيرا صاح الجبلي : ايها السادة لقد شاهدتم بانفسكم بانـي تعرضت للموت بين اقدام فرسه كي احجزه ، وقد قمت بواجبي، والجن لا تنفع معه الشجاعـة .

وصل الجبلي بقوسه الى هذا المكان ، ومن الآن فصاعدا فليجرب القس ان يمر بعصا التعميد .

ـ 2 ـ

يبدو عليكم يا سيدي لون ممتقع ، تمشـون حزينـا ، شاحب اللون ، ماذا جرى لكم ؟ منذ اليوم الذي سأعتبره دائما يوما مشؤوما حيث وصلتم فيه الى عين الحور خلف الطريـدة الجريح ـ منذ ذلك اليوم وانتم تقولون بـان ساحرة شريـرة سلبت لبكم بسحرهـا ، لم تعودوا تذهبون بعد للجبال تتقدمكم كلاب الصيد بضجيجها ، ولم تعد نـداءات ابواقكـم توقـظ اصداءها ، ولكنكم تاخذون القوس وتتجهون نحو الاجمـة كل صباح فقط مع هذه الهواجس التي تلاحقكم ، وتلبثون هنـاك الى ان تختفي الشمس ، وعندما يظلم الليـل ، ترجعون الـى القصر شاحب اللون ، منهوك القوى ، وعبثـا ابحث عن صيـد اجده في الحزام ، ما الذي يشغلكم في هذه الساعـات الطـوال بعيدا عمن هو اشد حبا لكـم .

بينما كان انييكو يتكلم اذا بفرناندو هائما في افكاره يقشر آليا ، بمديته الجبلية شظايا من مقعده الابنوسي .

وبعد صمت طويل ، كان يقطعه فقط حفيف الشغلة التي تنزلق فوق الخشب الصقيل ، قـال الشاب متوجها نحو خادمـه كأنه لم يسمع ولو احصى كلماته :

يا انييكو ـ وانت اقدم مني ـ انت الذي تعرف كـل كهوف مونكايو ، حيث عشت لدى سفوحه تلاحق الوحـوش في رحلاتك الصيدية الهائمة ، وصعدت اكثر من مرة الى قمته، قل لي : هل عـاك وجدت امرأة تعيش بين صخوره ؟

ـ امرأة ـ صاح الجبلي بدهشة موجها نحوه نظرة ثابتة.

ـ نعم ـ قال الشاب ـ ان مـا جـرى لي امر عجيب ، عجيب جدا ، كنت اظن انني استطيع ان احتفظ بهذا السر لنفسي الى الابد ، ولكنه الآن لم يعد ممكنا ، انه يضطرب في قلبـي ويبدو على وجهي .

اذن سأكشفه لك .. وانت ستعينني على كشف ذلك السر الذي يكتنف هذه الكائنة التي يبدو انها توجد فقط من اجلي، ان احدا لا يعرفهـا ، ولم يرها ولن يستطيع احد ان يعرفنـي حقيقتهـا .

ـ ودون ان يحرك الجبلي شفتيه جر كرسيه الصغير الى ان وصل به الى جانب مقعد سيده من غير ان يحول بصره عنه قيد شعرة .. وبعد ما رتب السيد افكاره تابع قوله هكذا :

على الرغم من وعظك المتشائم ، فمنذ اليوم الذي وصلت فيه الى عين الحور عابرا مياهها ومسترجعا الوعل الذي قد كاد ينجيه تشاؤمكم ، ملئت روحي برغبة في الوحدة .

انت لا تعرف ذلك المكان ، انتبه ، ان العين تنبجس مختفية في جوف صخرة ، وتسقط مياهها منزلقة قطرة قطرة مـا بين اوراق خضراء طافية لنباتات تنمو علـى حافـة مهدهـا ، وبمجرد انفصال تلك القطرات تلمع كنقط من الذهب ، وترن مثل نغمات آلة موسيقية ، وتتجمع بين الربيـع ، ويسمع لهـا خرير كأزيز النحل التي تحوم حول الزهور ، وتتسرب بعيدا بين الرمال فتصنع اخدودا ، وتتصارع مع العوائق التي تعترض سبيلها وتتلوى حول نفسها ، وتثب ، وتفر ، وتجـري تـارة بضحكات وتارة بزفرات الى ان تسقط في بحيرة ، تسقط في البحيرة بهدير لا يمكـن وصفـه .

ـ انات ، كلمات ، اغنيات ، انا لا ادري ماذا سمعت في تلك الجلبة عندما جلست وحدي محموما فوق الصخرة التي يقفز ماء العين العجيبة عند قدميها ليستقر في غدير عميق ذي سطـح سـاكـن .

كل شيء هناك عظيم ، ان الوحدة بالعدد العديد من جلباتها المجهولة ، تعيش في تلك الاماكن ، وتسكر الروح بكآبتهـا الفائقة عـن الوصف .

بين الاوراق الفضة لاشجار الحور ، وفي اجـواف الصخور ، وعلى امواج المياه ، يبـدو بانـه تكلمنا ارواح الطبيعة ، وهي غير مرئية ، وقد تعرفت على شقيقـة لها مـن روح الانسان الخالدة .

عند انبلاج الصباح ، تراني آخذا قوسي واتجه نحـو الجبل ، ولم اذهب قط لاهيم بين آجامـه بحثا عن صيد ، لا ، بل اذهب لاجلس على ضفة العين ، ابحث فـي موجاتهـا .. لا ادري عماذا ، جنون ، في اليوم الذي قفزت فوقها بفرسـي

(البرق) ظننت بانني رأيت في اعماقها شيئا عجيبا يلمع .. عجيبا جدا .. عيون امرأة ..

قد يكون شعاع شمس يتلوى فارا بين زبدها .. وقد يكون احدى هذه الزهور التي تطفو بين طحالب خليجها والتي تبدو اكمامها كأنها زمرد .. لا ادري الا انني اظن اني رأيت نظرة قد استقرت في نظرتي ، نظرة شعلت في صدري رغبة مستحيلة لا يمكن تحقيقها الا وهي العثور على امرأة لها عيون كتلك ، وفي البحث عنها ذهبت الى ذلك المكان يوما وآخر .

واخيرا ذات مساء .. ظننت الامر اعوبة حلم ، لكن لا ، انه امر حقيقي ؟ لقد كلمتها مرارا كما اكلمك الان .. في احدى الامسيات وجدتها جالسة في مكاني ، لابسة ثيابا تصل الى الماء ، وتطفو فوق سطحه امرأة جميلة اسمى من كل وصف

كان شعرها كالذهب ، واهدابها تلمع كخيوط من النور ، ومن بين تلك الاهداب تدور مضطربة احداق قد رأيتها من قبل ، نعم ، لان عيون تلك المرأة هي التي كانت مستقرة في عقلي ، عيون ذات لون من المستحيل ان يوجد مثله ، عيون .. — خضر — صاح اتيكو بلهجة من رعب عميق وقد استوى بقفزة واحدة على كرسيه .

نظر فرناندو بدوره اليه متعجبا من استنتاجه ما كان سيقوله له ، وسأله بشوق ممزوج بفرح :

— اتعرفها ؟

فاجاب الجبلي قائلا : — آه — نجني يا رب من معرفتها ، لكن ابواي عندما منعاني من الذهاب الى تلك الاماكن قالا لي الف مرة بان الروح او الجن او العفريت او المرأة التي تسكن في تلك الاماكن لها عيون من ذلك اللون .

عزمت عليكم باعز من لديكم في الدنيا الا تعودوا الى عين الحور ، في يوم ما سينالكم انتقامها ، وتجزون او تكفرون — موتا — عن جناية تعكيركم امواجها .

— هـمهم الشاب بابتسامة حزينة قائلا : باعز من لدي !! فتابع العجوز قوله :

نعم ، عزمت عليكم بوالديكم ، باقربائكم بالدموع التي كتبها القدر على زوجكم ، بدموع خادمكم الذي شاهدكم تولدون .

فاجابه الفتى قائلا : اتعرف — انت — من احب اكثر في الدنيا ؟ اتعرف لماذا احب ، انا ، حب والدي وقبلات امي التي اعطتني الحياة ، واعطي جميع العواطف التي يمكن لنساء العالم ان يكتنزنها ؟ من اجل نظرة واحدة ، من اجل نظرة واحدة لتلك العيون .. ويحك كيف استطيع ترك البحث عنها ؟

قال فرناندو هذه الكلمات بلهجة حتى ان الدموع التي كانت ترتعش في اجفان اتيكو انزلقت صامتة على وجنتيه ، في حين قال بلهجة حزينة :

— نفذ ارادة السماء ..

— 3 —

من انت ؟ وما وطنك واين تسكنين ؟ انا اجيء يوما وآخر بحثا عنك ولم ار حتى الحصان الذي يأتي بك الى هذه الاماكن ، ولا الخدم الذين يحملون محفتك ، مزقي دفعة واحدة الحجاب الغامض الذي يكتنفك كأنك ملتحفة بليلة شديدة الظلام ، انا احبك ، سواء كنت نبيلة او وضيعة ، فانا لك ولك دائما .

كانت الشمس تتوارى الى ما وراء قمة الجبل ، والظلال نزلت بخطوات كبيرة على صفحه ، والنسيم ينوح بين اشجار الحور المحيطة بالعين ، والظلام الذي يرتفع شيئا فشيئا من سطح البحيرة قد ابتدا يلف صخور ضفاف العين ، وفوق احدى هذه الصخور ، فوق واحدة منها حيث تبدو كأنها على وشك السقوط في عمق المياه التي يرتسم على سطحها صورة الابن البكر لالمنار جاثيا على ركبتيه عند اقدام حبيبته الغامضة كان يهتم — عبثا — ان ينتزع منها سر وجودها ، كانت فاتنة ، فاتنة وشاحبة كتمثال من الطين ، واحدى غدائرها مسدلة على اكتافها منزلقة بين ثنايا الحجاب كشعاع شمس يتخلل السحب ، وفي دائرة اهدابها الشقر كانت تلمع حدقتاها كزمردتين مسلوكتين في حلي ذهبي .

عندما انتهى الفتى من الكلام معها ، تحركت شفتاه كما لو كان يريد ان يقول بعض الكلمات ، لكنه صعد زفرة ، زفرة ضعيفة ومؤلمة كموجة خفيفة يدفعها نسيم لتلفظ انفاسها بين الاسل .

ولما رأى فرناندو ان امله قد قوبل بتهكم هتف قائلا : لم تجيبي ، اتريدين ان اقدم لك برهانا على ما قد قالوه لي عنك ؟

آه .. لا .. كلميني ، اريد ان اعرف ما اذا كنت تحبينني ، واريد ان اعرف ما اذا كنت استطيع ان احبك ، ان كنت امرأة .. او جنية .. واذا كنت جنية ؟

تردد الفتى لحظة ، وقد تصببت اعضاؤه عرقا باردا ، واتسعت حدقتاه عندما ثبت نظرته باهتمام قوي في احداق تلك المرأة ، وقد سحر بذلك البريق الفوسفوري ، وهتف ،

وهو يشبه احمق في غضبة الحب : ولو كنت اياها .. ساحبك الآن ، كما كتب علي ان احبك الى ما بعد الحياة ، ان كان هناك شيء بعدها .

حينئذ قالت الجميلة بصوت يشبه موسيقى : فرناندو ، احبك اكثر بكثير مما تحبني ، انا التي هي روح محضة اتنازل الى مستوى البشرية ، ولست امرأة كاللواتي يوجدن في الارض : انا امراة جديرة بك ، انت الذي تفوق الرجال الآخرين ، انا اعيش في عمق هذه المياه ، تشكلت مثلها ، سريعة الاختفاء ، وشفافة ، اتحدث مع جلباتها واتموج مع طياتها ، ولا اعاقب من يجتريء على تعكير العين حيث اقيم ، بل قبل كل شيء اجازيه بحبي كبشر يسمو بنفسه عن تشاؤم العوام وكمحب قادر على فهم حبي العجيب والغامض .

بينما هي تتكلم هكذا ، كان الشاب المستغرق في تأملات جمالها الخيالي مجذوبا بقوة مجهولة ، يقترب اكثر فاكثر الى حافة الصخرة ، وتابعت الفتاة ذات العيون الخضر قولها هكذا :

– اترى ؟ اترى صفاء عمق هذه البحيرة ؟
انتظر الى هذه النباتات ذات الاوراق الطويلة والخضراء التي تضطرب في عمقها ؟ .. فهي التي ستهبنا سريرا من الزمرد والمرجان ..

وانا .. انا التي سامنحك سعادة بدون اسم ، هذه السعادة التي قد كنت تحلم بها في هذياناتك والتي لم يستطع احد ان يهبها لك ..

تعالى ، فان ظلام البحيرة تطفو فوق جباهنا مثل خيمة من نسيج الكتان .. والموجات تنادينا باصواتها غير المفهومة ، وشرعت الريح تتلو اناشيدها الغرامية بين اشجار الحور .. تعالى .. تعالى ..

ابتدأ الليل ينشر ظلاله ، والقمر يلمع فوق صفحة البحيرة ، والضباب يدور حول نفسه كدوامة اذا هبت الريح ، والعيون الخضر تلمع في الظلام كالنيران السريعة التي تجري فوق صفحة المياه الآسنة .. (تعالى ، تعالى) هذه الالفاظ رنت في اذني فرناندو كأنها تضرع (تعالى) والمرأة الغامضة تناديه الى حافة الهاوية حيث كانت معلقة ، وتبدو كأنها تعرض عليه قبلة .. قبلة ..

تقدم فرناندو خطوة نحوها ، وزاد اخرى ، وشعر بذراعين نحيفتين ، تطوقان عنقه ، وشعر باحساس بارد في شفتيه الملتهبتين عندما طبعت عليهما قبلة من الثلج .. وتردد .. وخانته رجلاه وسقط في الماء مع جلبة ، غامضة وحزينة .

تواثبت المياه بشرر من النور ، وتلاقت على جسم الفتى فاحتوته ، ودوائرها الفضية صارت تتسع ، تتسع الى ان فنيت على الضفاف .

تطوان : عبد السلام الهراس



اعداد : الأستاذ محمد برادة

محمد المختار السوسي في ذمة الله

ترتبط حياة العلامة الراحل محمد المختار السوسي بمفاهيم جيل لعب دورا بارزا في تاريخ بلادنا الحديث .. وهو جيل رواد الحركة الوطنية والمدرسة السلفية . وقد كانت حركة ناشطة في مجالات شتى ، اذ مزجت الوطنية بالدين وبالثقافة الاسلامية ، وتأثرت بأصداء حركات الاصلاح التي كان يدعو اليها كل من الافغاني ومحمد عبده بالمشرق . وكان محمد المختار السوسي يتوفر على شخصية غنية الجوانب ، تتدفق حماسا ومقاومة للمستعمر الدخيل .. وكانت ثقافته العربية المتينة ـ رغم انتسابه الى قبيلة الغ ـ خير دليل على بطلان وزيف نظرية الظهير البربري التي استهدفت بث الفرقة والعنصرية بين سكان المغرب . وظل طيلة فترة الكفاح ـ يحمل لواء التضامن والتمسك بعروبة واسلام البرابرة ، معرضا نفسه لكل انواع التعذيب والنفي .

ولعل تجارب هذا الكفاح هي التي اوحت له بنشر كتبه المفصلة عن الثقافة الاسلامية في سوس وبعض القبائل ذات الاصل البربري .

ويجب ان نسجل هنا ـ اهمية هذه الكتابات ، باعتبارها وثيقة حية تعكس صورة صادقة لنوعية الثقافة التي كانت سائدة في جزء كبير من وطننا ، ثم لكونها تعطينا فكرة عن الاطار العلمي والتكويني لأحد رجالاتنا اللامعين . وهذا العمل ـ بعد كل ذلك ـ سيتيح لمؤرخي تطوراتنا الفكرية الحديثة ، ان يضعوا أيديهم على المنابع الاولى ، ليتدرجوا في استنتاجاتهم وتفسيراتهم . ونحن نذكر جيدا الثغرة الشاغرة في تاريخنا الادبي والفكري لما قبل هذا العصر ، نتيجة انعدام المصادر أو اختفائها ، مما جعل موقفنا من تراثنا يطبع اما بالغلو في التقدير ، أو بالتنقيص والتحقير .

فاذا ما انتقلنا لكتب العلامة الراحل ، صادفتنا صعوبة في التقييم ، وهي طول نفسه ، حيث ان كتاب المعسول بلغت أجزاؤه العشرين . لذلك فان ملاحظاتنا لن تكتسي صبغة النقد ، بل هي مجرد خواطر ، خصوصا واني لم اتمكن من قراءة الكتاب بأكمله .

وكتاب المعسول عبارة عن تاريخ لقبيلة « الغ » وعلمائها ، وأشياخها ، وصوفييها ، ومن اتصل بهم من القبائل السوسية المجاورة . وهو يمتاز بالاسهاب في ذكر اصل وفصل المترجم لهم ، وسرد أسماء أساتذتهم وأشعارهم . وكثير من الشخصيات المذكورة لا تتميز بخصائص غير عادية ، وكل ميزتها انها حصلت على قدر من الثقافة العربية .. والسؤال الذي يخطر على البال هو : ألم يكن بالامكان الاكتفاء بدراسة مصادر الثقافة الاسلامية للالفيين كظاهرة عامة مع الترجمة لابرز الادباء او السياسيين ؟

وكتاب « سوس العالمة » ، يسلك فيه المؤلف نفس النهج مع توسيع الرقعة الجغرافية اما خلال جزولة والرسالتان البونعمانية والشوقية فقد كتبهما المؤلف بأسلوب يقرب من أسلوب الرحلات والمذكرات الخاصة .. فتحدث عن الاشخاص الذين قابلهم ، وعن انطباعاته ، وخواطره اثناء الحرب العالمية الثانية ، ومضايقات السلطة الفرنسية لنشاطه ..

ويعتبر محمد المختار السوسي ايضا من الشعراء الفطاحل .

لاشك انها حياة حافلة ، تعبر عن مرحلة معينة من تاريخنا الوطني والفكري ، وان انتاج الفقيد يستحق أن يدرس لاجلاء خصائص المدرسة التي كان ينتمي اليها ، والتي أثرت في تاريخنا الحديث .

الدوس هكسلي يودع العالم الافضل

لم يصادف النقاد صعوبة تضاهي الصعوبة التي صادفتهم عند محاولتهم تحديد الطابع المميز لألدوس هكسلي ، والقالب الغالب على انتاجه .. فهو كاتب مقالة ، وروائي ، وشاعر ، وناقد ، وباحث اجتماعي ، وفيلسوف ، وصوفي .. لم يترك مجالا لم يدل فيه بدلوه ، ولم يتهيب الخوض في أي موضوع ، تسعفه ثقافته الموسوعية ، وذكاءه النقاد ...

ولد سنة 1894 بانجلترا ، في وسط تربطه وشائج قوية بالعلم والادب ، وينتمي الى البورجوازية الكبيرة .. ومنذ شبابه الباكر اعلن رفضه لطبقته الاجتماعية واحتقاره لها ، وذلك من خلال قصصه التي هاجم فيها الدين ، والاخلاق ، والتقاليد الحسنة ، وبشر فيها بتفكك العائلة ، وسيادة الحب الاباحي .

ولعل هكسلي مدين بشهرته العالمية لروايته الطريفة « العالم الافضل » التي رسم فيها صورة للحياة كما يتخيلها في المستقبل . وهي تختلف عن « المدن الفاضلة » التي كتبها كثير من الفلاسفة والمفكرين مثل توماس مورو ، وجورج ارويل ، وولز ، ذلك ان « هكسلي » لم يقصد الى تخيل صورة مشرقة للعالم ، ولم يحاول سرد الشروط الكفيلة بتحقيق السعادة للبشر .. بل كان على عكس « ولز » المؤمن بقدرة العلم وامكانياته ، المسرف في التفاؤل . كان الطابع العام لروايته « العالم الافضل » هو السخرية من المصير الاسود الذي ينتظر الانسان بعد تفلفل العلم ، وطغيان الآلة .. والتشاؤم من الشكل المستقبل لتنظيمات المجتمع .. كان يرى ان الطريق الذي يسير فيه العالم سيؤدي .. بطبيعته الى ذوبان الحكم الديمقراطي وحلول الحكم الديكتاتوري محله : فالتضخم المتزايد للسكان في كوكب محدود الامكانيات ، يؤدي الى قيام مشاكل لايحلها الا اللجوء الى الحكم الديكتاتوري الذي تتلاشى فيه ارادة الفرد ..

لقد كان « هكسلي » يؤمن بوجود « خير » ، ولكنه خير غير قادر على قهر قوات الشر .. وهذا التشاؤم يرتكز على جذور متأصلة في عقليته الفلسفية الواعية .. كتب بعد ذلك « عودة الى افضل العوالم » فأكد قائلا :

« وتحت وطئة ديكتاتور علمي ، ستعطي التربية التاثيرات المرادة ، وسينتج عن ذلك ان معظم الرجال والنساء سيحبون عبوديتهم دون ان يفكروا ابدا في الثورة .. ويظهر انه لن يكون هناك من سبب وجيه يدعو الى قلب ديكتاتورية علمية محضة .. »

وفي آخر كتاب نشره بعنوان « الجزيرة » لم ينس ان يسجل الاخطار التي تتهدد المجتمع .. قال :

« ان الجهاز العائلي سيختفي . وسيتحتم على المجتمع ــ بعد هدم اساسه ــ ان يبحث عن أسس اخرى . في حين ان الحب اللامسؤول سيظل يحلق كالفراشة من زهرة الى زهرة .. »

ان هكسلي قد كتب روايات متعددة ولكنه اشتهر كمفكر ، اكثر مما اشتهر كروائي . وكان يحاول باستمرار ان يثبت حضوره في كل المعارك والخصومات الجدلية التي تنشب حول طبيعة القرن العشرين ، ومشاكله . وقد شارك في ندوة عقدت بالهند لتحديد دور الادب في عصر العلم والصناعة ، فقدم عرضا هاما نلخص هنا اهم فقراته : (*)

ما هي الخبرات الجديدة المفروضة علينا بحكم البيئة الجديدة التي نعيش فيها اليوم ؟

هناك بعض النتائج السيكولوجية التي ترتبت عن كون الانسان يعيش في القرن العشرين لا في القرن 18 مثلا :

1) الحالة النفسية الناتجة عن كون الانسان معاصرا للقنبلة الهيدروجينية ومعاصرا للحرب الباردة: فالنفس يملؤها قلق مبهم يصاحبه احساس بعبث الحياة ، وانعدام المسوغ لبذل الجهد وللطموح في عالم قد يباغته الدمار .

2) الحالة النفسية التي نتجت عن كون الانسان معاصرا لطرائق الانتاج والتوزيع على النطاق الواسع في عالم الصناعة الحديث ، فكل تقدم في التقنيات يسايره حتما تقدم مماثل في التنظيم الاجتماعي ، وان جوانب كثيرة من النظم الاجتماعية الحديثة قد وجدت اولا لتلائم طرائق الانتاج والتوزيع الحديثين ، وكان على الانسان بعد ذلك ان يوائم بين نفسه وبينها ، ولذلك فان الشعور النفسي عند الفرد بقلة حيلته يزداد اتساعا وعمقا .

3) الحالة النفسية التي نتجت عن زيادة سكان العالم زيادة كبيرة مفاجئة ، وما ترتب عنه من نمو فظيع في كبريات المدن . ومعنى ذلك ان عددا كبيرا

(*) عن عرض للدكتور زكي نجيب محمود ، نشر بمجلة الثقافة عدد 1 ــ يوليو 1963

من الناس اصبحوا يعيشون فى بيئة حضرية ، بعد ان كان العدد الاكبر من اسلافنا يعيشون فى بيئة ريفية طبيعية ، وكان من نتائج ذلك ان الملايين لايعلمون شيئا عن الطبيعة .

فما هي النتائج النفسية لكل هذه الحقائق ؟

1) تضييق دائرة الخبرة بالطبيعة ضيقا شديدا .

2) فقدان الانسان لشعور الانتهاء ، والاحساس بالضياع .

3) الاضطرار الى تحديد النسل للحد من زيادة السكان .

كل هذه النتائج المستخلصة من حياة الانسان فى القرن العشرين يجب وعيها ، والكشف عن خفاياها النفسية ثم تحويلها الى ادب يستوعبها استيعابا فنيا ، وذلك لكي لا نظل نشعر بغربة الادب عن حياتنا ...

الجوائز الأدبية ... فى فرنسا

كان هذا الشهر موعدا لتوزيع الجوائز الادبية فى فرنسا ـ وما اكثرها ـ والذي يهمنا الوقوف عنده ، فى هذا المجال ، هو دور هذه الجوائز فى تنشيط الحركة الادبية ، ورفع مستوى القيم الفنية ، وتثبيت سلطة النقد ..

ذلك ان الادب ـ بحكم طبيعته ، وجوهر مهمته ـ لا يحدث اثرا مباشرا ملموسا ، مثلما ينشأ عن الانتاج المادي .. بل ان تأثيراته تظهر على المدى البعيد ، وتتسلل الى النفوس لتحاورها وتمدها ببذور التوعية والايحاء .

واذا كان الجانب الملموس من اية حضارة يكتشف عن مدى تنظيمات المجتمع وديناميته ، فان الادب يعتبر المسجل الماورائي لكل حضارة ؛ اذ هو رصد وتتبع ، وتصوير لخلجاتها ، وقيمها وما تعيشه من مواقف مختلفة فى الحياة . ومن هنا تبرز اهمية الادب فى جميع المجتمعات المتحضرة ، وتخصص له المساعدات والامكانيات ليظل حيا متطورا قادرا على اداء رسالته الصعبة .

من هذا المنظار تتجلى لنا اهمية الجوائز الموقوفة على تشجيع الادباء ، خاصة فى عالم يطغى جانبه المادي يوما بعد يوم ، وتتجه فيه الاحكام الى اعطاء الاسبقية للانتاج ذى المردود ، واهمية الجوائز الادبية تتضاعف فى الشعوب النامية التي لم ينتشر فيها التعليم على نطاق واسع ، ولم تترسخ لديها تقاليد المطالعة وتتبع النشاطات الثقافية ..

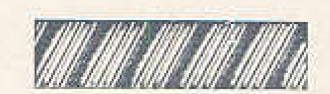
ثم ان من حسنات هذه الجوائز فتح المجال امام الادباء الشبان ، وشد وثاقهم الى عالم الحرف ، فلا يعزفون عنه بسبب الاهمال او انعدام التصادي بينهم وبين الجمهور ..

وهكذا ـ مثلا ـ اتيح لنا أن نتعرف هذه السنة على كاتب فرنسي شاب هو « جان ماري كيستاف اوكليزيو » M. C. Leclezio بعدما فاز بجائزة رنودو عن روايته « المحضر »

فرغم انه لم يتجاوز الثالثة والعشرين ، ورغم انه ما يزال طالبا ، فان موهبته وجدت من يقدرها ، ويوليها ما تستحق من جزاء .. وبذلك يزداد التاكيد على ان الادب لم يعد مجرد نشاط هامشي ...

فمتى تحظى هنا ـ فى المغرب ـ بتخصيص جائزة هامة ـ ولا اقول جوائز ـ تعيد الاعتبار لذوي الخلق والابداع .. حتى تمحي عنهم وصمة « ادركته حرفة الأدب » ؟ ؟

الرباط : محمد برادة



من نشاط وزارة الأوقاف

في الميدان الفلاحي

◆ انتهت الوزارة بالتعاون مع كل من وزارة المالية ووزارة الفلاحة من عملية مسح واحصاء الاراضي الحبسية وقد استمر هذا العمل ازيد من سنة .

◆ صدر ظهير شريف بعد سعي متواصل سيدخل حيز التنفيذ فى القريب يرمي الى اعفاء الاراضي الحبسية من واجب التسجيل .

◆ ادت الطريقة الجديدة التي اتبعتها الاحباس فى نظام المغارسة على اساس دفع نصف الغلة للمغارس اذا زاد الانتاج عن 90 ٪ ، ادت هذه الطريقة الى رفع مدخول الاحباس بصورة ملموسة فى المجال الفلاحي.

◆ غرست الاحباس بالتعاون مع ادارة المياه والغابات عددا من الاراضي فى كل من اقليم فاس ومراكش والحسيمة والرباط .

◆ قررت الوزارة ان تباشر بنفسها غرس الاراضي التي كانت تكرى بثمن منخفض وذلك بواسطة النظار والخبراء والعملة الاختصاصيين ، وقد استطاعت الوزارة ان تنشيء مغرسا بزرهون يضم 60 000 نقلة من الزيتون ، وستنشيء فى القريب مغرسا آخر بمراكش يضم 100 000 نقلة من الزيتون .

◆ بلغ عدد الاشجار التي غرستها الوزارة من الزيتون والكليبتوس واللوز والبرتقال حتى آخر سنة 1962 : 1 752 445 شجرة .

◆ ارتفعت نتائج بيع الغلال واكراء الاراضي من 120 000 000 سنة 1962 الى 300 000 000 سنة 1963 .

◆ كان للغابة التي انشأتها وزارة الاوقاف على مساحة 70 هكتار باراضي لالا ملوكة أثر كبير فى تغيير منظر هذه الناحية التي كان يسود فيها الجفاف وينتظر ان يرتفع مدخول هذه الارض بعد خمس سنوات الى 350 000 درهما بدل 350 درهما وهو القدر الذي كانت تكرى به .

◆ قر عزم الوزارة على ان تغرس بضواحي فاس فى بحر السنة القادمة 20 000 نقلة من الزيتون .

◆ غرست الوزارة بارض سايس ناحية دكالة 20 هكتارا من الكليبتوس .

◆ ستشرع الوزارة ابتداء من السنة القادمة 1964 فى غرس 50 000 شجرة من الكليبتوس فى الاراضي التالية بناحية اسفي : سيدي بوزكري ، لالا ملوكة ، سيدي علي الرجراجي .

في الميدان الديني

◆ قامت الوزارة فى ناحية وجدة ببناء مسجد الحسن الثاني ، كما وسعت مجسد ظهر المحلة وباشرت عملية تجديد مسجد سيدي يحيى .

◆ بناحية رودانة قامت الوزارة باصلاح المساجد التالية : مسجد التهيد ، مسجد آغر ، مسجد سيدي ياسين ، مسجد درب الشريف ، مسجد درب آنة ، مسجد مفرق الاحباب . كما زودت ثلاثة مساجد في رودانة بمكبرات للصوت .

◆ اما بوزان فقد اصلحت الوزارة المساجد التالية : المسجد الاعظم ، مسجد الرمل ، مسجد اولاد

ريان ، مسجد ابي فارس ، مسجد قبيلة صرصار ، مسجد القشريين ، مسجد عرباوة ، كما ساهمت في اصلاح بعض المساجد بسوق أربعاء الغرب وأعانت على اصلاح 14 مسجدا بقبيلة بني مستارة وثمانية مساجد بقبيلة سطة .

◆ تنوي الوزارة توسيع مسجد عين التواتي بمدينة طنجة وتقدر تكاليف هذا العمل بنحو 000 20 درهم .

◆ قامت الوزارة خلال السنة الماضية في اقليم تازة بتتميم بناء مسجد كرسيف وقد كلفت هذا العمل مبلغ 000 28 درهم كما شرعت في بناء مسجد الحسن الثاني الذي سيكلف 018 395 درهما ، كما بدىء من جهة اخرى اصلاحات مهمة في كل من المسجد الاعظم ومسجد اكنول .

◆ اما في ناحية زاكورة فقد قامت الوزارة خلال هذه السنة بمتابعة العمل في بناء المسجد المحمدي ، كما اعادت بناء المسجد الكبير بتامكروت وقد كلفت هذه الاعمال 162 166 درهما ولم تهمل الوزارة بهذه الناحية الزاوية التمكروتية اذ تم اصلاحها اصلاحا كاملا .

◆ يوجد قيد الدرس بالوزارة عدة مشاريع لمدينة مراكش ترمي الى انشاء مسجد بحي كليز ، اصلاح كل من صومعة الكتبية ، وجامع ابن يوسف ، وجامع المواسين ، وتشييد مسجد جديد بباب دكالة.



الأنباء الثقافية

※ صدر في العدد الاخير من الجريدة الرسمية في طبعتها الفرنسية المؤرخ ب 13 نوفمبر الماضي ظهير يتعلق باجبارية التعليم في المغرب على كل الاطفال ذكورا واناثا الذين يبلغ عددهم ما بين 7 و 13 سنة ، وينص فصله الثالث على أن كل شخص مسؤول عن طفل سواء كان والده ، او والدته ، او وصيا عليه او مديرا لمؤسسة خيرية ، كل هؤلاء مسؤولون عن تسجيل الطفل في المدرسة ، وينص الفصل السادس على العقوبات التي يتعرض لها المسؤولون عن تسجيل الاطفال ، اذا لم يسجلوهم في المدارس ، والعقوبة هي الغرامة التي تتراوح بين 12 و 120 درهما ، لكل من اخل بمسؤولية التسجيل . وينص الفصل السابع على ان النيابة العامة تتابع هؤلاء الاشخاص اذا اخلوا بمسؤولياتهم . كما ينص الفصل الثامن على ان مقتضيات هذا الظهير يبدأ العمل بها ابتداء من فاتح اكتوبر 1963 في اقاليم المغرب التي يحدد بداية العمل في كل اقليم منها .

※ سيفتتح في قاعة العرض اليونيسكو بباريس معرض يضم الواح الاستاذ محمد الفاسي رئيس جامعة محمد الخامس .

※ كانت منظمة اليونيسكو قد أوفدت بعثة الى المغرب لدراسة اوضاع التعليم ، وقد وضعت هذه البعثة تقريرها عن نتائج التحقيق الذي قامت به ، وقررت ان تطلب من البنك الدولي ان يقدم قروضا للمغرب لتمويل المشاريع التربوية وتنميتها ، وقد صرح الاستاذ فلتشر مدير البعثة في لندن بانه يعتزم مقابلة ممثلي البنك في الشهر المقبل في الولايات المتحدة الامريكية ليرفع اليهم توصياته حول هذه المساعدة . واضاف ان حكومة المغرب قد طلبت من اللجنة أن تبرز الاهمية التي يجب ان تعطى للتعليم في نطاق التنمية الاقتصادية في البلاد . وكانت اللجنة خلال اقامتها في المغرب قد تفقدت عددا كبيرا من المعاهد المغربية من ثانوية وعليا . وسيرفع تقرير اللجنة الذي يقع في مائتي صفحة ، والذي يتضمن نتائج تحقيقاتها ومحادثات البروفسور فلتشر مع المسؤولين عن البنك العالمي الى الحكومة المغربية .

※ اصدرت دار الكتاب بمدينة الدار البيضاء « خريطة المغرب الطبيعية » .

※ بدعوة خاصة من جلالة الملك ، زار المغرب اخيرا الاستاذ السيد محمد علي الطاهر ، الذي كان انعم عليه المغفور له محمد الخامس بوسام ، تقديرا لمجهوداته في سبيل استقلال المغرب .

※ قدم الى المغرب في الشهر الماضي الاستاذ فيكتور كانز مستشار الحكومة الكندية للتدريس في كلية الاداب بجامعة الرباط ، وذلك في اطار المساعدة التي تقدمها كندا الى الدول المتخلفة ، والاستاذ المذكور دكتور في الادب من جامعة السربون ، ومؤرخ وعالم اثري ، ومؤلف كبير ، كان يزاول نشاطه في جامعة « مونتريال » بكندا ، وقد قبل في هذه السنة ان يتقلد المهمة التي كلفته بها بلاده ، وهي مباشرة رسالته الثقافية بكلية الآداب بجامعة الرباط .

※ نظم « اتحاد كتاب المغرب العربي » ضمن نشاطه الثقافي والادبي اسبوعا خاصا بالمسرح ، القيت فيه عدد من المحاضرات ، وعرضت فيه مسرحيات مغربية .

※ شارك المغرب في اول مهرجان للتليفزيون الدولي الذي افتتح في لندن في الشهر الماضي .

※ يعتزم المركز الجامعي للبحث العلمي بالرباط اصدار مجلة تعنى بشؤون الفكر .

※ صدر عن وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية كتاب « مختصر العين » لمؤلفه ابي بكر محمد بن الحسن الزبيدي الاشبيلي المتوفى سنة 379 هجرية ، قام بتقديمه والتعليق عليه ، الاستاذان علال الفاسي ، ومحمد ابن تاويت .

※ صدرت للسيد محمد التازي قصة طويلة بعنوان « المتمردة » ، ويعد هذا هو الكتاب الثاني الذي يصدره المؤلف بعد كتابه « مذكرات صحفي »

* « مقاصد الشريعة الاسلامية ومكارمها » عنوان الكتاب الجديد الذي صدر اخيرا للاستاذ علال الفاسي .

* فى نطاق مساعدة المغرب لعمان ، قدم المغرب عشرين منحة دراسة للطلبة العمانيين ، كما سيساهم فى انشاء مكاتب لعمان فى البلدان الاوربية .

* اقيمت فى الرباط حفلات اليوم الطبي فى كلية الطب ، حضره عدد كبير من اطباء انجلترا ، وفرنسا ، والمانيا ، والقيت فيه عدة محاضرات حول الاكتشافات الجديدة فى عالم المرض والطب ، كما عرض المغرب انجازاته الصيدلية من ادوية وآلات

* تم فى المغرب تأسيس مجلس وطني للثقافة والفنون الشعبية التابع لوزارة الانباء

* سيصدر قريبا عن دار الكتاب بالدار البيضاء مؤلف جديد لمحمد الصباغ بعنوان « عنقود ندي » وقد سبق للمؤلف ان اصدر الكتب الآتية « شجرة النار » « اللهاث الجريح » « انا والقمر » « شلال الاسود » « العبير الملتهب » « فوارة الظمأ » .

* صدر عن دار الكتاب « ديوان مصطفى المعداوي » حققه وقدم له الاساتذة : ابراهيم الجمل واديب السلاوي واحمد المجاطي .

* يجتمع فى شهر مارس القادم حوالي 32 من وزراء التربية والتعليم فى البلاد الافريقية الاعضاء في منظمة الوحدة الافريقية بمدينة ايدجان عاصمة ساحل العاج .

* عقد مؤخرا فى كلية الحقوق باكرا المؤتمر الثاني للصحفيين الافارقة تحت شعار « الدور الذي لعبته الصحافة الافريقية فى تحقيق الوحدة الافريقية »

* اتفقت الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية التي اجتمعت مؤخرا بتونس على مبدا توحيد الاشهر القمرية فى مجموع الدول العربية ، وكلفت الادارة لجنة من المشرعين ورجال الفلك فى الدول العربية لدراسة هذه القضية من الناحية الدينية على ضوء تطور العلوم .

* كتاب « تراث العرب العلمي » لقدري طوقان يصدر قريبا .

* اصدر مجمع اللغة العربية بالقاهرة كتاب بعنوان « بحوث مجمع اللغة فى 30 سنة »

* اصدر المجمع اللغوي بالقاهرة المجلد الخامس من « مجموعة المصطلحات العلمية والفنية » التي أقرها المجمع ، وقد مثل للطبع المجلد السادس .

* « جائزة التفوق » هو الاسم الجديد لجائزة الدولة التشجيعية ، اقر هذا التقدير المجلس الاعلى للفنون والآداب بالقاهرة .

* ستقيم مؤسسة فنون المسرح والموسيقى بالقاهرة مهرجانا دوليا للموسيقى والمسرح يبدا في اول يوليو 1964 وسيستمر حتى غشت من نفس السنة

* تم اخيرا طبع ديوان شاعر الاسكندرية المرحوم عبد المجيد السنوسي الذي قام بجمعه وتحقيقه الاستاذ محمد مفيد الشوباش ومصطفى السحرتي .

* ادخلت على برامج كلية الدراسات العربية بجامعة الازهر مادة جديدة عن ادب المهجر .

* عقد بالقاهرة مؤخرا مؤتمر المراة العاملة .

* صدر فى روائع المسرح العالمي التي تصدرها المؤسسة المصرية للتاليف كتاب « ايولف الصغير » الذي قام بترجمته محمود سامي أحمد وقدمه الدكتور عبد الرحمن بدوى .

* يطبع بالقاهرة كتاب « خيال الظل » لابي دانيال قام بتحقيقه السيد ابراهيم حمادى وراجعه الدكتور محمد محمد القصاص .

* صدرت فى ليبيا مجموعة من المسرحيات القصيرة لعبد الله القويرى عنوانها « المعاناة من اجل لا شيء »

* اوشك السيد انور الجندي على الانتهاء ، من موسوعته « معالم الادب المعاصر » بعد ان بدا يعد

للطبع الكتب الآتية «اللغة العربية بين حماتها وخصومها» «القصة العربية المعاصرة» «أدب المرأة العربية» «الترجمة فى الادب العربي المعاصر».

※ كتاب عن الفنون التشكيلية الصينية بعنوان «دور الفنانين الصينيين فى معركة تحرير الصين» صدر بالقاهرة مترجما الى العربية بقلم مراد القليوبي.

※ ستصدر محافظة القاهرة كتيبات عن تاريخ مصر القديم والحديث وأهم معالم القاهرة وتاريخ انشاء هذه المعالم.

※ يجري المجمع اللغوي بالقاهرة انتخاب 3 اعضاء يشغلون مركز المرحومين لطفي السيد، واسماعيل مظهر، وابراهيم مصطفى.

※ اهدى المجلس الاعلى للفنون والآداب بالقاهرة مؤلفات طه حسين، وتوفيق الحكيم، ونجيب محفوظ الى جامعة طشقند.

※ اقيم فى القاهرة مهرجان دولي للفنون الشعبية اشتركت فيه الدول العربية، ودول البحر الابيض المتوسط.

※ ستنشا فى القاهرة كلية للطب البيطري.

※ وافقت جامعة الازهر على ايفاد 8 من علماء الازهر الى جامعة بغداد، و 6 علماء الى جامعة ليبيا، و 12 عالما الى اليمن، وعددا آخر الى جامعة الرياض.

※ سيبدا العمل فى هذه الايام فى رفع معبدي ابي سنبل الاثريين الى ما فوق مياه النيل، وفى شهر ماي المقبل سيقع تقطيع المعبدين الى اجزاء صغيرة لاعادة بنائها على هضبة ترتفع 64 متر. وذكر المدير العام لهيئة اليونيسكو أن 47 بلدا قد تبرعت بما يزيد على 19 مليون دولار لنفقات انقاذ المعبدين المهددين بالغرق عند انتهاء بناء سد اسوان العالي. ومنحت حكومة الجمهورية العربية المتحدة ما قيمته 24 مليون دولار مجموعة من ست شركات المانية وايطالية، وفرنسية وسويدية، ومصرية.

※ يصدر المجمع اللغوي بالقاهرة مجلدا يضم القرارات والمصطلحات العلمية التي اقرها المجمع منذ انشائه عام 1932 وتبلغ هذه المصطلحات وهذه القرارات ثلاثين الف مصطلح ومائتي قرار علمي. واول قرار اتخذه المجمع منذ انشائه على اللائحة الداخلية، وقد ظل الاعضاء يتناقشون حول اللائحة 14 جلسة ومما يذكر ان المجمع الفرنسي فى القرن السابع قضى عاما كاملا فى مناقشة لائحته الداخلية.

※ نعى لبنان احد رجالاته البارزين فى حقول الادب والفكر، هو الشاعر شارل قرم عن عمر يناهز 69 قضاها مناضلا فى خدمة الادب والمعرفة مخلفا وراءه عدة مؤلفات أدبية كلها باللغة الفرنسية منها «الجبل الملهم» و «الفن الفينيقي» و «سر الحب»

※ «ضحكة الحرير» مجموعة شعرية صدرت فى العاصمة اللبنانية للشاعر انطون قازان.

※ أصدر الكاتب محمود الحوت ديوانا بعنوان «اللهب الكافر».

※ صدر فى بيروت كتاب «تطور النقد الادبي في العصر الحديث» لمؤلفيه كارلوني، وجافيللو، قام بترجمته الى العربية جورج يونس.

※ ظهر فى المكتبات العربية فى هذا الاسبوع كتاب لمؤلفه الياس مخلوف عنوانه «الكويت بلد يولد من جديد».

※ سينقل رفات شاعر الاقطار العربية المرحوم خليل مطران الى مسقط راسه بعلبك، واقامة تمثال له هنـاك.

※ أصدر الكاتب الكوبي سيفيرو ساردوى رواية بعنوان «حركات».

※ القي القبض اخيرا على الكاتب الاسباني خوسي بركمان لافكاره التحررية.

※ يقوم المستشرق الهولندي بوضع معجم ضخم للحديث الشريف، وقد وصل فيه الى حرف القاف، هذا اول معجم فى الحديث يكتب باللغة العربية

❊ احرز جان بول سارتر ، وسيمون دوبوفوار على جائزة « تورماغانا » التي يقدمها بصورة دورية كتاب ايطاليا .

❊ صدر في باريس كتاب عن سياسة غاندي عنوانه : « غاندي وميكيافلي وجها لوجه » يتناول الكتاب الفرق الشاسع بين سياسة غاندي على نبذ العنف ، وسياسة ميكيافلي التي هي عكس ذلك تماما .

❊ ترك الكاتب الفرنسي المعروف جان كوكتو مذكراته الخاصة التي ظل يكتبها طوال الاثنى عشر عاما الماضية بعنوان « الماضي التام » وقال اصدقاؤه انه دون فيها ملاحظاته عن الاشخاص الذين قابلهم ، وعن الكتب التي قراها ، وتعليقاته على الاحداث . لا يعرف احد متى تنشر هذه المذكرات التي تبحث عنها باريس

❊ ستقوم احدى مؤسسات الفن الوطني الايطالي بتنظيم سوق كبير للرسومات الايطالية الحديثة في بعض الدول العربية وقد افتتحت بعرض لوحات فنية في بيروت قدمت فيه لجمهور عاصمة لبنان نخبة من احدث اللوحات الفنية الايطالية ، ويحتوي المعرض على 57 نوع من الرسومات المختلفة ، وبعد الانتهاء من بيروت ، سيحتفل بافتتاح معرض مماثل في دمشق ، ثم في طهران ، ويقام هذا المعرض الكبير في الشرق الاوسط لاول مرة في تاريخ العلاقات الثقافية الايطالية العربية .

❊ صدرت عن وزارة الثقافة بالقاهرة رواية « رجال وثيران » للروائي يوسف ادريس .

❊ صدر في سلسلة « أعلام العرب » بالقاهرة كتاب « شكيب ارسلان » لمؤلفه احمد الشرباصي .

❊ في سلسلة بعنوان « دراسات صحفية » أصدر جلال الدين المحماصي بالقاهرة اول كتاب فيها عن « المندوب الصحفي » تناول فيه كل ما يتعلق بالخبر ، ومهمة الصحافي في الحصول عليه ، والانفراد به ، والى جانب ذلك ، فالكاتب يرسم للصحافي الناشيء الطريق الذي يصبح به مخبرا صحافيا ناجحا .

❊ يصدر قريبا عن مؤسسة اليونيسكو الجزء الثاني من كتاب تطور الانسان لمؤلفه الدكتور محمد خلف الله .

❊ « الشعر الشعبي في السودان » هو الكتاب الجديد الذي يقوم باعداده الآن الدكتور محمود ذهني المدرس بجامعة القاهرة .

❊ تاسست في بيروت جمعية باسم « الحركة » العلمانية الديمقراطية غايتها مكافحة النزعات الطائفية والاقطاعية في لبنان ، وتشجيع قيام نظم علمانية ديمقراطية تعتمد على العلم والكفاءة .

❊ بدا تصوير فيلم « الاجنحة المتكسرة » لجبران خليل جبران وقد اخذت للفيلم في بشرى مدينة الراحل عدة مشاهد .

❊ اقيمت حفلة تكريمية لميخائيل نعيمة في مسقط راسه بقريته بسكنتا باشراف رئيس الجمهورية اللبنانية .

❊ برعاية رئيس الجمهورية اللبنانية احتفل بذكرى فيلسوف الفريكة أمين الريحاني ، تكلم فيها كثير من الشعراء والادباء .

❊ اقامت الجمعية اللبنانية للعلوم السياسية مؤتمرها الثالث لعلم السياسة في منتصف شهر نوفمبر الماضي ببيروت في موضوع « الراي العام والحياة السياسية »

❊ اصدر امبراطور اليابان هيرو هيتو كتابه الرابع في علم النبات . وذكرت الدار التي قامت بطبعه ان هذا الكتاب يعتبر ملحقا للكتاب السابق الذي نشره المؤلف المذكور بعنوان « نباتات ناسو » في السنة الماضية ، حيث ضمن الكتاب الجديد شرحا وافيا لمائة وثمانين نوعا من أنواع النباتات في مقاطعة ناسو .

❊ افادت الدوائر المقربة لسلطات مدينة بروكلين ان البيت الذي ولد فيه الرئيس جون كينيدي قد يتحول الى متحف تاريخي وسيقدم اقتراح بهذا الصدد في الاجتماع القادم للمجلس البلدي بمدينة بروكلين ، وتملك هذا البيت الآن سيدة تبلغ من العمر 74 سنة ويحمل باب البيت لافتة من البرونز كتب عليها « هنا ولد الرئيس جون كينيدي رئيس الولايات المتحدة الخامس والثلاثين .

* انعقد فى كلونيا مؤتمر للترجمة ، درست فيه الصعوبات والمشاكل التي يتعرض لها التراجمة اثناء ترجمة خطابات كبار الساسة حيث أصبح القسم الاكبر من مصير العالم بين الساسة والتراجمة .

* توفي مؤخرا فى هوليود الكاتب الانجليزي المعروف الدوس هكسلي أحد الادباء البريطانيين اللامعين ، وقد خلف وراءه مؤلفات عديدة نذكر منها : « الملاك والوحش » « وجولة متشكك عبر العالم » و « طباق ومارينا » وسواها .

* تبرعت الحكومة البريطانية بمبلغ 68 000 جنيه استرليني لصندوق انقاذ معبدي ابي سنبل كما قامت منظمة اليونيسكو بحملة جمع التبرعات للصندوق لتمويل مشروع نقل المعبدين الاثريين من موقعهما الحالي بالقرب من نهر النيل قبل ان تغمرهما المياه بعد انتهاء العمل فى سد اسوان العالي .

* تم تسجيل 37 تمثيلية وقصيدة للشاعر شكسبير على اسطوانات ، قام بهذا العمل المجلس الثقافي البريطاني .

* بلغ عدد الاميين فى العالم الآن ثلثي السكان ، ومعظمهم من النساء ، واذا لم يتحسن الموقف فان عدد الاميين سيتزايد كل عام 20 أو 25 فى المائة .



فهرس العدد الثالث ـ السنة السابعة

دراسات اسلامية :

ابحاث ومقالات :

قصة العدد :